كلمة العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي » .

صدق الله العظيم

رثاء ووفاء

لسعادة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

فقدت البحرين بصفة عامة وفقدت الوثيقة بصفة خاصة علما من الاعلام البارزين في العمل الوطني وفي الحركة الثقافية هو المرحوم الشيخ خالد بن محمد بن عبدالله آل خليفة .

فقد كان رحمه الله إلى جانب عطائه الطويل والكثير في مختلف المجالات عضوا من أعضاء مجلس هذه المجلة التي ترثيه اليوم ذاكرة له وللأجيال القادمة لمحات من عطائه الجم الذي حفره باخلاصه في تاريخ هذا الوطن الحبيب .

ولد الراحل الكريم بالمحرق عام ١٩٢٨ ونشأ وترعرع في كنف جده المغفور له الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة وفي مجالس جده تلقى دروسه الأولى بفضل ما كان يسمعه من رواد هذا المجلس من أحاديث وقصص وأمثال غرست في روحه بذور الأخلاق الكريمة التي تقوم على ركيزتين اساسيتين هما ايمان عميق بالله ثم التمسك بالقيم التي جاء بها الاسلام ورعتها العروبة مثل الاخلاص والوفاء والعطاء والصدق

والكرم هذه الصفات التي ميزت شخصيته طوال حياته والتي عرفه الجميع بها طوال مشواره .

وقد توفي والده وعمره ١٣ عاما فكان لوالدته رحمها الله الشيخة نجلاء بنت خالد آل خليفة الدور الكبير في رعايته ونشأته هو واخوته الصغار .

وقد مات والده رحمه الله وهو في الابتدائية ومع ذلك بقي بيته ومجلس والده ملتقى للشباب من مثل سنه يعالجون مختلف الهوايات التي يميل اليها الشباب في الحديث والتمثيل والخطابة وكان من الرواد الذين انشأوا نادى الاصلاح بغرفة صغيرة متواضعة والذى تكونت على ضوئه جمعية الاصلاح الحالية وعلى العموم فقد كانت تصرفاته وسيرته واخلاقه أكبر من سنه . وبعد أن أكمل دراسته في المدارس النظامية بالبحرين ابتعث إلى مصر لأكمال دراسته .

وقد اخبرتني والدته غفر الله لها وهي في مرضها الأخير أنها حزنت حزنا كبيرا لفراق ابنها عندما ارسل للدراسة في مصر فرأت وهي في المنام شيخا وقورا يربت على كتفها ويطمئنها بكلمات طيبة كان لها كبير الأثر في اطمئنان نفسها .

وكان الداعي لإخباري بذلك الحديث انها رأت نفس ذلك الشيخ وهي في مرضها الأخير عندما قصت على تلك القصة وقد انتقلت إلى جوار ربهاثم لحق بها ابنها غفر الله لهما وادخلهما فسيح جناته .

وقبل أن يعود ألى البحرين ثم إلى البادية ليحيا وسط قبيلة بنى خالد ويتزوج منهم ويجمع في شخصيته ملامح الحضارة التي عاشها على شاطىء النيل وأصالة البداوة التي عاشها بين كثبان الصحراء ثم إلى البحرين مرة أخرى ليشترك في الحياة العامة مديرا لادارة الهجرة والجوازات ومديرا عاما للجمارك ووزيرا للعدل قبل أن يعتزل الحياة العامة ثم ليشارك بعد ذلك بمتابعته وتقييمه ونصائحه في مسيرة هذه المجلة التي كان يعتز بها اعتزازا خاصا وكم استفادت الوثيقة من ثقافته العريضة والعميقة فقد كان رحمه الله حجة في كثير من الالفاظ القديمة وتعبيرات البادية واشتقاقاتها التي لا يحيط بها إلا الخبير .

ولقد كان رحمه الله الأب الروحي للشعر النبطي ولشعراء النبط في البحرين بل وفي منطقة الخليج . فقد أحب هذا الشعر منذ صباه

وتعمق في وجدانه خلال حياته في البادية التي قضى فيها ست سنوات على عادة العرب الأصلاء في تاريخنا الماجد الذين كانوا يبعثون ابناءهم إلى البادية ليتلقوا العربية من مصادرها البكر وليتشكل وجدانهم تشكيلا نقيا باللقاء المباشر مع الطبيعة . وفي البادية التقى الراحل مع الليل والفجر والجبال والرمال والعلاقات المتميزة ذات العراقة والأصالة وأصبح شاعرا مطبوعا في ديوان الشعر النبطي المتميز الذي انتج فيه نماذج هي من عيون هذا الشعر وأمثلته الفذة نشر بعضها في ديوان روضة الشعر وقد اصبحت هذه النماذج مدرسة قائمة بذاتها لأجيال عديده عالجت وتعالج هذا اللون من ألوان الأبداع . وطوال نصف قرن حمل الفقيد شعلة الشعر النبطي وفتح قلبه وبيته للأجيال الشابه التي وجدت فيه نبعا دافقا بالعطاء لا يبخل عليهم بالنصيحة التي تحدو خطاهم نحو آفاق الابداع الفني .

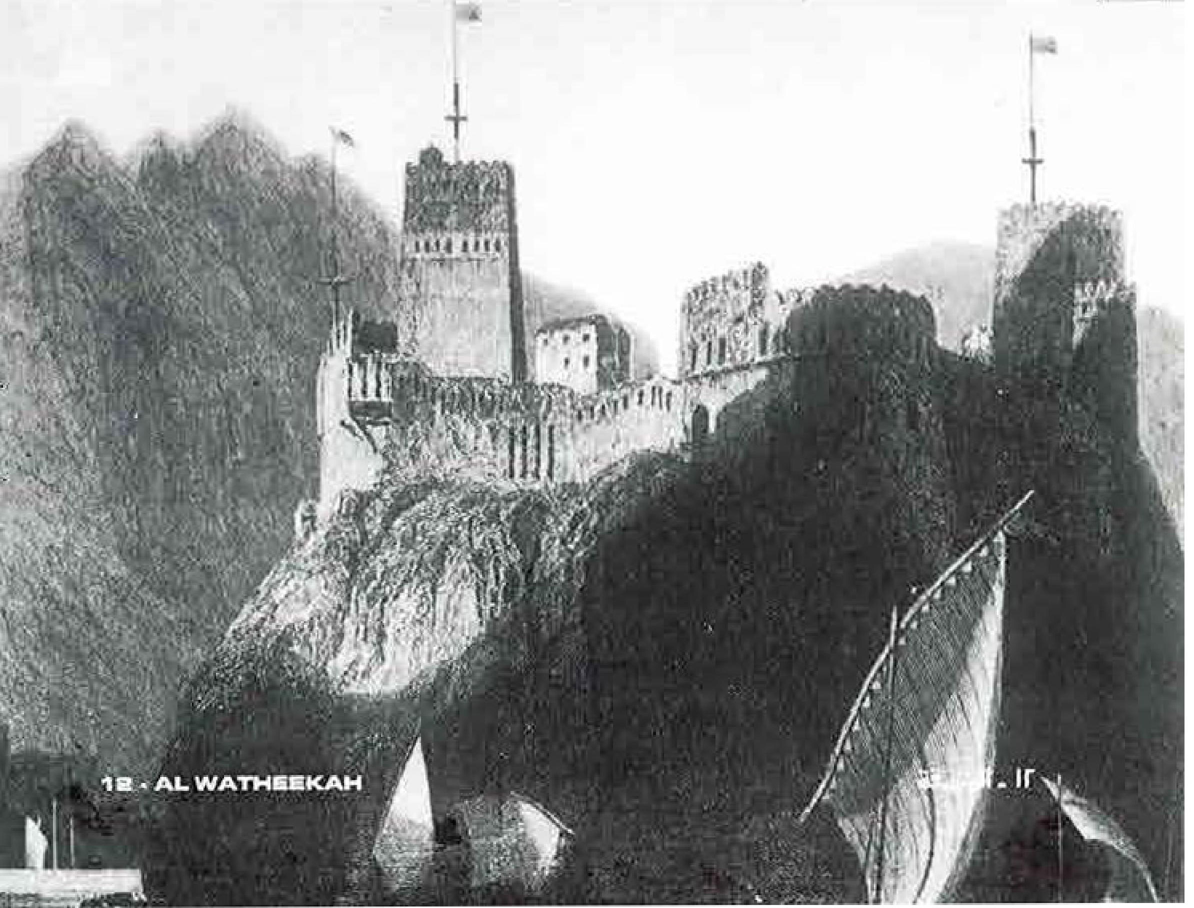
بهذا العطاء المتميز منذ الصغر سار الراحل الكبير مشواره الذي لم يطل كثيرا محبوبا من كل من عرفه او تعامل معه . معطاء لكل من قصده أو لجأ اليه شعلة متوهجة مضيئة لمجموعات كبيرة من الشباب الذين اختاروا طريق الشعر والأبداع . حتى جاء الأجل الذى لاراد له ولا دافع ودقت ساعة الرحيل فرحل ترافقه دموع الكثيرين الذين عرفوه واحبوه واحسوا بعمق الخسارة التي حدثت بفقده رحمه الله وعوضنا عنه وساعدنا على الصبر لفراقه وبارك الله لنا في أبنائه وجعلهم خير خلف لخير سلف .

عبدالله بن خالد آل خليفة

عُمان الدّاخ

من ١٥٠٧ إلى ١٦٢٤

التركيبة القبليّة والسّ



ـل

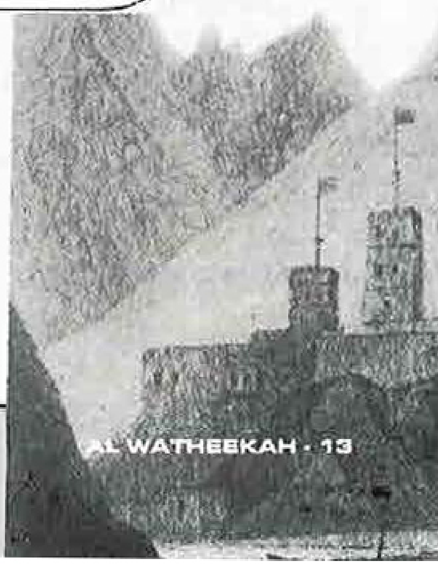
ميلادية

ياسيّة

أود في البداية أن أؤكد أن هذه الدراسة المتواضعة ليست شاملة للفترة التي تتطرق لها ، كما أنها ليست أيضا استعراضاً مفصلاً لها ، لأن ذلك يتطلب وقتاً طويلاً وجهداً مضنياً لا بد للباحث أن يمر خلاله بمراحل صعبة تنقيباً وتدقيقاً في الوثائق والمخطوطات والمصادر الأصلية التي أولت اهتماماً ـ أياً كانت وفرته ـ بتاريخ المنطقة ولاسيما في هذه الحقبة الزمنية . كما أنه يتعين على الباحث أيضاً القيام بالموازنة والمقارنة بين ما يمكن الافادة منه في هذه المصادر على نحو مباشر أو غير مباشر وبين الاستكشافات الحديثة التي توصل اليها علماء الآثار والتنقيب في وقتنا الحاضر ، فضلاً عن القيام برحلات علمية ميدانية لتلك الاستكشافات والمواطن التي سيتطرق لها الباحث في دراسته . لهذه الأسباب ولأسباب أخرى تكون قد غابت عن الذهن تجيء هذه المحاولة المتواضعة بداية على الطريق تكون منطلقاً لدراسات مستقبلية أوسع وأشمل .

ولا يفوتني في هذا السياق أن أشير الى أن هذه الفترة والتي تمتد من ١٥٠٧م وهي سنة وصول البرتغاليين الى المنطقة و ١٦٢٤م : سنة قيام الدولة اليعربية ـ وحسب علمي الخاص ـ لم يتطرق اليها أحد ، ربما بسبب ندرة المعلومات من جهة ، ولغموض الروايات المحلية التي أرخت لها وتشابكها من جهة أخرى .

وقبل الشروع في عرض المحاور الرئيسية لهذه الدراسة وتفاصيلها ، نود أن نتطرق بصورة عابرة للمصادر الأولية التي تمت الاستعانة بها ، خاصة العمانية منها . حيث يأتي على قائمة هذه المصادر كتاب سيرة الامام العادل ناصر بن مرشد اليعربي .. لمؤلفه عبدالله بن خلفان بن قيصر بن سليمان الصحاري من أعيان القرن



● قلعتا الجلالي وميراني في مسقط في مطلع حكم سلطان بن احمد سنة ١٧٩٣م.

السابع عشر الميلادي/ الحادي عشر الهجري . وتأتي أهمية هذا المصدر لكونه أقدم المصادر العمانية التي تطرقت لتاريخ المنطقة ، بالاضافة الى أن المؤلف من معاصري نشأة الدولة اليعربية فهو يكتب عن فترة في غاية الأهمية من تاريخ عمان . ويستهل ابن قيصر كتابه بتعريف لنسب ناصر بن مرشد اليعربي ثم يتطرق لبداية ظهوره ومبايعة أهل الرستاق له . بعد ذلك يبدأ المؤلف في سرد أخبار ابن مرشد وحروبه مع القبائل وتوحيده لعمان ، والانتصارات التي حققها على هذه القبائل . وفي خاتمته يورد معلومات مبعثرة تتخللها الأشعار والأراجيز ، وبعض الأبيات التي رثى بها الامام ناصر بن مرشد . وكما هو واضح من خلال قراءتنا لكتابه أرى مصادره شفويه بالدرجة الأولى، مبنية على السماع والرؤية ومن المرجح أنه اعتمد على الاسناد في نقل الرواية ، ولعل عدم ذكره له في كتابه كان بغية للاختصار . ولكن ابن قيصر على الرغم من إلمامه بأسماء القبائل ومعرفة أنسابها ومناطق تواجدها الى جانب معاصرته للأحداث التي رواها ، لم يعط تفصيلاً لهذه الأنساب أو شرحاً وافياً للأحداث التي أوردها في كتابه ، بجانب إهماله بقية الأحداث التي تخص تلك الفترة والتي كانت تحدث في عمان ، وإنما اقتصر على ذكر حروب ناصر بن مرشد فقط . وكما هو الشأن في معظم المصادر العمانية لم يتطرق كتاب إبن قيصر كذلك للبرتغاليين ولفترة وصولهم الى سواحل الجزيرة العربية رغم معاصرته لهم . الا أنه بالرغم من هذه النواقص ، فإنه يظل أقدم مؤلف عماني يصل إلينا في مجال التاريخ المحلي، وكفاه أهمية أنه كان محور اعتماد المؤرخين العمانيين الذين جاءوا من بعده والذين لم يجدوا بداً من اتخاذه مصدراً أساسياً .

المصدر الثاني هو كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة والمنسوب الى سرحان بن سعيد الأزكوى من أعيان مطلع القرن الثامن عشر الميلادي . وهذا الكتاب هو الذي يعد بحق أول مصدر شامل لتاريخ عمان ، يسرد فيه المؤلف أخبار المنطقة منذ سد مأرب وهجرة القبائل اليمنية إليها ، مروراً بفترة العصر الجاهلي ثم ينتقل الى الفترة الاسلامية ويذكر كيف دخل الاسلام عمان ثم يسرد باختصار بقية الحوادث وذلك حتى سنة (١١٤١هـ/١٧٢٨م تقريباً . كما يولي المؤلف في أبواب أخرى من كتابه اهتماماً خاصاً بتاريخ الأباضية سواء من كانوا في المغرب أو في عمان ، وتجده بين الفينة والأخرى يؤكد على وجوب حفظ التراث الأباضي والدفاع عنه وما هذا المؤلف الذى كتبه الا تحقيق لهذه الغاية . فإنه ينطلق في التاريخ من رؤية مذهبية ترتكز الى أصول إباضية ، وقد اتبع هذا المنهج في تدوين الاحداث التاريخية ذات الصبغة الدينية في رأيه .

ورغم الفجوات التي يتصف بها



كتاب كشف الغمة ، والتي ليس هنا مجال ذكرها ، فإنه يظل أهم المصادر العمانية التي تطرقت للتاريخ الشمولي لعمان بصفة خاصة ولتاريخ الأباضية بصفة عامة (١) .

أما المصدر الثالث فهو كتاب تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لمؤلفه عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي (ت ١٩١٤م) الذي يعد من أكثر المصادر العمانية دقة ووضوحاً . حيث تميز مؤلف هذا الكتاب باطلاعاته الواسعة واستعانته بكتب ومصادر غير عمانية مثل الكامل لابن الأثير والعبر لابن خلدون ، ومروج الذهب ، للمسعودي ، وتحفة النظار لابن بطوطة وغيرها ، الى جانب بعض الكتب التي لم تصل إلينا . ويشترك السالمي مع بقية المؤلفين العمانيين في اتباعه للأسلوب العقائدي في سرد الحوادث والأخبار . فالصبغة الأباضية تبدو واضحة في كتاباته ، فهو يرى أن معرفة التاريخ تعين على الاقتداء بسيرة الأئمة الصالحين ، والذين كانوا أكثر وجوداً في عمان من بعد الصحابة لاتباعهم المذهب السليم . ويمتاز السالمي عن غيره من المؤرخين العمانيين بكثرة تعليقاته وأرائه حين يتطرق للخلافات والحروب الأهلية التي حدثت في عمان ، متبعاً في ذلك الأسلوب العلمي في إبداء وجهات

النظر والتعقيب عليها ودعمها بحجج وبراهين العلماء الأوائل وكذلك فإن ما يميزه عن غيره من المؤلفين أنه يتعرض لنشاطات اليعاربة والبوسعيديين في الخليج العربي والمحيط الهندي ، واصطدامهم بالبرتغاليين والانجليز وغيرهم من القوى الأخرى ، الى جانب ذكره للتوسع الأباضي في شرق أفريقيا وفارس ، وكتاب السالمي هو تاريخ عام وشامل لعمان وأهلها ، فهو يبدأ بفترة ما قبل الاسلام ، فالفترة الاسلامية الى القرن العشرين . ومصادره متنوعة وكثيرة ، ولولا كتابه تحفة الاعيان لفقد كثير من الروايات التي نقلها لنا من مصادر لم تصل إلينا . لذلك سيبقى تاريخه متميزاً بروايات جديدة لم تظهر في كتب المؤرخين الذين سبقوه كابن رزيق وصاحب كتاب كشف الغمة (٢) .

أما عن المصادر غير العمانية فأهمها كتابات المستشرقين الذين أولوا اهتماماً خاصاً بتاريخ عمان وتراثها ويأتي في مقدمتها كتاب The Imamate Tradition of Oman لمؤلفه John C.Wilkinson والذى صدر حديثاً . فهو من أفضل ما كتب في التطور السياسي والعقائدي لتاريخ عمان . فالكاتب يبدأ دراسته بإعطاء صورة واضحة للتركيبة الجغرافية لعمان ، والأدوار أو الحقب التاريخية التي مرت بها . هو يقسمها الى منطقتين : مسقط وضواحيها ، وهي عمان الساحل التي كانت تخضع دائماً للغزو الأجنبي ، وعمان الداخل التي سيطر عليها الأئمة منذ العهود الأولى للاسلام . ثم ينتقل الى التركيبة القبلية لعمان ويتطرق الى جذورها التاريخية ومدى علاقة كل قبيلة أو كل تحالف قبلي بالأراضي التي يسكنها . ويقدم الكاتب دراسة تحليلية قيمة لتطور النظام القبلي في عمان والذي يتدرج من نظام القبيلة التي تسيطر على أجزاء معينة من الأراضي والتي تسيرها العادات والتقاليد القبلية ، الى نظام الدولة التي تستمد شرائعها وقوانينها من المذهب الاباضي للمحافظة على الإمامة . بعد ذلك يستعرض الكاتب الأدوار التاريخية للإمامة الاباضية في عمان والأسس التي قامت عليها والصعوبات والعراقيل التي واجهتها ، وذلك حتى وصول آل بوسعيد للحكم . ثم يختم الكتاب بإنتهاء الأمامة في عمان وأثر الثورة الصناعية ، وظهور البترول على المنطقة . والكتاب في مجمله دراسة تحليلية عميقة لتاريخ عمان والإمامة الاباضية ، اعتمد فيها الكاتب على كم هائل من المصادر الأولية والمراجع الحديثة ، ومما يضفى قيمة أكثر للكتاب أن مؤلفه قام بزيارات عدة الى مناطق متفرقة في عمان الى جانب استعانته بالتقارير والبحوث الكثيرة التي تناولت بإسهاب تاريخ منطقة الخليج .

وبالاضافة الى ما تقدم ذكره ، هناك مصادر وبحوث أخرى تمت الاستعانة بها في هذه الدراسة ،

وسيجدها القارىء في هوامش هذا البحث ، وقبل أن نناقش أوضاع عمان الداخل وأهم التكتلات القبلية والسياسية فيها في القرن السادس عشر الميلادي ، يهمنا أن نلقى الضوء على ما آل إليه الوضع في الخليج قبل مطلع هذا القرن وأثر ذلك على منطقة عمان .

الوضع السياسي في الخليج عند قدوم البرتغاليين

إرتبطت الأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي بالتغيرات التي كانت تأخذ مجراها على الساحة الدولية في تلك الفترة . فقد شهد العالم في القرن الخامس عشر الميلادي أحداثاً هامة كانت بمثابة الفاصل بين حقبتين من الزمن في تاريخ البشرية . وقد اعتبر كثير من المؤرخين فترة الكشوف الجغرافية الكبرى والتي قام بها الاسبان والبرتغاليون بداية للعصور الأوروبية الحديثة ، بينما اعتبر سقوط القسطنطينية ١٤٥٣م بداية العصر الحديث في الشرق الاسلامي . وكانت لهذه الأحداث انعكاساتها على منطقة الخليج مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي . حيث امتد النفوذ العثماني الى العراق ، بينما حط البرتغاليون رحالهم عل الشواطىء الجنوبية لجزيرة العرب . وفي الوقت نفسه ، ظهرت قوة إقليمية في إيران بقيادة الصفويين سرعان ما إصطدمت مع العثمانيين في الشمال ، وتعاونت مع البرتغاليين في الجنوب . وكان لهذه الأحداث والصراعات أثرها السيء على الأوضاع السياسية والاقتصادية في الخليج العربي . حيث قلت حركة التجارة وضعف الاقتصاد وإنهارت القوى الصغيرة في المنطقة . قبل أن ترسو سفن القائد البرتغالي Alfonso de Albuquerque سنة ١٥٠٧م - ٩١٣هـ على سواحل الخليج الجنوبية ، كان جنوب الخليج خاضعاً لملكة هرمز العريقة والتي كانت تعد الى ذلك الحين أقوى تنظيم سياسى وإقتصادى في المنطقة [٣] .

ويعود تاريخ هذه المملكة الى القرن الحادي عشر الميلادي ، عندما أخذت تنافس بقية مدن الخليج على خطوط التجارة ، ثم برزت كقوة إقليمية في القرن الثالث عشر بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، وأخذت في فرض سيطرتها على طرق التجارة في الخليج ومنافسة مدينة قيس التجارية الواقعة على الساحل الشرقي للخليج ، والتي حلت محل سيراف في الفترة ما بين القرن الثاني عشر الى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي [٤] .

واستمرت هرمز تحتل مكان الصدارة في الخليج حتى مجيء التتار الذين شنوا عليها غارات أجبرت حكامها وأهلها على الإنتقال بعاصمتهم الى جزيرة جرون (والتي تقع في مضيق هرمز) المقابلة لسواحل مملكتهم ، والاستمرار في مزاولة نشاطهم التجاري والبحري ، وبسط نفوذهم السياسي على السواحل

الغربية للخليج ، وكذلك سواحل عمان . وعرفت هذه الجزيرة بهرمز فيما بعد وأخذت في الانتعاش الاقتصادي ، كما استطاعت أن تعيد مجد هرمز القديمة وأن تحل محلها .

وقدر لهذه المملكة الصغيرة أن تعيش بعد ذلك قرنين من الزمن ، كانت خلالهما أقوى كيان سياسي واقتصادي في المنطقة ، امتدت سلطة حكامه السياسية حتى البصرة ، وسيطرت على خطوط التجارة بين الشرق والغرب ، وبلغت درجة عالية من التفوق والانتعاش التجاري والازدهار العمراني والحضاري ، مما أغرى البرتغاليين في مطلع القرن السادس عشر الميلادي ـ وكانوا حينئذ سادة البحار والمحيطات ـ بغزو هذه المملكة وتسخير خيراتها وممتلكاتها في سبيل توسعهم الاستعماري ولخدمة العرش البرتغالي .

ولقد ذكرت مملكة هرمز في كتب الرحالة والجغرافيين العرب وغيرهم ، وهؤلاء قد أشادوا بنهضتها العمرانية والحضارية وبدورها الريادي في المنطقة ، كما أسهبوا في وصف نفوذها الاقتصادي والتجاري . ويعد الرحالة العرب من أوائل المكتشفين الذين جابوا بلاداً عديدة في العالم بما فيها مملكة هرمز ، ويأتي على رأس هؤلاء الرحالة ابن بطوطة الذي وصف هرمز بقوله : « ... وهرمز على ساحل البحر وتسمى أيضاً مغستان وتقابلها في البحر هرمز الجديدة ، وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ . ووصلنا إلى هرمز الجديدة وهي جزيرة ، ومدينتها تسمى جرون ، وهي مدينة حسنة كبيرة ، لها أسواق حافلة ، وهي مرسى الهند والسند ، ومنها تحمل سلع الهند الى العراقين وفارس وخراسان ... (٥) .

وفي مطلع العصور الحديثة زار عدد من الرحالة الأوربيين بلاد الشرق ووصفوها وصفاً دقيقاً وهاما . وقد وصلتنا بعض المعلومات الهامة عن طريق هؤلاء الرحالة لمملكة هرمز ويأتي وصف Varthema في مقدمتها . فلقد زار هذا الرحالة مملكة هرمز سنة ١٥٠٢ وذلك قبل مجيء البرتغاليين اليها بفترة قليلة وفي هذا الصدد يقول : « .. ويرى بهرمز أحياناً أكثر من ٣٠٠ سفينة راسية في مينائها من مختلف دول العالم ، ويقيم بالمدينة بصفة دائمة أربعمائة تاجر ووكيل في نقل البضائع التي ترد الى الجزيرة مثل الحرير واللؤلؤ والأحجار الكريمة والتوابل ..» (٦) .

وهكذا كانت هرمز في مطلع القرن السادس عشر الميلادي ، مدينة عريقة بلغت درجة عالية من التقدم والرقي ، وكانت رمزاً حياً لثراء الشرق الاسلامي وازدهاره في تلك المرحلة من التاريخ (٧) . ولقد لفتت بذلك أنظار الطامعين والغزاة الذين انقضوا على خيراتها وعلى ممتلكاتها دون رأفة أو رحمة ، مستغلين ضعف المملكة عسكرياً وسياسياً ، فلم تستطع هرمز رغم استبسالها ، ورغم كل الامدادات

التي تلقتها من جيرانها ، الصمود أمام الغزو البرتغالي فسقطت في سنة ١٥٠٧ ، لتبدأ بذلك مرحلة جديدة من مراحل التاريخ في منطقة الخليج ألا وهي بداية التاريخ الحديث .

الى جانب مملكة هرمز كانت هناك قوة محلية أخرى أقل شأناً ومكانة من هرمز ، ظهرت على السواحل الغربية ألا وهي دولة بنى جبر ، التي كانت وليدة الصراع الذي حدث بين ملوك وأمراء هرمز سنة ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م . حيث استطاع عرب بنوجبر - الذين ينتمون ال بني عقيل من عامر بن صعصعة خلال هذه الفترة كما سنرى فيما بعد - انتزاع السلطة في الأحساء من بنى جروان [٨] واتخاذها قاعدة لنفوذهم وتوسعاتهم في المنطقة . وبسبب الحروب الأهلية التي كانت تمر بها مملكة هرمز في تلك الفترة والتي كان لبنى جبر يد فيها ، تمكن الشيخ زامل بن الحسين بن ناصر بن جبر فيما بين سنتى ١٤٣٩ - ١٤٦١ من توحيد القبائل العربية المتناثرة في بلاد نجد والاحساء وتسخيرهم لبناء دولة الجبور الناشئة . وبعد وفاته واصل أبناؤه المهمة التي بدأها والدهم ، حيث استطاع أجود بن زامل في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي أن يوسع من سلطان الجبور وذلك بانتزاع منطقتى القطيف والبحرين من مملكة هرمز وأن ينشر سلطانه على المناطق المجاورة ، مستغلاً في ذلك ، الضعف الذي كانت تمر به تلك المملكة . ثم أخذ أجود في شن الهجمات على الموانىء العمانية الخاضعة للهرمزيين ، وكما تمكن من التغلغل داخل عمان بسبب الضعف النبهاني وانتزاع مناطق عديدة من هذا الاقليم المقسم كما سنرى [٩] .

ومع مطلع القرن السادس عشر الميلادي أصبح أمير الجبور يلقب بسلطان البحرين والأحساء والقطيف وقد امتد نفوذه السياسي ليشمل شرق الجزيرة العربية من البصرة الى شمال عمان ، وأصبحت دولة الجبور بذلك دولة قوية بنفوذ واسع في أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية وكان رئيسها في تلك الفترة محمد بن أجود الذي خلف اباه في السلطة [١٠] .

الا أن هذه القوة النامية مالبثت أن تهاوت ، اذ سرعان ما اصطدمت بالغزو البرتغالي والذي ألقت سفنه مراسيها على سواحل الخليج الجنوبية ، وتمكن من فرض سلطانه على جميع سواحل المنطقة بفضل التقدم العلمي والعسكري اللذين امتاز بهما البرتغاليون . كما شهدت الساحة الخليجية أيضاً أحداثاً أخرى تمثلت في الصراع بين القوى الكبرى المجاورة للخليج ، فقد دخل العثمانيون العراق والتحموا مع الدولة الصفوية في عدة معارك ترتب عليها انتصار ساحق للعثمانيين فمدوا سلطانهم الى الاحساء مما دعا الصفويين الى الاستعانة بالبرتغاليين لمواجهة الخطر العثماني . وشاءت الاقدار أن تكون دولة بنى جبر



● قلعة جبرين.. اجمل قلاع عمان على الاطلاق بنيت اواخر القرن السابع عشر.

الناشئة ومملكة هرمز العريقة واقعتين عند حدود هـذه القوى الثـلاث المتصـارعـة ، وكـان طبيعيـاً أن تستسلما للأقـدار المحيطة بهمـا وبزوالهما تطوى آخر صفحة من صفحات تاريخ الخليج العربي في العصور الوسطى .

هذا وقد سيطر البرتغاليون على منطقة الساحل في عمان والتي كانت لسلطة الأمراء الهرمزيين ، بينما كانت المنطقة الداخلية واقعة تحت رحمة القبائل والاحلاف المتصارعة بسبب الضعف الذي كانت تمر به دولة بني نبهان التي حكمت المنطقة لفترة طويلة .

الوضع القبلي والسياسي في عمان الداخل خلال الغزو البرتغالي

وتعد عمان وخـاصة المنـاطق الداخلية من أكثر أجزاء الجزيرة العربية عزلة ، سواء كان ذلك من الناحية التاريخية أو السياسية أو الجغـرافيـة (١١) . فحتى مجيء



● قلعة سليمان بن حمير في بركة الموز وتسيطر على احد مداخل منطقة الجبل الاخضر.

البرتغاليين الى المنطقة كانت عمان الداخل منطقة شبه مجهولة ، ومعلوماتنا التاريخية عن فترة ما قبل البرتغاليين ضئيلة للغاية ولا تفي بالغرض المنشود لكتابة تاريخ سلاطين عمان وأئمتها ، خاصة النبهانيين منهم . ويعزى هذا النقص في المعلومات الى عدة أسباب ، أهمها الموقع الجغرافي لعمان ونظام الامامة التي عزلت نفسها خشية الأخطار التي كانت تتهددها في العصور الوسطى الاسلامية .

ولقد لعب العامل الجغرافي دوراً بارزاً في عزل المنطقة عن العالم المحيط بها طوال هذه الفترة . فلم يكن بمقدور كثير من الرحالة والجغرافيين المسلمين بسبب هذه العزلة زيارة المناطق الداخلية لعمان وبالتالى لاعطاء صورة كافية عن أحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . فعمان كما هو معروف محاطة بسلسلة من الجبال الشاهقة تمتد من الشمال الشرقي للبلاد إلى الجنوب ، بينما تحد أطرافها الجنوبية صحراء الربع

الخالي والتى تعتبر من أكبر صحارى العالم ، لتفرض عليها عزلة عن بقية أجزاء الجزيرة العربية .

كذلك فقد كان النظام السياسي الدينى الذى ارتضاه العمانيـون لأنفسهم والذى دافعوا عنه بكل ما يملكون من قوة طوال العصور العباسية ـ كان سبباً فى الحظر الذى فرض عليهم من قبل أصحاب السلطة فى بغداد : الأمر الذى ترتب عليه اهمال المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين لهذا الصقع ، وعدم ذكر أخباره فى الكتب التى تم تأليفها فى تلك الفترة . لقد اصطبغ التاريخ العام لإقليم عمان عبر العصور الوسطى بالامامة التى كان لها الدور الأساسي فى تسيير دفة الحكم بمختلف أشكاله وجوانبه . فمنذ ١٣٤هـ/ ٧٥١م كانت عمان تحكم من قبل امام يتم انتخابه عن طريق « الأمة » وكان المذهب المتبع فى هذا الحكم هو المذهب الاباضي ، لذا لم تخضع المنطقة وخاصة الداخلية منها لسلطة بغداد .

وحتى قبل قيام الامامة الاباضية لم تخضع عمان بصورة كاملة للحكومة المركزيـة فى دمشق ، فقد حـاول الحجاج بن يوسف الثقفى (ت ٩٥هـ) ـ خلال حكمه العراق ـ ضم عمان الى بقية أقاليم الدولة وعلى غرار ذلك جاءت محاولات أخرى للأمويين ، ولكنها جميعاً لم تنجح بالصورة التى تجعل من عمان منطقة دائمة التبعية لسلطة بنى أمية .

وعند تولى العباسيين دفة الحكم قامت امامة مستقلة فى عمان بقيادة الجلندى بن مسعود ، الا أن ذلك لم يدم طويلا ، فقد استطاعت جيوش أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى الثانى دخول هذا الاقليم وقتل امامه الجلنـدى . ولكن هذا الانتصـار العباسى لم يستمر طويلا ، فسرعان ما ظهرت الامامة من جديد سنة ١٧٧هـ/ ٧٩٣م على يد الوارث بن كعب الخروصى اليحمدي ، وتتابع الأئمة من بعده على حكم عمان . وكانت هناك بعض الفترات من تاريخ المنطقة التى خضعت فيها للحكم الأجنبى سواء من قبل الأمـراء المسيطرين على بغداد أو القرامطة الـذين ظهروا فى القـرن الرابـع الهجري/ العاشر الميلادي ، ولكنها كانت فترات متقطعة ولم تمتد طويلا . وبصفة عامة فإن تاريخ عمان ارتبط كما أشرنا من قبل بالامامة الاباضية وان فرص نجاح المحاولات الأجنبية كـانت قصـيرة المـدى . وهكـذا استطاعت عمان ان تحـافظ على استقلالها السياسي فى معظم العصور الاسلامية ، وساعدهـا على ذلـك وضعها الجغرافي ، الذى سبق ان عرضنا له .

إتخذ العمانيون من عمان الداخل قاعدة لحكمهم الاباضي ، مبتعدين بذلك عن الاخطار الخارجية التى كانت تتهددهم، وقد فرضوا على أنفسهم عزلة عن العالم المحيط بهم ، ولعل ما يبرر ذلك هو ما عاناه أهالي عمان على أيدى الأجانب من قهر

وتسلط . منذ عهد الحجاج بن يوسف الذى عرف بقسوته ، مروراً بالعصور العباسية ، وكذلك ما عانوه على أيدى القرامطة الذين كان حكمهم دماراً على المدن والأقاليم التى سيطروا عليها . وتعتبر فترة الأئمة النبهانيين - أو الملوك النبهانيين حسب ما تذكرهم مصادرنا المحلية - من أكثر فترات التاريخ العمانى ظلمة وطولاً على حد سواء . ولم تصلنا عنهم الا شذرات قليلة من المعلومات التى تكاد تكون فائدتها التاريخية شبه معدومة . وهاهو صاحب كشف الغمة - وهو كما أشرنا من أهم المصادر التى أرخت لعمان - يذكر بأنه لم يجد تاريخاً لفترة ملوك بني نبهان ولا للائمة الاباضيين الذين حكموا عمان في تلك الحقبة من الزمن (١٢) .

ويرى J.C. Wilkinson أنه لابد وأن يكون قد ظهر في عصور النباهنة من أرخ لملوكهم أو ائمتهم مستدلاً ببعض الروايات التي نقلها السالمي عن تلك الفترة المظلمة (١٣) . واعتقاد Wilkinson هذا قد يحمل كثيراً من الصحة ، فليس من المستبعد أن تكون هناك مصادر لم تكشف بعد تعود لفترة النبهانيين خاصة وأن هذه الفترة قد امتدت لأكثر من ثلاثمائة سنة . كما لا يفوتنا هنا أن نذكر ما أورده صاحب كشف الغمة من أن كثيراً من كتب التراث العماني قد أحرقت في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي أثناء فترة الحروب الأهلية (١٤) ، مما جعل المستشرق Beatrice de Cardi يرى في ذلك تفسيراً كافياً عن سبب ندرة معلوماتنا التاريخية عن الفترة النبهانية (١٥) . وحتى يتم الكشف عن مصادر جديدة سيظل تاريخ تلك الحقبة من الزمن غامضاً ؛ الأمر الذي يشكل عائقاً من الصعب اجتيازه من أجل كتابة التاريخ العماني الدقيق (١٦) .

عمان في عهد الملوك النبهانيين المتأخرين :

من خلال قراءاتنا التاريخ المحلي لعمان يمكن أن نستنتج أن فترة الملوك النبهانيين المتأخرين ليست إلا الصحوة التي سبقت مرحلة السقوط أو الزوال . فبحلول القرن السادس عشر الميلادي حدثت تطورات خطيرة على الساحة المحيطة بعمان ، كانت لها انعكاساتها السياسية والدينية على أهالي المنطقة . لقد أحدثت هذه التطورات ردة فعل قوية لدى سكان وقبائل عمان ، مما ترتب عليه إعلان الثورة على الحكم النبهاني ومحاولة إستبداله بحكم يتفق مع أصول المذهب الاباضى وقواعده فما كان من بني نبهان إلا التشبث بممتلكاتهم في عمان ومواجهة المناوئين لحكمهم ، ومحاولة إصلاح ما يمكن اصلاحه قبل استفحال الأمر . إلا أن هذه اليقظة جاءت متأخرة ؛ فالأوضاع قد ازدادت سوءاً ، والحروب الأهلية اتسعت دائرتها لتشمل جميع القبائل القوية بما فيها القبائل النبهانية . أضف الى ذلك كره أهل عمان للحكم

النبهاني ، فهم يرون أن النبهانيين أصحاب جور وفساد ، وتجب ازاحتهم عن حكم عمان . ويتبين هذا من خلال ما نقله لنا ابن رزيق حين قال «ولما اشتد فساد بني نبهان لعمان وصار منهم أهل عمان في امتهان ، اجتمع أكابر أهل عمان لازالة الجور والفساد والطغيان» (١٧) .

وهكذا دخلت عمان مرحلة جديدة شهدت خلالها المنطقة حروباً أهلية طاحنة استمرت قرابة قرن من الزمان . ففي سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م نجح عمر بن الخطاب اليحمدى الخروصى في انتزاع بعض ممتلكات بنى نبهان وأخذ كثيراً من أموالهم وأمر بتقسيمها على الفقراء والمظلومين . ولكن مصادرنا لا تذكر ما اذا كان - عمر هذا وهو الذى تم تنصيبه كامام على عمان - استطاع تقويض الحكم النبهاني بكامله أم لا ؟ وما مدى النجاح الذى حققه (١٨) .

فالسالمي يذكر أنه بعد موت عمر بن الخطاب اليحمدى والذى لا نعرف سنة وفاته ، خرج سليمان بن سليمان النبهاني في نزوى وتمكن من استرجاع ملك النباهنة مرة أخرى في عمان ، حتى تمت مبايعة محمد بن اسماعيل بن عبدالله الحاضري القضاعى الذي تمكن من قتل سليمان وكان ذلك سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م . وكبقية المصادر المحلية ، لا يورد السالمي شيئاً عن الأحداث التي صارت أيام إمامة محمد بن اسماعيل ، والتي امتدت من ٩٠٦ هـ الى ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م (١٩) . فهذه مدة طويلة من تاريخ عمان الحديث امتدت قرابة ٣٥ سنة لم يصلنا عنها شيء .

أما عن الفترة التي تلت إمامة محمد بن اسماعيل ، فان مصادرنا المحلية تكاد تتفق على أن عمان الداخل وقعت في فتن واضطرابات ، وكان للعصبية القبلية دور كبير فيها . فقد ظهر أكثر من إمام وأكثر من أمير أو حاكم وأصبحت عمان كما يصورها لنا السالمي «... وبنصب الأئمة في وقت واحد تشتتت الكلمة وتفرقت الجماعات وضعفت دولة المسلمين ووهنت قلوبهم وطمع فيهم من كان لا يطمع ، فصار الملك مفترقاً في أيدى الرؤساء من النباهنة ، وآل عمير وآل هلال وهم رهط الجبور وصارت الشدة على أهل عمان (٢٠)» . فقد تمكن سلطان بن محسن بن سليمان النبهاني من السيطرة على نزوى سنة ٩٦٤ هـ/ ١٥٥٦م ، بينما بايع أهل بهلا الامام بركات بن محمد سنة ٩٦٥ ، الا أنه طرد من قبل محمد بن جفير بن علي بن هلال الجبرى الذي تنازل عن المنطقة لآل عمير سنة ٩٦٧هـ/ ١٥٥٩م مقابل مبلغ معين اتفقا عليه (٢١) .

يتضح من هذا أن عمان دخلت مرحلة جديدة من تاريخها ، بظهور التكتلات القبلية والسياسية والتي كانت تتصارع من أجل الوصول الى السلطة . ومما يؤسف له هنا أن مصادرنا المحلية لم تزودنا بمعلومات

كافية ، كي يتمكن الباحث من اعطاء لمحة تاريخية واضحة عن تلك الفترة الزمنية . فهذه الفترة وكما سبق أن أشرنا - تعد ضمن فترة الملوك النبهانية المتأخرين ، والتي تبدأ في هذه المصادر بعهد سلطان بن محسن بن سليمان النبهاني ، الذي ملك نزوى وخلفه على الحكم ابنه مظفر بن سلطان الذي توفي وترك ابناً صغيراً على الحكم هو سليمان بن مظفر ، الا أن الاخير أزيح من قبل عم أبيه فلاح بن محسن بن سليمان الذي اتخذ من بهلا مقراً لحكمه . وبعد وفاته ملك سليمان بن مظفر .

وتؤكد المصادر انه تمكن من توحيد البلاد والقضاء على مناوئيه على السلطة وخاصة الجبور الذين كانوا تحت قيادة محمد بن جفير . كذلك استطاع توحيد البيت النبهاني وبسط سلطته ، وسلطه النبهانيين على جميع قرى ومدن عمان الداخل وامتد نفوذه أيضاً الى صحار على الساحل بعدما تمكن من هزيمة العجم (٢٢) .

وفي عهده ظهرت العصبية القبلية التي فجرت الوضع من جديد وأدخلت عمان في حرب أهلية طويلة أدت الى زوال الملك النبهاني . ويرجع جذور هذا الخلاف كما يتضح لنا من قراءتنا الروايات المحلية ، أن صداماً وقع بين قبيلتين من أهل سيفم (تقع في وادى سيفم) إحداهما بنو معن والاخرى بنو النير ، وكلتاهما تنتمي الى مالك بن فهم من الازد . وقد التجأت بنو معن ومن حالفهم من بنى شكيل الى سليمان بن مظفر بينما انحاز بنو النير الى بني هناءة : أقوى تجمع قبلي في عمان أنذاك ، مما أدى الى اثارة الفتن بين قبائل عمان ودخول المنطقة في صراع طويل قادة الهناوية ضد سليمان النبهاني ومن ناصره من القبائل الأخرى ، وكانت الحروب سجالاً بين الطرفين ، فلم يستطع سليمان بن مظفر بسبب قوة نفوذ بنى هناءة كما سنرى فعل شيء إزاء هذا الوضع المتردى ، وقد توفي وعمان الداخل منقسمة على نفسها .

وخلفه على الحكم عرار بن فلاح بن محسن قائد جيوشه والذى لم تدم فترة حكمة طويلاً ، فمات سنة ١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م وتولى الأمر من بعده مظفر بن سليمان بن مظفر والذى فشل كذلك في تسوية الأوضاع المتردية . ثم جاء بعده مخزوم بن فلاح بن محسن ، وفي عهده ازدادت الأحوال سوءاً فقد انقسم النبهانيون على أنفسهم وأخذت الأخطار تحيط بهم من كل حدب وصوب (٢٣) . وبلغ هذا الانقسام ذروته سنة ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م عندما تدخل البرتغاليون في الحروب الدائرة بين النبهانيين في صحار ؛ الأمر الذي ترتب عليه مقتل محمد بن مهنا الهديفي النبهاني صاحب صحار على يد أتباع الأمير عمير بن حمير النبهانى الذى استعان بالبرتغاليين في قتال ابن عمه محمد بن مهنا هذا ومكنهم من الاستيلاء على المنطقة - كما تذكر مصادرنا المحلية -

ثم قفل راجعاً الى سمائل (٢٤) .

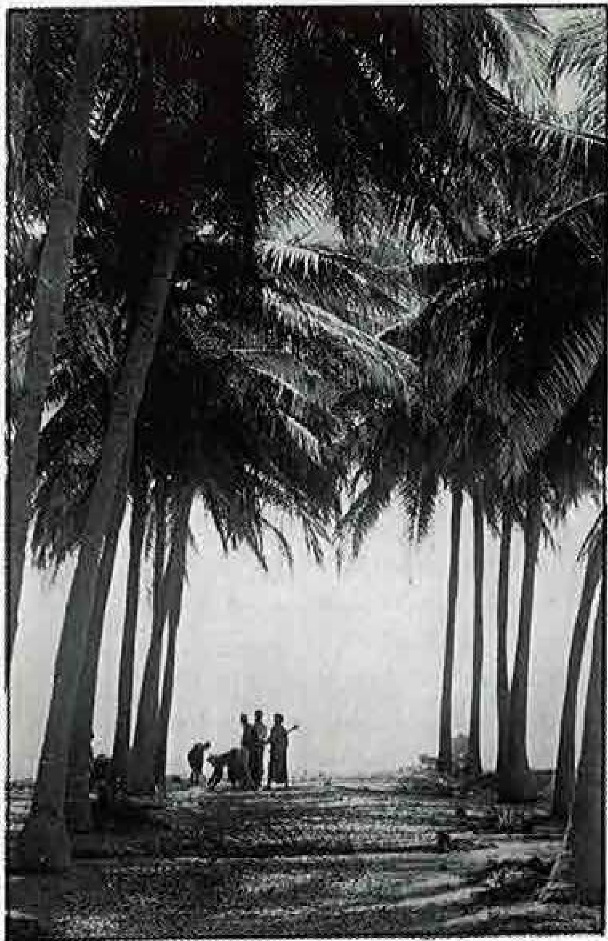
وهكذا أضحت عمان كما تذكر لنا المصادر مقسمة على النحو التالي : آل عمير في سمائل ، والهناوية في بهلا ، واليعاربة في الرستاق ، بينما امتد نفوذ الجبور الذين استغلوا هذه الانقسامات الى منطقة الظاهرة وشمال عمان في حين سيطر البرتغاليون على السواحل من صور حتى جلفار (٢٥) .

واذا استثنينا البرتغاليين ودورهم في المنطقة في تلك الفترة ، فان أهم الاحلاف السياسية والقبلية في عمان ـ خاصة في المناطق الداخلية منها ـ في مطلع القرن السابع عشر الميلادي ـ هي : بنو جبر ، بنو هناءة ، بنو عمير ، اليعاربة وهذه الأحلاف هي التي نازعت الحكام النبهانيين على السلطة ، وكانت سبباً في سقوط دولتهم سنة ١٦٢٤م . وفيما يلي نذكر الدور السياسي والقبلي التي لعبته هذه الاحلاف في تاريخ المنطقة :

بنو جبر :

ينسب كثير من المؤرخين المعاصرين بنى جبر الى بنى عقيل من عامر بن صعصعة ، والذين قد علا شأنهم وقويت شوكتهم في القرن الخامس عشر الميلادي ، فقد استطاعوا السيطرة على مدن وقرى الأحساء والقطيف والبحرين بسبب الضعف الذى كانت تمر به مملكة هرمز ، والتي كانت تسيطر على معظم سواحل الخليج الغربية ، كما شنوا عدة هجمات على السواحل العمانية خاصة الشمالية منها مستغلين في ذلك ، الوضع المتردي الذي كانت تمر به عمان الى جانب ضعف السيطرة الهرمزية على سواحل المنطقة واستطاع الجبور بذلك ، السيطرة على مناطق عديدة في عمان وعلى إرغام كثير من القبائل على دفع ضريبة سنوية لهم مقابل عدم التدخل في شئونهم القبلية والسياسية (٢٦) . ويؤكد هذا ما ذكره المؤرخ البرتغالي De Barros من أن





الجبور كانوا أقوى كيان سياسي في جزيرة العرب مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (٢٧).

كذلك ذكر القائد البرتغالي Albuquerque أن الجبور كانوا مسيطرين على المناطق الداخلية لعمان ، ووصف الحاكم الجبري بأنه يحكم جميع أرجاء الجزيرة العربية . ورغم المبالغة الواضحة في هذا الوصف فانه يحمل في ثناياه جزءاً كبيراً من الحقيقة كما يرى الدكتور عبد اللطيف الحميدان(٢٨). ويبدو أن بنى جبر ظلوا أقوياء في عمان طوال القرن السادس عشر الميلادي رغم سقوط دولتهم في الأحساء والبحرين ، الا أننا عاجزون عن اعطاء أي وصف لسلطتهم هذه بسبب ندرة المعلومات وقلتها حول هذا الموضوع (٢٩). وتشير روايات ابن قيصر الى أنه مع مطلع القرن السابع عشر الميلادي ، كان الجبريون متمركزين في المدن التالية : سمد الشأن ، أبرا ، حصن الغبى ، ضنك ، مقنيات ، قرية بات ، ينقل ، لوى ، الجو .

كما تشير رواياته أيضاً الى أن سلطة الجبور كانت من أقوى السلطات في عمان في تلك الفترة ، وأن نفوذهم السياسي كان واسع الانتشار . فناصر بن مرشد مؤسس دولة اليعاربه كما يذكره ابن قيصر قضى معظم سنواته الأولى في تقليص النفوذ الجبرى القوى وفي الحد من نشاطاتهم السياسية والعسكرية . هذا الأمر تطلب منه سنين للقوة التي كان يتمتع بها بنو جبر ، الا أنه تمكن في نهاية الأمر من القضاء عليهم في عمان ، وبزوالهم يكون قد تخلص من أخطر مناوئيه وأكثرهم شراسة وبأساً .

بنو هناءة :

هم بطن عظيم بعمان ، ينسبون الى مالك بن فهم من الأزد ، ولقد كان لهم دور كبير في صدر الاسلام . ولقد شارك بنو هناءة - مثل بقية قبائل شرق الجزيرة العربية - في الفتوحات الاسلامية الأولى تحت قيادة عثمان بن أبي العاص وأخيه الحكم بن أبي العاص ، واستوطن عدد كبير منهم

البصرة في خلافة معاوية بن أبى سفيان . وخلال فترة المد الاسلامي في مناطق خراسـان وأواسط آسيا ، شارك كثير من قبائل أزد عمان في الفتوحات وكان من أبرز هذه القبائل بنو هناءة الذين هاجروا بأعداد كبيرة الى تلك المناطق واستوطنوا فيها . ومن المعروف أن أزد عمان بما فيهم بنو هناءة كانوا أهم القبائل التي لعبت دوراً بارزاً في الاحداث السياسية في المشرق في عهد الدولة الاموية ، وكانوا سبباً رئيسياً في النزاع القبلي الذي اندلع في خراسان في أواخر عهد هذه الدولة ، والذي أدى الى زوالها . وفي عهد الدولة العباسية ، بدأت هذه القبائل تفقد رابطة الدم التي تجمع افراد القبيلة تحت راية واحدة ، وأخذ الانتمـاء يقوى نحـو المدن التي استوطنوها . فترتب على ذلك انقطاع صلاتها القبلية والعائلية بأصولها في العـراق وجزيـرة العـرب . لهـذا السبب ، لم تعد للعصبية القبلية أهمية في عهد بنى العباس في تلك المناطق البعيدة عن جزيرة العرب ، وبمرور الزمن بدأ الطابع القبلي يفقد هويته شيئاً فشيئاً ، وانقطعت بذلك أنساب هذه القبائل وأخبارها ، بما فيهم بنو هناءة الخراسانيون .

أما الذين استوطنوا البصرة فظلوا على علاقاتهم بأبناء عمومتهم في عمان فترة طويلة من الزمن ، الا أن الطابع الاقليمي والمحلي غلب عليهم فيما بعد ، مثلهم في ذلك مثل بقية قبائل العرب التى استوطنت مدن العراق .

وبنو هناءة الذين بقوا في عمان استطاعوا أن يحافظوا على تكوينهم القبلي وعلى مكانتهم السياسية في المنطقة . وساعدهم على ذلك كثرة أتباعهم وأحلافهم . فبعـد سقوط الدولة الأموية شارك بنو هنـاءة مشاركة فعالة في تسيير زمام الأمور في عمان وكانوا دائماً الكفة التي ترجح فريقاً على آخر في الصراع حول السلطة أو الامامة . ومنذ السنوات الأولى لقيام الامامة الاباضية في عمان في القرن الثاني الهجري ، حاول بنو هناءة وأتباعهم السيطرة عليها ، وذلك عندما ثار غسان بن سعد المحاربي الهنائي في نزوى واستطاع أن ينتزع بعض المناطق الداخلية ويستقل بها ، إلا ان محاولته فشلت فيما بعد (٣٠) . ورغم ذلك لم تضعف قوة بني هناءة بل حاولوا أكثر من مرة التدخل في شئون الامامة ، واعلان الثورة على الحاكم اذا لم يحقق لهم مطالبهم .

وهناك أمثلة عديدة في التاريخ العماني تبين مدى اتساع النفوذ الهناوي طوال العصور الاسلامية في عمان . فقد ثاروا على غسان بن عبدالله اليحمدي في أواخر القرن الثاني الهجري (٣١) ، كما استطاعوا القضاء على القضل بن الحواري (من بنى سامة بن لؤى من قريش) (٣٢) الذى انتزع الامامة من عزان بن تميم الخروصي في سنة ٢٧٨هـ ، وإرجاع الأمور الى نصابها وتمكين عزان من السلطة في البلاد (٣٣) .

ويرجح أن تكون علاقتهم قوية مع

حكام بنى نبهان حتى قدوم البرتغاليين إلى المنطقة . ففي عهد سليمان بن مظفر النبهاني كان بنو هناءة أقرب الناس إليه ، وكانوا ـ كما تذكر مصادرنا المحلية ـ أكثرهم عدداً وبأساً وعدة (٣٤) . ويشير السيابى أن «بنى هناءة ورؤساءهم كانوا مسموعى الكلام ، واليهم الأمر في أيام سليمان بن مظفر النبهاني» (٣٥) . وكان زعيمهم في تلك الفترة سيف بن محمد بن أبي سعيد الذى اتخذ من دارست مركزاً لبسط النفوذ الهناوى على المناطق التي ينتشرون فيها . إلا ان علاقتهم ساءت مع النبهانيين المتأخرين بسبب التعصب القبلي كما سبق أن ذكرنا .

فبنو معن أحلاف النبهانية اعتدوا على بنى النير أحلاف الهنائية . فأراد بنو هناءة الانتقام من بنى النير ، إلا أن ذلك أوقعهم في صدام مع سليمان بن مظفر النبهاني . وبسبب اصرار الأخير على تأديب بنى هناءة ، قام الهناوية بغزو بهلا مركز الحكم النبهاني مستغلين عدم وجود السلطان سليمان فيها وألحقوا بالنبهانية وأتباعهم خسائر كبيرة . أجبر ذلك السلطان على طلب الصلح معهم مقابل اعطائهم بعض الامتيازات وتلبية مطالبهم ، إلا أنهم رفضوا عرضه وتحالفوا مع أبناء عمه المناوئين له من أجل الاطاحة به .

وقد انضم بنو هناءة بقيادة سيف بن محمد مع الأمير عمير بن حمير النبهانى ملك سمائل ضد سليمان ، ودخلت عمان فى صراع طويل أدى إلى تقسيم المنطقة والقضاء على وحدتها السياسية . وزاد الأوضاع سوءاً وصول البرتغاليين الذين استغلوا هذا الانقسام لتسيير مصالحهم الخاصة ، وللسيطرة على السواحل العمانية بسهولة . ولم يستطع سليمان بن مظفر النبهاني ولا خلفاؤه من بعده القضاء على قوة بني هناءة ومن ناصرهم ، واستمر الوضع على ذلك إلى أن ظهر ناصر بن مرشد اليعربي في العقد الثالث من القرن السابع عشر الميلادى (٣٦) . وتمكن هذا الإمام من إقامة دولة قوية في عمان وقضى على جميع مناوئيه بما فيهم بنو هناءة (٣٧) . قيل إنه حُجر على نشاطاتهم السياسية والعسكرية ومنع عنهم السلاح (٣٨) .

بنو عمير :

ينسب السيابى آل عمير إلى عامر بن صعصعة من قيس عيلان وهم بذلك ينتمون إلى العرب المستعربة أو العدنانية (٣٩) . وتفسيرنا الوحيد لقوة آل عمير في عمان في تلك الفترة كونهم يشتركون مع بني جبر في نفس النسب . فالقبيلتان كما تؤكد الروايات التاريخية تنتميان إلى عامر بن صعصعة ، وقدنمت قوتهم وأصبحوا أصحاب نفوذ في شرق جزيرة العرب زمن الحكم القرمطى . وقبل هذه المرحلة من التاريخ العربي الاسلامي كان بنو عامر أو بنو عقيل كما يعرفون عند البعض نسبةً إلى



عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن صعصعة ، يستوطنون سهول نجد وواحاتها .

ومع نمو الحركة القرمطية واستفحال أمرها في اواخر القرن التاسع الميلادي ، الثالث الهجري تشير الروايات التاريخية الى أن بنى عامر هؤلاء تحالفوا مع القرامطة وساعدوهم في تكوين دولتهم في شرق الجزيرة العربية . ولا يستبعد هذا الفعل لأن القرامطة كما هو معروف اعتمدوا اعتماداً على عرب البحرين واليمامة في نشرنفوذهم السياسي والعقائدي ، وفي تقوية مركزهم في المناطق التي سيطروا عليها . وكان من هذه المناطق إقليم عمان المجاور للبحرين والذي لم يسلم من هجمات القرامطة وأنصارهم ، والذي وقع فترة طويلة من الزمن تحت السلطة القرمطية . وقد رافق التوسع القرمطي في عمان هجرات من أواسط نجد والبحرين الى المنطقة . وكانت بطون بنى عقيل أو بنى عامر ضمن هذه الهجرات ، فقد استوطنوا عمان بأعداد كبيرة .

وفي مرحلة ضعف الدولة القرمطية في القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري ، أخذ بنو عامر في التدخل في شئون الأقاليم الواقعة تحت حكام القرامطة والتصرف في أمورها الادارية والسياسية والاقتصادية . وكانت مساكنهم تمتد من جنوب العراق الى شمال عمان آنذاك (٤٠) .

وعندما نجح العيونيون بقيادة عبدالله بن علي العيوني في القضاء على الحكم القرمطي في شرق الجزيرة العربية بمعاونة السلاجقة . اصطدموا مع بني عامر الذين كانوا السند القوي للجيوش القرمطية . فقد كان بنو عامر يتسلمون مبالغ مالية بالاضافة الى جزء من حاصلات البحرين من القرامطة مقابل المساندة والدعم العسكري لهم . وعندما تولى



● رجال البدو مع ابلهم يستريحون من عناء رحلة طويلة.

العيونيون زمام الامور ، أراد بنو عامر أن يكون لهم موضع قدم في السلطة وأن يشاركوا في حكم البلاد . إلا أن مطالبهم هذه رفضت من قبل حكام العيونيين . الأمر الذى جعلهم يشهرون السيف ويعلنون التمرد والعصيان على الحكم العيوني . وبسبب تدخل سلاجقة العراق في هذا الخلاف ودعمهم ومساندتهم للعيونيين لم يستطع بنو عامر تحقيق مآربهم الخاصة ، الا أن نفوذهم ظل قوياً بسبب كثرة بطونهم في المنطقة . وقد ساعدهم هذا فيما بعد على فرض نفوذهم من جديد بسبب الضعف الذي دب في الحكم العيوني في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي حين تمكن بنو عامر من السيطرة على اقتصاد الدولة العيونية في أواخر عهدها ، وهذه السيطرة تبعتها فيها بعد سيطرة سياسية على المنطقة . حيث

اتفق معظم أعيان الأحساء ووجوهها على تسليم السلطة في البلاد إلى زعيم بني عامر عصفور بن راشد بن عميرة في الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادي ليؤسس بذلك إمارة العصفوريين (٤١) . وقد شملت هذه الإمارة بلاد البحرين (الاحساء حالياً) وبعض أجزاء من نجد وعمان ، وتعددت بطون بني عامر وأفخاذها وانتشروا في هذه المناطق . وامتد الزمن بالعصفوريين الى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي وكان زوالهم بسبب الاضطرابات السياسية التي عمت منطقة الخليج في تلك المرحلة من التاريخ ، وذلك بظهور تيمور لنك . ولكن بني عامر سرعان ما استرجعوا سلطتهم مرة أخرى على يد فرع آخر وهم الجبور أو بنو جبر في حدود منتصف القرن الخامس عشر الميلادي (٤٢) .

وخلال فترة حكمهم للمنطقة والتي امتدت أكثر من قرن ونصف من الزمن ، امتد نفوذ بني جبر الى مناطق أخرى مجاورة لإقليم البحرين منها إقليم عمان . وقد صاحب هذا المد السياسي ، هجرات واستيطان كثير من قبائل بني عامر الى عمان الداخل وتكوين كيانات مستقلة بسبب الضعف النبهاني عندئذ . وقد عرفت هذه الكيانات فيما بعد بسلطة الجبور في عمان وهم الذين شاركوا في حكم البلاد كما أشرنا سابقاً . وساعد على استقلالهم سقوط دولتهم في الأحساء في الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي والتي ضمت الى ممتلكات الدولة العثمانية (٤٣) .

يتضح من هذا العرض الموجز لتاريخ بني عامر أن عمان كانت على صلة دائمة بما يحدث في اقليم الاحساء وان هذه القبائل هاجرت بأعداد كبيرة الى المنطقة منذ عصور القرامطة ، وأن نفوذهم قوى إبان الحكم الجبري . وبسقوط بني جبر في الاحساء استقلت قبائلهم في عمان ، وانفردت بحكم كثير من المدن والقرى بسبب ضعف الحكم النبهاني . وكان بنو عمير أحد أفخاذ قبيلة بني عامر مثل الجبور ، ولعل استيطانهم لعمان يعود الى فترة ماقبل الجبريين واستغل آل عمير الوضع المتردي في عمان في القرن السادس عشر الميلادي كبني عمومتهم واستقلوا بحكم بعض المدن والقرى . ويرد ذكرهم كقوة سياسية في المنطقة في عهد سلطان بن محسن بن سليمان النبهاني ، عندما اشتروا حصن بهلا من بني جبر في سنة ٩٦٧هـ (٤٤) . إلا أنهم لم يتمكنوا من المحافظة على هذا الحصن حيث سقط في يد الإمام عبدالله بن محمد القرن من بني هناءة ، والذي بويع بالامامة من أجل القضاء على الحكم النبهاني في السنة نفسها(٤٥) .

وفي الوقت الذي استمر فيه الصراع على السلطة بين الملوك النبهانية المتأخرين ومناوئيهم وخاصة بني هناءة ، نجد أن آل عمير وبالتعاون مع بني عمهم ، بني جبر ، يحاولون إستغلال هذا الموقف لدعم

نفوذهم السياسي في المنطقة ، حيث كانوا يتدخلون في هذا الصراع بصورة مباشرة لإضعاف نفوذ القبائل العمانية ، وفي الوقت نفسه كانوا يحاولون تثبيت دعائم حكمهم في المناطق التى تنتشر فيها أفخاد بني عامر وبطونها .

ومع مطلع القرن السابع عشر الميلادي ، كان بنو عمير مسيطرين على منطقة سمائل والقرى المحيطة بها تحت زعامة مانع بن سنان ، بينما بسط بنو عمهم الجبريون نفوذهم على مناطق أخرى كما سبق لنا أن أشرنا[٤٦] . ولم يصطدم بنو عمير مثل الجبريين مع ناصر بن مرشد في بداية عهده بل إنهم فضلوا المسالمة هم وحلفاؤهم من بنى رواحة ، ولعل السبب في ذلك أنهم وجدوا أنفسهم لا قبل لهم بجيوش ناصر بن مرشد وأنصاره[٤٧] . الا أن السلام بين الطرفين لم يستمر طويلا ، فقد أعلن مانع بن سنان العصيان على ناصر بن مرشد بعد أن تلقى العون والدعم من قبائل بني هناءة ومن أبناء عمه بنى جبر . ولكن هذه الثورة لم يكتب لها النجاح ، لقوة عزيمة أهل عمان وإمامهم ، وتفانيهم في حماية الإمامة الجديدة وتوحيد البلاد . فتراجع مانع بن سنان وأتباعه الى شمال عمان وحاول إعادة الكرة مرة أخرى ، إلا أنه لم يوفق فقد نصب له فخ من قبل والي صحار اليعربي الذي بيت له أمراً واستطاع أن يقضي عليه قبل أن يعد الهجوم ، وبموته تم القضاء على سلطة آل عمير في عمان[٤٨] .

اليعاربة :

ينسب ابن قيصر اليعاربة الى نصر بن زهران أحد بطون الأزد والتى ينتسب اليها أهم قبائل عمان وهو بنو مالك بن فهم . ولم يذكر المؤلف ان كان اليعاربة هم فخذ من فخوذ نصر بن زهران أن أنهم فرع من مالك بن فهم والذين هم من نصر بن زهران[٤٩] .

اما بقية مصادرنا المحلية فإنها تتجاهل شجرة نسب اليعاربة ، ما عدا السيابي الذي ينسبهم الى نفس القبيلة التى ينتسب اليها بنو نبهان ، فهم كما يرى من يعرب بن عمير بن نبهان بن محمد بن نبهان بن كهلان من العتيك من عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امرؤ القيس بن ثعلبة بن غسان بن الأزد[٥٠] . هكذا يخرج السيابي اليعاربة من نسب نصر بن زهران ، ويناقض بذلك مؤرخ سيرة ناصر بن مرشد ابن قيصر . واذا رجعنا قليلاً الى الوراء ، نجد أن سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني أحد السلاطين النباهنة المتأخرين ، والذي وصلنا كثير من أشعاره ، نجده يورد كلمة يعرب في ديوانه كثيراً[٥١] . فهو يفتخر بأن آباءه وأجداده ينتمون في نسبهم الى يعرب هذا . وتكاد تتفق جميع الأسماء التى يرددها في شعره مع

ما ذكره السيابي . فشاعرنا النبهاني ينسب نفسه وقبيلته الى يعرب من نبهان بن كهلان من العتيك من عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء(٥٢) .

ولعل هذا النسب هو الراجح وليس ما ادعاه ابن قيصر . كذلك فان الاسم القبلي (يعرب) ليس مقصورا على الفرع اليعربي أى فرع ناصر بن مرشد مؤسس دولة اليعاربة بل هو أعم وأشمل . فكما هو واضح من أشعار سليمان النبهاني فإن (يعرب) كان الأسم القبلي الشائع أيام حكم النبهانيين ويطلق على جميع بنى نبهان . وبعد سقوط دولتهم أصبح هذا الأسم يطلق على فرع واحد من فروع النبهانيين ، والذي منه ناصر بن مرشد وخلفاؤه ممن حكموا الدولة اليعربية .

نستنتج من ذلك أن اليعاربة ، أى ناصر بن مرشد وخلفاؤه ، ليسوا الا فخذأمن فخوذ بني يعرب بن عمرو بن نبهان . ويعرب هذا هو الجد المشترك لجميع النبهانيين أو اليعربيين بما فيهم ناصر وخلفاؤه(٥٣) .

وتاريخ بني نبهان أو بنى يعرب يعود في جذوره الى قبيلة العتيك التى استوطنت عمان قبل ظهور الاسلام بفترة طويلة ، ومن المعلوم أن القبيلة وقفت ضد المد الإسلامي في المنطقة وانضمت الى صفوف المرتدين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان لموقفهم هذا أثر سلبي على نفوذهم السياسي في عمان . فلم يستطع العتيك ولفترة طويلة من الزمن تعويض ما فقدوه من مكانة عالية ومرموقة بين صفوف القبائل العمانية .

فبعد سقوط الدولة الاموية سنة ١٣٢هـ قامت الإمامة في عمان واستقلت عن السلطة في بغداد ، وكان معظم الأئمة الذين تعاقبوا على الإمامة من قبائل اليحمد . ومن المعروف أن هذه القبائل وحلفاؤهم هم من أوائل من دخلوا الإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ودافعوا عنه بكل قوة ضد المرتدين من العتيك . كما أنهم أبلوا بلاءً حسناً في الفتوحات الاسلامية ونشر الاسلام في المناطق الشرقية للخلافة . لذا ليس غريباً ان نرى قبائل اليحمد وأتباعهم هي التى تستأثر بالإمامة دون غيرها وتستمر في الحكم مدة طويلة من الزمن امتدت من منتصف القرن الثاني الهجري الى منتصف القرن السادس الهجري .

وبعد هذا التاريخ ، نرى أن الأوضاع الداخلية لعمان تسوء بسبب الحروب الأهلية ، ولم تستطع قبائل اليحمد السيطرة على الأمور ، مما نتج عنه ظهور قوة جديدة في المنطقة تعود أصولها الى العتيك وهم بنو نبهان . فقد تمكنوا من فرض نفوذهم السياسي على قبائل عمان ، ومن حكم المنطقة ، حتى مطلع القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي .

ويتضح لنا من ذلك أن قبائل العتيك والتى ينتمى إليها بنو نبهان . وان كانوا أبعدوا عن السلطة فترة طويلة من الزمن بسبب مواقفهم الأولى ضد الاسلام ، إستطاعوا أن يفرضوا وجودهم من جديد إبان الحرب الأهلية في القرن السادس الهجري وتمكنوا من انتزاع السلطة من قبائل اليحمد وحكموا عمان حتى مطلع القرن السابع عشر الميلادي(٥٤) .

ولقد كان اليعاربة الذين أسسوا الدولة اليعربية في الربع الثاني من هذا القرن متمركزين في منطقة الرستاق ، تحت زعامة مالك بن أبي العرب اليعربي إبان حكم النبهانيين المتأخرين . وظهروا على مسرح الاحداث كقوة سياسية ذات نفوذ قوي في عهد سليمان بن مظفر النبهاني ، عندما تحالفوا مع عمير بن حمير النبهاني ضد سليمان هذا في أواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي(٥٥) . حيث انقسم البيت النبهاني على نفسه في هذه المرحلة من تاريخ عمان كما اشرنا سابقاً ، وخاض النبهانيون حروباً ضد بعضهم البعض .

وشاءت الأقدار أن يظهر من هذه الأسرة شخص استطاع أن يكسب رضى الكثير من العمانيين لورعة وتقواه ، واتباعه سيرة الأئمة الأوائل ، فتجمعت حوله القبائل وناصرته وأيدته . ذلكم هو ناصر بن مرشد اليعربي الذي بويع بالإمامة سنة ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م بعد أن خلف مالك بن ابي العرب في حكم الرستاق .

وبدأ ناصر في تعزيز موقفه عن طريق كسب ولاء القبائل المحيطة بالرستاق ، وكذلك كسب ولاء القبائل المناوئة للحكم النبهاني خاصة قبائل اليحمد القوية .

وكان ناصر سياسياً وجد أن خلاص عمان من الوضع السيء التى هي فيه - يتمثل في جمع شتات القبائل تحت راية واحدة عن طريق نشر الدعوة الإصلاحية التى تستمد روحها من المذهب الاباضي ، وتذكير الناس بسيرة السلف الصالح الإقتداء بهم . ووجدت هذه الأفكار والمبادىء الإصلاحية آذاناً صاغية تتطلع شوقاً للامام الذي سيخرجهم من هذا الوضع المتردى الذي هم فيه . وهكذا أخذ ناصر في ضم المدن والقرى الواحدة تلو الأخرى تحت رايته ، وفي القضاء على التكتلات القبلية المستقلة ، وقد كللت مساعيه بنجاح باهر وشهدت بعدها عمان عصراً جديداً ملؤه العزة والرخاء .

والخلاصة أن هناك عاملين رئيسيين كانا وراء نجاح ناصر بن مرشد مؤسس دولة اليعاربة دون غيره من الحكام النبهانيين . أولهما دعوته للاصلاح المعتمدة على إحياء الإمامة الاباضية والاقتداء بسيرة الأئمة والعلماء الأوائل ، وهذا ما كان يتطلع اليه معظم قبائل عمان ،

وثانيهما دعم القبائل القوية له ، وخاصة اليحمد الكثيرة العدد ، والتى فقدت سلطتها السياسية في عمان منذ زمن بعيد ، وقد رأت في شخصية ناصر بن مرشد ضالتها . وهكذا استطاع ناصر بن مرشد بفضل حنكته وسياسته ، الى جانب تمسكه بالدين وحرصه عليه ، أن يبنى قواعد صلبة ومتينة للدولة الناشئة ، وأن يمهد لخلفائه الطريق نحو بناء امبراطورية عمانية عرفت في كتب التاريخ باسم دولة عمان الكبرى .

وختاماً . فقد نضيف الى ما ذكرناه من آثار أفرزتها الأحداث المتلاحقة ان عمان مرت بمرحلة من أصعب مراحلها التاريخية ، في الفترة ما بين سنة ١٥٠٧م وهي سنة وصول البرتغاليين ، وحتى سنة ١٦٢٤م سنة إحياء الإمامة الاباضية على يد ناصر بن مرشد . وقد شهدت تلك المنطقة حروباً دامية ، دارت رحاها بين القبائل العمانية ، وكان للعصبية القبيلة دور أساسي فيها ، وقد سهلت هذه الحروب للمستعمرين مهمة السيطرة على سواحل عمان ، واستعمارها وتسخير خيراتها ومواردها لخدمة البلاط البرتغالي . وهذه الحالة من الفوضى والتى مرت بها عمان إبان الغزو البرتغالي ، يمكن اعتبارها مرحلة انتقال من فترة العصور الوسطى حيث هيمن عليها النبهانيون الى فترة يمكن اعتبارها فترة العصور الحديثة وهي التى تولى مسئولية حكم عمان فيها اليعاربة ، ومن بعدهم آل بوسعيد . ونأمل أن يكون في هذا العرض الموجز ما ينبه الى أهمية المنطقة وتاريخها على حد سواء .

الدكتور حسن النابوده
قسم التاريخ ـ كلية الآداب
جامعة الامارات العربية المتحدة

الهـــوامش

١ ـ لمزيد من التفاصيل حول كتاب كشف الغمة ومؤلفه انظر ، كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، تحقيق ودراسة وتعليق أحمد عبيدلي (نيقوسيا دار دلمون للنشر ١٩٨٥) .

٢ ـ د. فاروق عمر ، مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني ، (بغداد : ١٩٧٩) ص ١٥٤ .

٣ ـ د. جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي ، (القاهرة : دار الفكر العربي ، د.ت) ، ص ٥٢ ـ ٥٣ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ٥٣ ـ ٥٤ .

٥ ـ محمد بن عبدالله الطنجي الشهير بابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) تحفة النظار في غرائب الأمصار . (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧) ، ص ٢٨٦ .

٦ ـ انظر مصطفى عقيل الخطيب ، التنافس الدولي في الخليج العربي ١٦٢٢ ـ ١٧٦٣ ، (بيروت : المكتبة العصرية ، ١٩٨١) ، ص ١٩ .

٧ ـ Robert Geran Landen, Oman Since 1856, (Princeton: 1967) p.19-20.)

٨ ـ ينسبهم ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن حجر ، ت ٨٥٢هـ) ، الى بطن من بطون قريش الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، (القاهرة : دار الكتاب الحديثة ، ١٩٦٦) ، جـ١ ص ٧٥ . انظر تعليق عبداللطيف ناصر الحميدان على ذلك في مقال «العصفوريون وقصة ١٥٠ عاما غامضة في تاريخ البحرين ، «الوثيقة» (تصدر عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين) . العدد الثالث (١٩٨٣) ، ص ٤٤ ـ ٥٢ .

٩ ـ عبداللطيف ناصر الحميدان ، «التاريخ السياسي لإمارة الجبور» ، مجلة كلية الآداب في جامعة البصرة ، العدد ١٦ (١٩٨٠) ، ص ٤٤ ـ ٥٢ .

١٠ـ المصدر السابق ، ص ٧٠ .
انظر كذلك مقال الدكتور علي أبا حسين ، «الجبور عرب البحرين» ، الوثيقة ، العدد الثالث ، (١٩٨٣) ص ٧٨ ـ ١٠٠ .

١١ـ الخليج العربي ، ترجمة : عبدالقادر يوسف ، (الكويت :د.ت.) ، ص ١٤٩ .
Beatrice de Cardi, "Trucial Oman in the 16th and 17th Centuries" in Antiguity, vol 44, (1970) , p. 288.

١٢ـ انظر كشف الغمة ، ص ١٣٩ .
انظر كذلك : J.C. Wilkinson, "A sketch of the Historical Geography of the Trucial Oman: Down to the Begining of the Sixteenth Century". in the Geographical Journal, vol. 130(1964),p.339.

١٣ـ J.C. Wilkinson, (Bio-bibliographical background to the Crisis period in the Ibadi Imamate of Oman" In Arabian Studies, vol.3, p.161.

١٤ـ في حوالي سنة ١٧٢١م ذكر صاحب كشف الغمة انه اثناء الحرب الأهلية في عهد يعرب بن بلعرب اليعربي ، حرقت كتب كثيرة لم يكن لها نظير بعمان .. في الرستاق بعد سقوطها . ص ٣١٧ ـ ٣٧٥ .

١٥ـ Beatrice de Cardi, "Trucial Oman in the 16th and 17th Centuries", in Antiquity, vol 44 (1970), p.288.

١٦ـ يعتبر ديوان ابي بكر بن سعيد الستالي ١١٨٩ ـ ١٢٧٨م من أهم المصادر المحلية التي تطرقت لفترة الملوك النبهانيين في عمان ، ولكن لا يعد تاريخاً ، فهو مجموعة من الأشعار والأراجيز التى امتدح فيها الستالي ملوك بني نبهان . وقد عدد أسماء كثيرة لهؤلاء الملوك دون أن يعطى معلومات واضحة عن فترات حكمهم وعن أهم الأحداث التى صارت في عصورهم .
انظر: J.C Wilkinson , The Imamate Tradition of Oman, (Cambridge University Press, 1987), p. 213.

١٧ـ حميد بن محمد بن رزيق (ت : ١٢٧٤هـ) ، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين ، (مسقط : وزارة التراث القومي ، ١٩٧٧) ، ص ٢٥٧ .

١٨ـ نور الدين عبدالله بن حميد السالمي (ت : ١٣٣٢هـ) ، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، (مسقط وزارة التراث القومي ، ١٩٨١) ، جـ١ ص ٣٧١ ـ ٣٧٦ .

١٩ـ السالمي ، تحفة الاعيان ، جـ١ ص ٣٧٩ : كشف الغمة ، ص ٣٢١ .

٢٠ـ السالمي ، تحفة الاعيان ، جـ١ ص ٣٧٩ كشف الغمة ، ص ٣٨٧ .

٢١ـ كشف الغمة ، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ .

٢٢ـ كشف الغمة ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

٢٣ـ Wilkinson, The Imamate, P.217

٢٤ـ السالمي ، تحفة الأعيان ، جـ١ ، ص ٣٩٨ .

٢٥ـ انظر كشف الغمة ، ص ٣٤٤ ، السالمي تحفة الاعيان ص ٤٠٠ .

٢٦ـ لمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع انظر مقال د. عبداللطيف ناصر ، «التاريخ السياسي لامارة الجبور» ، مجلة كلية الآداب في جامعة البصرة ، العدد ١٦ (١٩٨٠) ، ص ٥٤ ـ ٥٦ : نوال حمزة يوسف الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي (الرياض : دارة الملك عبدالعزيز ، ١٩٨٣) ، ص ٥٣ .

٢٧ـ Wilkinson, The Imamate, P. 215

٢٨ـ د. عبداللطيف ناصر ، التاريخ السياسي لإمارة الجبور ، ص ٥٨ .

٢٩ـ جميع الدلائل تشير الى ان الجبور كانوا مهيمنين على مناطق واسعة في شمال عمان ، والتي اتخذوا منها قاعدة لتوسعهم السياسي في المنطقة . انظر مقال عبداللطيف الناصر ، «التاريخ السياسي لإمارة الجبور» ص ٥٧ .
٣٠ـ سلمة بن مسلم العوتبي (من أعيان القرن الخامس الهجري) الأنساب ، (مسقط : وزارة التراث القومي ، ١٩٨٤) ، جـ٢ ص ٢٢٥ ؛ كشف الغمة ، ص ٢٥١ .
٣١ـ كشف الغمة ، ص ٧ ـ ٢٥٨ .
٣٢ـ بنو سامة هؤلاء يذكر بانهم هاجروا الى عمان قبل الاسلام بمدة طويلة وينسبون الى قبيلة قريش . وفي نسبهم وهجرتهم اختلاف كبير عند علماء النسب الأوائل . هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤) ، جمهرة النسب ، (بيروت عالم الكتب ، ١٩٨٦) ، ص ١١٣ .
٣٣ـ كشف الغمة ، ص ٧ ـ ٢٦٨ .
٣٤ـ كشف الغمة ، ص ٣٣٣ .
٣٥ـ سالم بن حمود السيابي ، إسعاف الأعيان في انساب أهل عمان ، (بيروت : مطابع المكتب الإسلامي ١٣٨٤هـ) ص ٩٨ .
٣٦ـ كشف الغمة ص ٣ ـ ٣٣٤ .
٣٧ـ ابن قيصر ، سيرة الإمام ناصر بن مرشد ، (مسقط : وزارة التراث القومي ، ١٩٨٣) ، ص ٨ ـ ١١٣ .
٣٨ـ كشف الغمة ، ص ٣٧٤ .
٣٩ـ إسعاف الأعيان ، ص ٥٨ .
٤٠ـ لمزيد من التفاصيل انظر مقال د. عبداللطيف ناصر حميدان ، «العصفوريون وقصة ١٥٠ عاما غامضة في تاريخ البحرين ، الوثيقة ، (تصدر عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين) ، جـ٣ ١٩٨٣) ، ص ٣٠ ـ ٣٣ .
٤١ـ المصدر السابق ، ص ٣٤ ـ ٣٩ .
٤٢ـ المصدر السابق ، ص ٦٦ .
٤٣ـ د. علي أبا حسين ، «الجبور عرب البحرين» ، الوثيقة جـ٣ (١٩٨٣) ، ص ٩٨ .
٤٤ـ كشف الغمة ، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ .
٤٥ـ المصدر السابق ، ص ٣٢٢ .
٤٦ـ اسعاف الأعيان ، ص ٥٩ ؛ كشف الغمة ، ص ٣٤٤ .
٤٧ـ ابن قيصر ، سيرة الامام ناصر ، ص ١٨ . كشف الغمة ص٣٥ .
٤٨ـ ابن قيصر سيرة الامام ناصر ص ٨ ـ ٥٩ ؛ كشف الغمة ، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٧ .
٤٩ـ سيرة الامام ناصر بن مرشد ، ص ١٢ .
٥٠ـ اسعاف الاعيان ، ص ١١٩ .
٥١ـ انظر ديوان النبهاني (سليمان النبهاني ت ٩١٥هـ/١٥١٠م) (مسقط : وزارة التراث القومي ١٩٨٤) . الصفحات : ١ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٣ ، ٩٨ ، ١١٤ ، ١٢٢ ، ١٣٠ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٧٧ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٤١ ، ٢٥٤ .
٥٢ـ النبهاني ديوان . الصفحات ١٨ ، ٢٣٢ ، ٢٢٨ ، ١١٩ ، ١٣٢ ، ٢١٥ ، ٢٤١ .
٥٣ـ يرى السيابي أن اليعاربة انفصلوا عن بني نبهان في أواخر عهدهم مثلما

انفصلت بطون أخرى . وأصبح كل بطن يدير شئونه السياسية والاجتماعية بصورة مستقلة . كما يذكر المؤلف من خلال تطرقه لهذا المضوع ، بانه فقد كنزاً علميا يضم جداول وشجرات أنساب مشاهير آل نبهان أو آل يعرب حتى سقوط دولتهم ولو عثر على هذه الجداول فإنه مما لا شك فيه سيتم الكشف عن كثير من الحقائق والمعلومات التاريخية الخاصة بتلك الفترة المظلمة من تاريخ عمان . انظر اسعاف الأعيان ، ص ١١٨ .

٥٤ـ سالم بن حمود السيابي ، عمان عبر التاريخ (مسقط : وزارة التراث القومي ، ١٩٨٢) ، جـ٣ ص ٨٣ ـ ١٠٠ .

٥٥ـ كشف الغمة ، ص ٣٣٥ .

الاستراتيجيّة العُ

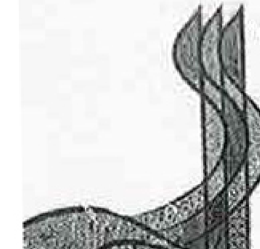
في الثلث الأول من القرن السّا

قبل أن تقرأ

حول نشاة العثمانيين وأصولهم تعددت النظريات . وقد قال الباحث انه اختار
نظرية جيبونز ، وليس معنى ذلك أن النظرية سليمه مائة في المائة فجيبونز مستشرق وإحساس المستشرقين نحو الاسلام وكل ما يمت اليه بصلة معروف للجميع . وقد تحوط الباحث فقال انه يرجو أن يكون بحثه فاتحة لنقاش جديد وحوار جديد حول الموضوع وهو ما ترجوه الوثيقة أيضا .

(الوثيقة)

إعـــداد **د. فـؤاد شـهاب**



نشأت الدولة العثمانية وترعرعت بعيداً عن العالم العربي .. وقد بدأت بالاحتكاك بالوطن العربي بعد مرور أكثر من قرنين من الزمن على تأسيسها .. حيث ان النشأة الأولى للدولة العثمانية والتي يتفق معظم المؤرخين المهتمين بهذه الدولة عليها هي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي أو بعبارة أدق عام ١٢٩٠م . وتعتبر أراء جيبونز هي السائدة في موضوع نشأة الدولة العثمانية .
فماذا تقول نظرية جيبونز ؟(١)



مانيّة

دس عشر

● سلطان السلاطين سليمان الاول او سليمان الكبير قاهر القارات الثلاث الذي وصل بالامبراطورية العثمانية الى قمة تالقها وذروة اتساعها

١ ـ كان أرطغرل أبو عثمان الذي نسبت إليه الامبراطورية رئيس قبيلة صغيرة وفدت على الأناضول في عهد السلطان السلجوقي علاء الدين الأول فرارا من خوارزم أمام زحف جنكيز خان واستقرت في سكود شمال غرب الأناضول .

٢ ـ ولم يكن عثمان وقبيلته مسلمين وكانوا كفارا يزاولون الرعي ، فلما عاشوا في بيئة إسلامية ، دخلوا في الاسلام كأبناء جلدتهم من الترك السلاجقة . وأثار فيهم هذا الدين الجديد رغبة في ادخال الناس فيه ، فدعوا جيرانهم الاغريق الذين كانوا يعيشون معهم في صداقة على الدخول أيضا في حوزة الاسلام ، ولم يكن تحت أمرة عثمان قبل دخول الاسلام إلا أربعمائة محارب يقيمون في دورهم



● خريطة تحدد الامبراطورية العثمانية رسمها عام ١٦٢٦ جون سبيد

ويزاولون حياة فارغة وادعة .

ولكن عدد العثمانيين ما لبث أن ضوعف بين عامي ١٢٩٠ ـ ١٣٠٠ وامتدت حدودهم حتى شارفت حدود الدولة البيزنطية ، وأدى ذلك إلى ظهور جنس جديد انتسب إلى رئيسه وذلك هو الجنس العثماني . ولم يكن هذا الجنس تركياً خالصاً منذ بداية أمره ، ولكنه كان جنساً جديداً مختلطاً ناشئاً عن ذوبان العناصر الأصلية وقوامه الأتراك الوثنيون والاغريق المسيحيون (٢) .

إذن النشأة الأولى للدولة العثمانية كانت أوروبية ، بمعنى ان كوادرها في غالبيتهم كانوا أوروبيي الأصل من بلاد البلقان (٣) .

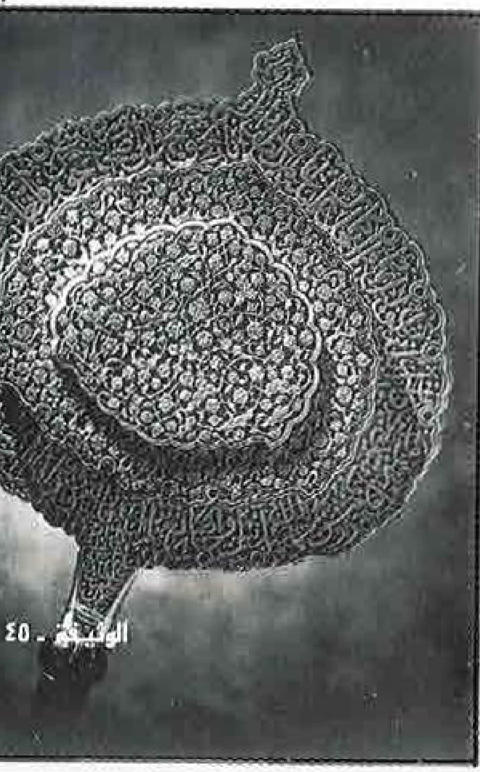
وكانت الفتوحات العثمانية أيضا طوال قرنين من الزمن شاخصة إلى أوروبا . وترتب على ذلك ان المسألة الشرقية بدأت من هذا التاريخ ، ولم تبدأ في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كما هو شائع بين عامة الناس . صحيح انها لم تظهر للشرقيين إلا في هذين القرنين ولكنها كانت تعني يومذاك كيفية وقف الغزو العثماني الاسلامي الداهم في ربوع أوروبا .

المسألة الشرقية إذن مسألة أوروبية في أساسها قبل أن تكون قضية عربية واسلامية في القرون المتأخرة تعني «المحافظة على الرجل المريض» «الدولة العثمانية» ، حتى يحين وقت اقتسام أملاكه .

ونحن بهذه المقدمة نفتح الطريق لبحثنا عن الاستراتيجية العثمانية في الثلث الأول من القرن السادس عشر . حيث كانت علاقة الدولة العثمانية بالدول العربية قبل هذا التاريخ (أي قبل مطلع القرن السادس عشر) علاقة مجاملة ومؤازرة . بمعنى آخر انها لم تكن على الاطلاق علاقة منافسة أو عداء ، ولم تنشأ بينهما أي خلافات سياسية أو عقائدية ولا حتى تنافس تجاري أو اقتصادي أو غيره[٤] . ولذا نجد أن مسلمي الشرق كانوا ينظرون إلى الفتوحات العثمانية في الغرب نظرة ارتياح وانتصار كبير لهم . وهكذا نجد السلطان المملوكي إينال يقيم احتفالا كبيرا في القاهرة بمناسبة سقوط القسطنطينية .

هكذا كانت العلاقات بين الدولة العثمانية والدول العربية ، طوال قرنين من الزمن . إلا أنه في بداية القرن السادس عشر حدث انقلاب في الاستراتيجية العثمانية . فبعد أن كان مركز الثقل أوروبيا أصبح عربيا ، وبعد أن كانت الفتوحات في معظمها أوروبية أصبحت حروب العثمانيين متركزة في الناحية الشرقية (العربية) . بمعنى آخر توقفت في مطلع القرن السادس عشر الحروب العثمانية في الغرب أو كادت وانتقلت هذه إلى المشرق العربي . ولقد اثار هذا الانقلاب في الاستراتيجية العثمانية مؤرخي تلك الفترة ، وحاولوا إيجاد تفسيرات علمية معقولة لهذا التحول الكبير .

فمنهم من ذهب إلى ان الدولة العثمانية قد وصلت إلى مرحلة آخر المدى المستطاع في الاتجاه الأوروبي . وانهم لو زادوا على ذلك لما استطاعوا الحفاظ على هذا البعد . لانهم يشبهون العاصمة بالقلب ، فإذا بعدت أطرافه قل ضخ الدم إليه ، ويصبح الحفاظ عليه غالي الثمن . فما بالنا إذا عرفنا ان في آخر هذه الحدود الأوروبية كانت تقوم دول شديدة المراس مثل فيينا التي استعصت على العثمانيين يومذاك . فكان طبيعيا أن



يحقق التاريخ قوانينه في الدولة العثمانية فتؤثر الاتجاه إلى أماكن اقرب إلى القلب وسهلة المنال ، فكان توجهها إلى العالم العربي[٥] .

أما مؤرخون أخرون فانهم يرون ان التوجه العثماني نحو الشرق العربي في بداية القرن السادس عشر ، يعود إلى الأحداث التي كانت تدور في داخل الوطن العربي وحول أطرافه .. إلا ان هؤلاء اختلفوا .. حول تفسير هذه الأحداث فمنهم من يرى بأن السبب الرئيسي للتغير المفاجىء للاستراتيجية العثمانية يعود إلى بروز الدولة الصفوية[٦] على الحدود الشرقية للأناضول .

هذه الدولة التي أسسها الشاه اسماعيل الصفوي في عام ١٥٠٠ بعد أن استطاع توحيد فارس الممزقة أنذاك . وقد اتخذ هذا الشاه المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للدولة[٧] .. وتطلع بعد ذلك للسيطرة على العراق المجاور بسبب ما يملكه العراق من ثروات طبيعية وموقع استراتيجي متميز على الخليج العربي وبسبب وجود الأماكن المقدسة الشيعية هناك ، اضافة بالطبع إلى ضعف العراق . وقد نجح الشاه اسماعيل الصفوي فعلا في السيطرة على العراق في عام ١٥٠٨ . وبذلك أصبحت الحدود العثمانية متاخمة لدولة عسكرية فتية مما عمل على تدهور العلاقات بين البلدين . خاصة وإن القبائل الحدودية كانت دائمة التأرجح في ولائها للدولتين المتنافستين مما ساعد دون شك على ازدياد الصراع بينهما . بالإضافة إلى الاتصالات التي قام بها الشاه اسماعيل الصفوي مع بعض الدول الأوروبية . هذه الاتصالات نبهت العثمانيين إلى خطورة دولة الشاه إذا ما تركت تتحرك دون تأديب . وقد اتجهت هذه العلاقات المتوترة بين العثمانيين والصفويين باتجاه المصادمة العسكرية بعد اندلاع الثورة الشيعية في عام ١٥١١ في شرق الأناضول بقيادة الشاه قولي . هذه الثورة التي استطاعت الاستيلاء على كوتاهية ومحاصرة بورصة . كما تمكن الثوار من السيطرة على معظم المناطق الوسطى والجنوبية الشرقية من الأناضول . وهناك بعض من المؤرخين من يرى بأن تصاعد ونمو هذه الثورة في شرق الأناضول إنما يعود إلى الميول الشيعية لدى السلطان بايزيد اما آخرون فإنهم يفسرون عدم تحرك السلطان بايزيد لإخماد هذه الثورة منذ اشتعالها بطريقة دموية إنما يعود لادراكه بأن الأفكار الشيعية قد لاقت كثيراً من الآذان الصاغية عند جند الانكشارية ، ولهذا تراسل مع الشاه اسماعيل الصفوي أملاً في إقناعه بالتوقف عن أهدافه الرامية إلى نشر المذهب الشيعي في الأناضول[٨] ، ولكن بعد أن باتت هذه الثورة تشكل خطراً على الدولة العثمانية ، اضطر السلطان بايزيد الثاني أن يبعث الصدر الأعظم (خادم علي باشا) على رأس ثمانية

آلاف من الانكشارية لاخماد الثورة . ولم يكتف العثمانيون باخماد هذه الثورة بطريقة دموية ، بل اختط سليم الأول بعد تسلمه السلطة بعد أبيه طريقا آخر أشد نكاية مما اتبعه والده ، فقام بتهجير الشيعة من جنوب الأناضول إلى البلقان مم استثار غضب الشاه اسماعيل الصفوي بحكمه الداعم معنويا لهذه الجماعة المجاورة له في الحدود وأعلن الحرب على العثمانيين . وفي ٢٧ ابريل عام ١٥١٤م التقى الجيشان الصفوي والعثماني في جالديران قرب العاصمة الصفوية «تبريز» . وهي منطقة سهلية من أذربيجان ، شمالي بحيرة أورميه ، شمالي شرقي بحيرة وان[٩] . ولما كتب للعثمانيين النصر بسبب تفوق مدفعيتهم .[١٠] الحديثة يومذاك وكذلك بندق الرصاص . أدركوا عدم استطاعتهم السيطرة على فارس بسبب هروب الشاه اسماعيل الصفوي إلى داخل فارس واستخدامه سياسة الأرض المحروقة وكذلك بسبب وعورة الهضبة الفارسية . كل تلك العوائق إضافة إلى ثورة الجند الانكشارية على قائدهم بسبب عدم تأييدهم لفكرة متابعة الهجوم .. حيث كان المحرض الأول لهذا الامتناع قاضي عسكر الانكشارية (جعفر جلبي) الذي أعدمه سليم بسبب ذلك في ٢٩ أغسطس[١١] ١٥١٤ دفعت بالعثمانيين إلى أن يقفوا عند هذه الحدود . ويدركوا استحالة التمكن من القضاء على الدولة الصفوية فآثروا حصارها .. وهذا ما يفسر توجههم نحو الشام ومصر وبقية الدول العربية من وجهة نظر أرنولد توينبي .. حيث يقول هذا المؤرخ بأن الوضع العسكري بعد جالديران أصبح راكداً بمعنى أنه تبين لكلا الطرفين استحالة السيطرة على الآخر .. وإذا ما أراد أي طرف أن يقوض قوة الطرف الآخر عليه أن يحاصره .. ولهذا يرى أرنولد توينبي أن توجه العثمانيين نحو الشام ومصر لم يكن إلا جزءا من الصراع العثماني الصفوي .[١٢] بمعنى آخر إن العثمانيين أرادوا أن يدعموا أنفسهم في هذه المنطقة ازاء هذا العدو القوي فاستولوا على ما يجاوره ويحيط به من الدول العربية ليكون سداً منيعاً في وجه هذا الخطر الجديد . وهذا ما يفسر كما نعتقد بقاء فارس بعيداً عن الامتدادات العثمانية مقارنة لما جرى بعد ذلك بسنوات قليلة بالنسبة للعالم العربي الذي أصبح من المناطق الجغرافية الكبرى التي تكونت منها الامبراطورية العثمانية منذ النصف الأول من القرن السادس عشر وحتى القرن العشرين . أما أهم نتائج معركة جالديران فيمكن تلخيصها في الآتي :

١ ـ فعالية بندق الرصاص والمدفعية التي استخدمها العثمانيون ضد قوى الصفويين المؤلفة بغالبيتها من التركمان الفرسان . وكان ذلك حاسماً في تاريخ المنطقة ، خاصة بعد أن انتصر هذا السلاح بعد سنتين على المماليك .

٢ ـ ضم الأناضول الشرقية نهائيا إلى الامبراطورية العثمانيـة ، واحتلال ديار بكر ، ومنطقة مرعش في عام ١٥١٥ ، من أيدي قادة التركمان ، وقد كسبت الدولة العثمانية من وراء ذلك فوائد استراتيجية واقتصادية كبـيرة ، حيث أصبحت الهضبة الاناضولية في الشرق حاجزا للدولة العثمانية من الغزاة القادمين من أواسط آسيا . كما أصبح العثمانيون ونتيجة لذلك مسيطرين على طرق نقل الحرير الفارسي بين تبريز وحلب ، وبين تبريز وبورصة . حيث قدرت واردات ولاية ديار بكر في عام ١٥٢٨ بثمن واردات البلقان بكامله[١٣] .

٣ ـ أدت هزيمة جالديران إلى ضرورة إعادة تنظيم الجيش والادارة في الدولة الصفوية ، بعد أن ضعفت العلاقة السياسية بين الشاه والقبائل التركمانيـة المعروفـة بالقـزلباش ، وكذلك بددت جالديران أسطورة الشاه المرشد الأكبر الذي لا يقهر ، ففقد احترام اتباعه له . وقد شغل ذلك الحكـام الصفويـين طيلة القـرن السادس عشر مما مكن العثمانيين من الاستيلاء على العراق دون معارضة صفوية تذكر .[١٤]

ومؤرخـون آخرون لا يـذهبـون مذهب توينبي في القول بالتحدي الحضاري الذي دفع بالعثمانيين لمواجهة الصفويين . ويعتقدون ان الدولة العثمانية أرادت أن تضفى على سلطانها السياسي سلطانا روحيا . فاتجهت إلى الدول العربية شاخصة من وراء ذلك بالطبع إلى القضاء أولا على الدولة المملوكية حتى يتسنى لها وراثتها في الأماكن المقدسة . وقد أعطت معركة جالديران الفرصـة للعثمانيين كي يحققـوا سياستهم التوسعية في الشرق . فكيف كانت العلاقات العثمانية المملوكية قبـل معركة جالديران ؟.

منذ البداية كان هناك اتجاهان في العلاقات العثمانية المملوكية :

اتجـــاه التحـــالف :

والتعـاون ضد الأخطـار التي تعرض لها الشرق الأوسط الاسلامي ، «تيمور لنك» هزيمة بايزيد في معركة أنقرة عطلت فكرة هذا التحالف ، إقامة السلطان إينال احتفالا رسميا بمنـاسبة سقـوط القسطنطينيـة . الخطر البرتغالي ـ مساعدة بايزيد الثاني للسلطان قنصوه الغوري حيث أرسـل الأول أخشـابـا لبنـاء الأسطول[١٥] ، كذلك اشتبكت السفن المصرية والعثمانية من ناحية مع سفن فرسان القديس يوحنا عام ١٥١٠ بالقرب من الاسكندرية وفي عام ١٥١١ نجح العثمانيون بإيصال أربع مائة مدفع وطنين من البارود إلى المماليك . وحتى سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ . كان الحكام العثمانيون يعترفون بالأولوية الدينية والسياسية للمماليك كزعماء لدار الإسلام ، بينما خصصوا لأنفسهم دوراً متواضعاً هو دور «البكوات حماة الأطراف» الذين يدافعون عن الحدود العامة لدار

الإسلام . أما المماليك فقد كانوا ينظرون إلى تحركات العثمانيين كجزء من المسألة الإسلامية العامة . ويؤكد ابن أياس بأن محمد الثاني الملقب (بالفاتح) كان أول زعيم من آل عثمان يتخذ لنفسه لقب سلطان . بمعنى آخر أن محمد الثاني بدأ في مساواة نفسه بسلاطين مصر ، بعد أن كان العثمانيون يكتفون بلقب «غازي» ، الذي يعني المجاهد في سبيل العقيدة .

وإن تلقيب آل عثمان لأنفسهم بالسلاطين يعني دون شك رغبتهم في تبني سياسة الدولة العظمى . وبالتالي فإن هذه التسمية لا بد وأن تنعكس بالسلب على العلاقات العثمانية المملوكية . لأن العلاقات بينهما أصبحت الآن علاقات تنافس وصراع على السيطرة والهيمنة وبالدرجة الأولى على الأولوية في زعامة العالم الاسلامي .

اتجاه الخلاف :

وهكذا بدأ الاتجاه الآخر في العلاقات العثمانية المملوكية وهو إتجاه الخلاف وقد بدأ هذا الاتجاه التنافسي بفضيحة دبلوماسية عام ١٤٦٣ عندما رفض السفير العثماني الانحناء لحاكم مصر .[١٦] .

كما كان الخلاف حول تخطيط الحدود بين أعالي الشام وجنوب الأناضول وخاصة حول امارة البستان .[١٧] حيث تدخل المماليك والعثمانيون في شئون هذه الامارة العازلة بين منطقتيهما فأيد كل منهما أميراً تركمانيا ، ومارس النفوذ من خلاله ونتج عن هذا اقتتال بين أفراد الأسرة الحاكمة في امارة البستان وتأزم العلاقات المملوكية العثمانية .

كما ادى التجاء الأمير جيم ـ ابن السلطان محمد الثاني الذي ثار على أخيه بايزيد حين خلف أباه في السلطنة عام ١٤٨٢ ـ منافس بايزيد الثاني في العرش إلى مصر إلى دفع هذا الأخير للاغارة على طرسوس ، إلا أن قايتباي هزمهم وعقد الصلح بين الفريقين عام ١٤٩١[١٨] . وهناك مؤرخون آخرون يرون بأن تحالف الأمير جيم مع السلطان المملوكي قايتباي كانت نتيجته الفشل والهزيمة ، وهذا الذي دفع بالأمير جيم للجوء إلى أوروبا حيث توفى هناك عام ١٤٩٥[١٩] . ونحن نميل إلى وجهة النظر الثانية لانها تستند في تفسيرها لهذا الصراع ونتائجه على ميزان قوى الدولتين في تلك الفترة والذي كان دون شك في صالح الدولة العثمانية .

لكن هذا الخلاف لم يتطور إلى نزاع عنيف إلا بعد أن وقف المماليك موقفا مائعا في حرب السلطان سليم مع الشاه اسماعيل الصفوي في جالديران ، حيث أوعز المماليك لأمير إمارة البستان علاء الدين ، بالتعرض للمؤن العثمانية الذاهبة إلى الجيش العثماني الزاحف على فارس ، وذلك بسبب توتر العلاقات بين السلطان المملوكي قنصوه الغوري والسلطان العثماني سليم الأول[٢٠] .

وكان دافع المماليك من وراء موقفهم هذا ، اعتقادهم بأن الحرب سوف تضعف الطرفين العثماني والصفوي ويصبحون بذلك هم أسياد الموقف . ولكن شاءت الظروف ان العثمانيين بعد انتصارهم في معركة جالديران لم يتبعوا الفرس إلى الداخل وإنما انتهى الأمر بهم إلى المصالحة السلبية التي عبر عنها توينبي بالموقف الراكد .. والتي نستطيع أن نقول انه الموقف المجمد بلغة العصر الحديث . ومن هنا يعتقد بعض المؤرخين ان معركة العثمانيين مع الصفويين لم تكن سوى خطوة أولى استهدفوا من ورائها تحجيم القوة الصفوية فقط للانصراف بعدها إلى تحقيق مطامعهم في الاستيلاء على البلاد العربية . ولذلك نجد سليم الأول يقطع رأس أمير امارة البستان الموالية للمماليك يومذاك ورأس ابنه ووزيره ويرسلها إلى قنصوه الغوري السلطان المملوكي على مصر ، متهما إياهم بالخيانة لموقفهم من اعتراض المؤن التي كانت ذاهبة من الدولة العثمانية إلى جيشهم في جالديران[٢١] .

وأحب هنا أن أوضح بعض العوامل السيكولوجية التي حركت السلطان سليم ودفعته إلى هذه الشدة التي أسلفناها في معاملة حلفاء المماليك . ذلك بأنه كان يريد كسر شوكتهم لانه كان يعلم مدى الاعتزاز والكبرياء الذي داخل نفوسهم بسبب تاريخهم الطويل في الدفاع عن الاسلام في مواجهة أعداء الاسلام .

فضلا عن ذلك فإن السلطان سليم بذكائه الخارق ووقوفه على سيكولوجيات الشعوب والحكام المماليك أراد أن يستثيرهم فيبدأون هم بالعدوان ، حتى لا يكون في أنظار العالم الاسلامي هو المعتدى . خاصة وانه يعلم جيداً ان المماليك بما عُرف عنهم من الشجاعة والجرأة والاقدام (الجانب الاندفاعي تجاه أي استثارة توجه لهم) ، لن يسكتوا أبداً على تصرفه . وقد نجح السلطان سليم في تخطيطه هذا وفي توقعاته ، حتى انهم خرجوا إليه فعلا في مرج دابق عام ١٥١٦ .

وقد حاول كلاهما (السلطان العثماني والسلطان المملوكي) أن يستثير مشاعر المسلمين ليقفوا في صفه . فاستصدر السلطان سليم فتوى من علماء السلطنة ومفتي استنبول الأكبر «ان من يساعد أعداء الله هو عدو الله أيضا» وأخرى تقول بأن المماليك خانوا الاسلام وانهم يساعدون الكفار . أما هدفه من هذه الحرب فهو «تحرير المضطهدين وحماية المسلمين من العدو الخارجي»[٢٢] .

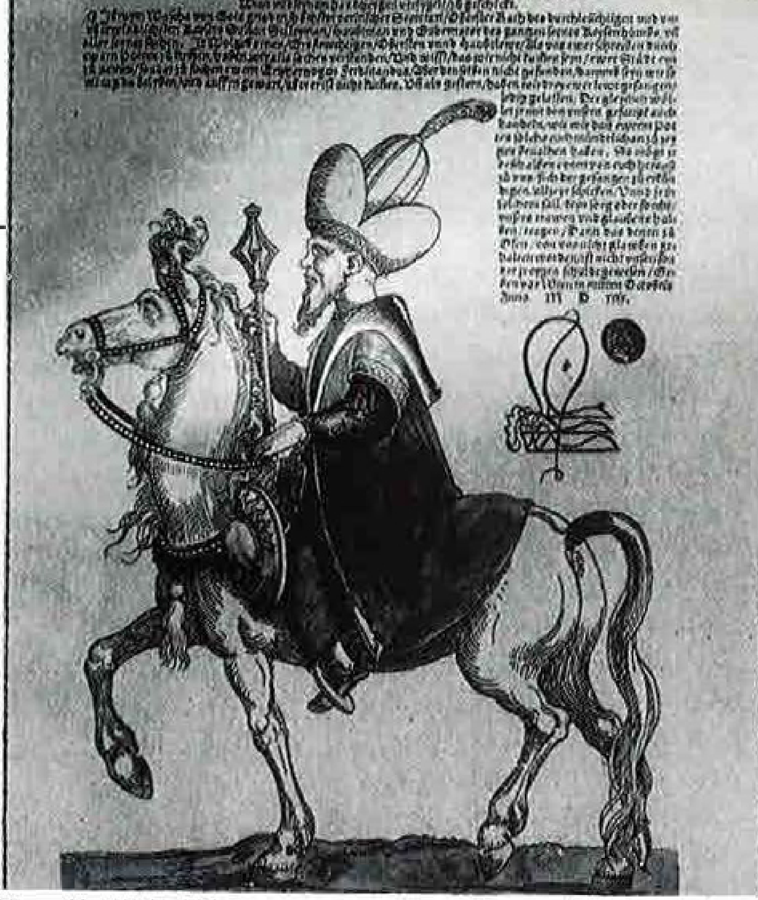
وقد حاول المماليك على غرار العثمانيين ، اضفاء الطابع الديني على الحرب ، فلقبوا السلطان سليم بملك الروم واتهموه بالارتداد عن الدين الحنيف والسنة ، سيما وانه يحلق ذقنه ويرتدي القفطان والعمامة الكبيرة بدلا من الملابس الاسلامية التقليدية[٢٣] .

وقد التحم الجيشان في ظلال هذه المعارك الدعائية والحرب الكلامية ، وكان النصر في مرج دابق حليف العثمانيين[٢٤] . وقد انتحر في هذه المعركة السلطان المملوكي قنصوه الغوري . وقد روى ابن اياس : كيف أن السلطان عندما تأكد من الهزيمة تناول السم من الخاتم الذي يحمله بصورة مستمرة ، وعندما انساب السم إلى جوفه ، فقد وعيه وسقط عن الحصان ومات على الفور . وقد حضر السلطان سليم صلاة الجمعة بحلب وخطب الخطيب بإسمه ، وعندما سمع السلطان سليم الخطيب يقول في تعريفه «خادم الحرمين الشريفين» ، سجد لله تعالى شكراً وقال : «الحمد لله الذي يسر لي أن صرت خادم الحرمين الشريفين» وبذلك اتخذ لنفسه اللقب الذي كان يحمله حكام مصر منذ صلاح الدين ، ووضع نفسه زعيماً روحياً ومدنياً لدار الاسلام[٢٥] ، وبهذا استطاع سليم أن يحقق في فترة وجيزة أهداف الحرب بكاملها : الحاق الهزيمة بالمماليك وبسط الهيمنة العثمانية .

وبعد موت قنصوه الغوري ، وقع اختيار المماليك في مصر على طومان باي ابن شقيقة قنصوه الغوري وكان في الثامنة والثلاثين من عمره ، ذلك الرجل المشهور في التاريخ ، الذي يعتقد الناس ان شهرته قد جاءت من وراء انتصارات كبيرة . والحقيقة ان الرجل قد هزم في معركة الريدانية عام ١٥١٧ . وقد جاءت شهرته من وراء موقف الإباء والشمم والحفاظ على قيم الحكم وسمعة الدولة . فقد فرض عليه العثمانيون المنتصرون على سلفه قنصوه أن يضرب السكة باسمهم وأن يخطب الجمعة باسمهم . ولكنه أبى حفاظا على سمعة دولته المملوكية واستمساكا بالقيم التي دافعت عنها هذه الدولة طوال أكثر من قرن ونصف من الزمن . وأبى أن تكون نهاية دولة المماليك العظيمة هي الاستسلام من قبله . فأبى الخضوع للعثمانيين ولم يقبل شرطا من شروطهم وآثر الحرب رغم وثوقه بأنه مهزوم ولا بد وهذا ليس بغريب على مقاتل مقدام مثل طومان باي الذي تتجسد فيه أفضل مزايا الفارس المملوكي . من أجل ذلك لم يهضم التاريخ حقه وهو المهزوم وحفظ له شهرته عبر الأجيال لهذا الموقف الأخلاقي العظيم .

وقد أعدم طومان باي في ١٣ ابريل عام ١٥١٧م على باب زويلة ، وفي جو مفعم بروحه النضالية المقاتلة والذين قاتلوا معه هذا القتال الصعب[٢٦] .

ولقد استتبع هزيمة طومان باي ، أن أصبح الحجاز تابعا للحكم العثماني . لأن الحجاز كان يتبع بأرض مصر تبعية تلقائية ، والمقصود بالتبعية التلقائية هو أن الحجاز لا يرتبط بدولة معينة أو بسلطة معينة في مصر وإنما يرتبط بمصر ذاتها بصرف النظر عن الحكومة أو الدولة القائمة فيها[٢٧] . لهذا سارع الشريف بركات بارسال ابنه «أبو نمي» إلى القاهرة حاملا للسلطان



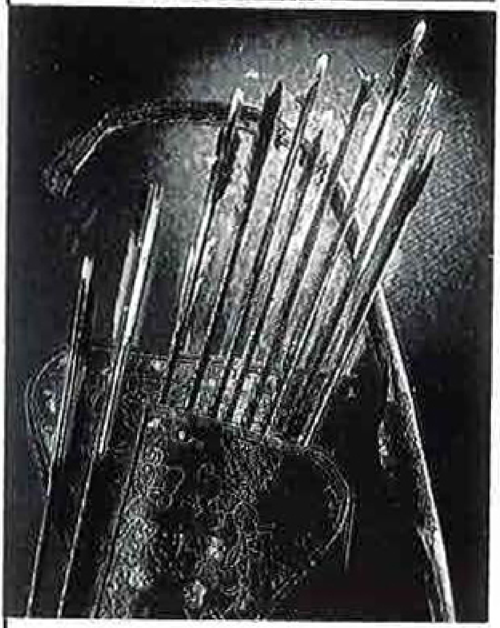
● ابراهيم باشا. وزير السلطان سليمان وذراعه اليمنى على ابواب فيينا على مسافة الف ميل من استنبول حيث توقف زحف الامبراطورية.

سليم تهانى أبيه ومفاتيح الحرمين الشريفين وهذه كانت إقراراً بالسيادة . وقد اكرم السلطان وفادة «أبي نمي» وأعطاه تفويضاً بحكم والده . ويعزو بعض من المؤرخين قبول الشريف بركات للسيادة العثمانية إلى رغبته في مواجهة الخطر البرتغالي وهذا يتطلب مساعدة دولة اسلامية كبيرة بالإضافة إلى ان الحجاز يجب أن يكون مسالما مع الدولة الحاكمة في مصر ليستفيد من الأوقاف المحبوسة على الحرمين الشريفين وفقراء مكة والمدينة . كما ان دخول نظام الحكم في الحجاز تحت السيادة العثمانية سيقوى من مركز الشريف أمام خصومه في الشرافه .

وهناك مؤرخون أخرون يفسرون هذا الانقلاب المفاجىء في الاستراتيجية العثمانية والذي تحدثنا عنه آنفا بأنه يعود إلى رغبة العثمانيين في الدفاع عن العالم الاسلامي ضد الخطر البرتغالي والأسباني الذي بدأ يشكل كماشة على العالم العربي . وانهم بعد أن فقدوا الأمل في أن يقوم المماليك بصد الهجوم البرتغالي الشرس على الحرمين الشريفين ، بالرغم من المساعدات الكبيرة التي قدموها اليهم ، قرروا أن يقوموا هم أنفسهم بذلك خاصة وان العلاقات بين الصفويين والبرتغاليين أخذت في التوثق .

فإذا تركنا الأمور الاقتصادية وهي إعادة التجارة الشرقية إلى سابق عهدها وتركنا الأمور السياسية وهي





صراعهم مع الصفويين والمماليك ، فمن المؤكد ان تهديد البرتغاليين للأماكن المقدسة في الحجاز كان يقض مضاجعهم . حيث اننا يجب أن لا ننسى دور «الجهاد» وانه أساس من أسس بنية الدولة العثمانية ونشأتها . فالسلطان يجب أن يكون غازياً في سبيل الاسلام ومقدساته(٢٨) .

وينظر هؤلاء المؤرخون إلى المساعدات التي قدمتها الدولة العثمانية إلى المماليك لمجابهة البرتغاليين والتي تحدثنا عنها آنفا ، بأنها مواجهة عثمانية برتغالية غير مباشرة وبأن سيطرة العثمانيين على مصر ، ما هي إلا مرحلة استعداد للمواجهة المباشرة(٢٩) مع العدو الذي بدأ بالفعل يهدد الأماكن المقدسة ، خاصة بعد تعذر صده من قبل الدولة القائمة على تلك الأماكن يومذاك . وبعد أن أخذت الأحداث في الخليج منحا خطراً بتقرب البرتغاليين من القوة الصفوية المهزومة في جالديران وتوقيعهم اتفاقية معهم في عام ١٥١٥ تعهد فيها البرتغاليون بمساعدة شاه فارس اسماعيل الصفوي على غزو كل من البحرين والقطيف ، وكذلك الوقوف معا ضد الدولة العثمانية(٣٠) . وقد استفاد البرتغاليون كثيراً من هذا الاتفاق حيث سهل لهم هذا التحالف القضاء على القوى العربية في الخليج العربي ونقصد بها هرمز ، التي كانت تعتبر آنذاك أهم المراكز الثلاثة لتجارة الشرق والسيادة العالمية . أما المركزان الآخران فهما مالاقا عند مدخل مضيق سنغافورة وعدن عند مدخل البحر الأحمر وبعبارات أخرى ، فان العالم الاسلامي بدلا من ان يتوحد ضد ثاني موجة استعمارية غربية بعد الحروب الصليبية على

الأراضي المقدسة في فلسطين والتي كانت تهدف فيما تهدف إليه تدنيس الأماكن المقدسة ، نجدهم يتصارعون فيما بينهم من أجل السيطرة وريادة العالم الاسلامي لا غير ، وبذلك نسوا القضية العامة ومكنوا منهم أعداء الاسلام .

وبالرغم من أن اليمن قد سقطت سلميا في أيدي العثمانيين بعد أن سقطت مصر في أيديهم . حيث كان للمماليك جيش كان قد ذهب إلى اليمن للتصدي للبرتغاليين ، ولما سمع قائد الجيش المملوكي آنذاك في اليمن بموت طومان باي ، فانه آثر اتباع سياسة الأمر الواقع والدخول في سيادة الدولة العثمانية . فاعترف (اسكندر الشركسي) بالسيادة العثمانية حتى يقضي على الخلافات التي ثارت بين صفوف جيشه نتيجة لموت قنصوه الغوري وحتى يقوى جانب الحملة في اليمن أيضا . إضافة إلى ان خضوعه للدولة العثمانية جعل منه صاحب كيان واضح وأصبح من حقه أن يطلب المساعدات ضد القوة المعادية له ، أما إذا كان قد امتنع عن الخضوع كان سيصبح هو ومن معه كمن لا دولة لهم[٣١] . بالرغم من سقوط اليمن السلمي على هذا النحو في أيدي العثمانيين ، فإن نفوذهم قد اتسم فيها بالضعف حتى عام ١٥٣٨ . وقد أصيبت القوى المحلية في الخليج بالخيبة نتيجة لهذا التأخر العثماني خاصة وانها كانت تتوقع أن تتابع الدولة العثمانية خطى الدولة المملوكية في المضي قدما في قتال البرتغاليين ، وفي أن تكون أوفر حظا في الصراع[٣٢] .

ويفسر بعض المؤرخين هذا الموقف الدفاعي العثماني في المحيط الهندي بانشغالهم في الجبهة الأوروبية حيث استولى السلطان سليمان على بلغراد في أغسطس ١٥٢١ ، وعلى جزيرة رودس في ديسمبر ١٥٢٢[٣٣] ، وهزم ملك المجر في معركة موهاكس في أغسطس ١٥٢٦[٣٤] ، ثم تقدمت جيوشه بعد ذلك إلى فيينا عاصمة النمسا ودقت أسوارها عدة أيام وكادت المدينة أن تستسلم ، لكن السلطان سليمان رفع الحصار عن المدينة في ١٥ أكتوبر ١٥٢٩ لقلة المؤن وبعد المسافة[٣٥] . ولم تكن حملة ١٥٣٢ على فيينا بأوفر حظا من سابقتها .

على أن هناك مؤرخين آخرين يفسرون عدم اتباع العثمانيين لسياسة هجومية ضد البرتغاليين في العقدين الثاني والثالث من القرن السادس عشر إنما يعود إلى عدم استعداد العثمانيين الحربي لمثل هذه المجابهة يومذاك اضافة إلى أن الدلائل أثبتت ان العثمانيين الذين تصدوا لزعامة العالم الاسلامي ، لم يقدروا النتائج السلبية التي كانت سوف تنعكس على ذلك العالم وعلى دولتهم من جراء التحولات الكبرى التي طرأت على خطوط التجارة العالمية . وكذلك تأثير هذه التحولات الكبرى على الاقتصاد العالمي وموازين القوى الدولية[٣٦] .

اننا نستطيع أن نغفر للعثمانيين تأخرهم في مجابهة البرتغاليين ولكننا لا نستطيع أن نفهم الأسباب التي دفعت بسلطان في مكانة السلطان سليمان القانوني إلى اختيار شخصية مثل شخصية سليمان باشا الخادم لقيادة حملة مهمة على اليمن للأسباب التي ذكرناها . وهو العارف بشخصية هذا القائد الذي تربى مع النساء في القصر السلطاني والمعروف بغدره وحبه لسفك الدماء بالاضافة طبعا إلى كبر سنه حيث انه كان في الثمانين من عمره وكان بحاجة إلى أربعة أشخاص لكي يضعوه فوق ظهر جواده(٣٧) .

لقد كانت حملة اليمن بحاجة إلى قائد محنك عالم بسيكولوجية الشعب اليمني وبالصراعات الدائرة في المجتمع نفسه . وذا ارادة قوية للانتصار على البرتغاليين . وأن يتصرف بمسئولية تتناسب وانتماءه إلى دولة اسلامية عظمى كالدولة العثمانية . حتى يتمكن من كسب الجبهة الداخلية في اليمن وفي عدن بصفة خاصة ، لكونها قاعدة الارتكاز ضد البرتغاليين في المحيط الهندي فضلا عن الصفويين والبرتغاليين في الخليج العربي . الا أن سليمان باشا تصرف بشكل يعكس عدم فهمه التام لأهمية الحملة وأهمية الصراع مع البرتغاليين ، فبعد أن فتح عامر بن داود الطاهري حاكم عدن أبوابها لجيش سليمان(٣٨) . واعدا إياه بوقوفه إلى جانب العثمانيين ضد البرتغاليين . فإن القوات العثمانية ما كادت تدخل عدن حتى انطلقت في السلب والنهب . أما سليمان باشا فقد قام بقتل عامر بن داود الطاهري . وقد فشل في استدراج شرف الدين إلى نفس المصير فشوهت هذه التصرفات سمعة الجيش العثماني وسمعة الحكم العثماني في اليمن خاصة ، وفي الأقطار الاسلامية على وجه العموم ، وهذا هو الذي يفسر لنا الموقف المتحفظ للمسلمين الهنود في الاشتباك البحري الذي وقع بين سليمان باشا والبرتغاليين في (ديو) والذي كانت الهزيمة فيه من نصيب العثمانيين . ويتفق كثير من المؤرخين على أن فشل هذه العملية الضخمة ، يعود إلى سوء القيادة وعدم الشجاعة ، ولو انه توفر للعثمانيين يومذاك القائد الذي يتناسب وأهمية هذه الحملة لما بقيت الهند تحت السيطرة البرتغالية . ولما بقيت القوى الاسلامية في المحيط الهندي ممزقة ، هذا التمزق الذي أوجد فرصة البقاء والاستمرار للاستعمار البرتغالي في الخليج ومنطقة المحيط الهندي .

استيلاء العثمانيين على المغرب العربي :

لم يكن التدخل العثماني في شمال افريقيا متوقعا أبداً ، كما لم يكن في حسبان أحد بما في ذلك الدولة العثمانية نفسها ، لان الامبراطورية العثمانية عندما وجهت حروبها نحو الشرق لم تكن لتطمح بأكثر من

القضاء على الدولة المملوكية ومحاصرة وتحجيم الدولة الصفوية وغلق البحار العربية أعني البحر الأحمر في وجه البرتغاليين ، لماذا اذن توجه العثمانيون نحو بلاد المغرب العربي ؟.

لم تستول الدولة العثمانية على المغرب العربي بالقهر العسكري كما حدث في المشرق «جالديران ١٥١٤ ومرج دابق ١٥١٦ والريدانية ١٥١٧» بالاضافة للمعارك الحربية والحملات التي خاضتها القوات العثمانية لفتح اليمن والعراق ، وإنما أتى استيلاؤها عليه نتيجة لاشتداد الصراع بين الاسلام والمسيحية .

ونتيجة للغارات والحملات التي كان يشنها الأسبان على العرب والمسلمين في شمال افريقيا . فما كان من شعوب هذه المنطقة خاصة القوى المسيطرة إلا أن طلبت وبإلحاح شديد من العثمانيين أن يدخلوا معهم في صراعهم ضد قوى العدوان على العرب والاسلام .

ولقد ارتبط الصراع الأسباني العربي في المغرب العربي بعروج وأخيه خير الدين برباروسا[٣٩] . وكان الأول قد اتفق مع السلطان الحفصي محمد بن الحسن ١٤٩٤ ـ ١٥٢٦ الذي سمح له باستخدام جزيرة «جربة» كقاعدة لاسطوله مقابل مشاركة السلطان بخمس الغنائم[٤٠] . وقد سمى عروج نفسه قائد الجزيرة ، وبدأ في انزال الضربات بالسفن الاسبانية ، خاصة وان أتباعه قد زادوا نتيجة لعنف الأسبانيين ، وكذلك ارتفع عدد سفنه من سفينتين إلى اثنتى عشرة سفينة سنة ١٥١٢[٤١] . وقد حاول عروج مساعدة الشعوب والحكام الذين يطلبون مساعدته للوقوف في وجه الغزاة الأسبان . وبسبب الخلاف الذي نشب بينه وبين الحاكم الحفصي ، نقل عروج قاعدته من جربة إلى جيجل . وقد تم هذا الاختيار بسبب ممارسة أهل جيجل أنفسهم للقرصنة ، وبسبب الشعبية التي كان يحظى بها عروج نفسه في هذه المنطقة . ومن هذه المنطقة قدم عروج يد العون لأهالي الجزائر الذين طلبوا مساعدته بسبب تعرضهم لضربات أسبانية من القلعة التي كانت للأسبان في مواجهة الجزائر . وكذلك ساعد عروج في عام ١٥١٧ أهالي تلمسان في التخلص من حاكمهم أبو حمو الذي كان يتعاون مع الأسبان . ومع تزايد قوة عروج ، شعر الأسبان بخطره فقرروا التخلص منه وهكذا أرسلوا إليه حملة بقيادة «دون مارتن» هذه الحملة التي استطاعت قطع الطريق بين تلمسان والجزائر ، وبعد معارك ضارية حارب فيها عروج كالأسد قتل عروج مع كثير من أنصاره ، وكان عمره حين قتل أربعة وأربعين عاما .

كان خير الدين نائبا لأخيه في الجزائر ولما وصله نبأ مقتل أخيه خشى ثورة المناطق المجاورة ، وثورة سكان المدينة الناقمين ، كما خشى تدخل

الأسبان . وأدرك خير الدين ببعد نظره انه لن يستطيع أن يجابه الموقف بقواه الخاصة ، أو أن يجابه الأسبان بمغرب ممزق وأن ليس أمامه سوى الاعتماد على قوة اسلامية أخرى وهي «الدولة العثمانية التي كانت أنباء فتحها للشام ومصر قد وصلت إليه ، وذلك للحصول على المساعدات المالية والعسكرية بالاضافة لحصوله على الانتماء لدولة قوية[٤٢] . فكان اعلان ولائه مفاجأة سارة للسلطان العثماني سليم الذي قبل دون تردد ، وسارع بارسال ألفين من الانكشارية ، كما سمح لرعايا الدولة العثمانية بالتطوع في جيش المغرب حتى يتمكن من رد الهجمات الأسبانية البرتغالية[٤٣] . وهكذا دخلت الجزائر منذ ذلك الوقت ١٥١٨ ضمن الولايات العثمانية . وفي الفترة من ١٥٢٠ ـ ١٥٢٥ استطاع خير الدين اخضاع الملاحة في البحر المتوسط لسيادة الأساطيل الاسلامية حتى هابته جميع الدول الأوروبية وأصبح مشهورا عندها باسم «خير الدين برباروس» أي ذي اللحية الحمراء . وقد استطاع هذا القائد بعد موافقة السلطان العثماني الاستيلاء على تونس سنة ١٥٣٤ والقضاء على حكم الدولة الحفصية فيها قضاء مؤقتا . وبقيت تونس فترة من الزمن يتعاقب عليها الأتراك العثمانيون حتى سيّر اليها السلطان العثماني حملة ضخمة يقودها سنان باشا فاتح اليمن ، فانتزعها من الأسبان وقضى نهائيا على الدولة الحفصية سنة ١٥٧٤[٤٤] .

أما طرابلس الغرب فقد خضعت للسيطرة العثمانية في سنة ١٥٥١ بعد أن طردوا الأسبان منها ، وبهذا أصبحت ولاية عثمانية ، كما صار ميناء طرابلس معقلا هاما من معاقل الدولة العثمانية في شمال أفريقيا وفي البحر المتوسط ، لكن المغرب الأقصى ، تحت حكم الأشراف السعديين ظل ممتنعاً على العثمانيين واستطاع أن يحتفظ باستقلاله حتى أوائل القرن العشرين حين اقتسمته أسبانيا وفرنسا .

ويمكن ارجاع توفيق الدولة العثمانية في شمال أفريقيا منها في المياه الجنوبية للأسباب التالية :

(١) العمليات التي تدربت عليها البحرية العثمانية كانت أكثر ملاءمة لحرب البحار منها لحرب المحيطات وما وراء البحار في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي .

(٢) قرب الشمال الأفريقي من تركيا ومصر يسهل وصول الامدادات ويجعل صورة الأحداث واضحة ، والتطورات العسكرية مفهومة .

(٣) القواعد العثمانية في شمال افريقيا كانت تستند إلى خلفية اسلامية واسعة مستعدة للتعاون إلى حد كبير مع العثمانيين .

(٤) رغم اصرار أسبانيا على مواصلتها لحملتها الصليبية

على شمال المغرب إلا أن المستعمرات الأمريكية كانت أكثر اغراء للأسبان من شمال أفريقيا[٤٥] .

الاستيلاء على العراق :

لم تضع موقعة جالديران نهاية للصراع الصفوي العثماني حول العراق ، وإنما تركت فتيلا كان من الممكن اشتعاله في أي لحظة . هذا الفتيل تمثل في استيلاء السلطان سليم في معركة جالديران على المناطق الشمالية بالعراق ، أما وسط وجنوب العراق فقد بقي في يد الصفويين حتى وفاة الشاه اسماعيل عام ١٥٢٤ . وبالنسبة لادارة بغداد فقد وضعت تحت اشراف حاكم يعين من قبل الشاه يطلق عليه الخان .

وبموت الشاه اسماعيل وتولى ابنه طهماسب البالغ من العمر عشر سنوات الحكم ، ضعف النفوذ الصفوي في بغداد مما أدى إلى ازدياد الصراع حول منصب حاكم بغداد ، وكان طبيعياً جداً أن ينعكس هذا الصراع على الصراع الصفوي العثماني ، بأن تسعى الفئات المتنازعة للحصول على تأييد احدى الدولتين الكبيرتين . وحدث فعلا أن استغل أحد الطامعين في حكم بغداد واسمه ذو الفقار فرصة وفاة الشاه اسماعيل فقام بمهاجمة بغداد وقتل حاكمها ابراهيم سليمان عام (١٥٠٨ ـ ١٥٢٤) وأعلن ولاءه للسلطان سليمان وطلب منه الحماية[٤٦] .

وقد حاول طهماسب استرداد بغداد عام ١٥٣٠ إلا انه فشل ، ولكن الخيانة نجحت حيث فشل السلاح ، فقد قام إخوة ذي الفقار باغتياله فأعيدت السيطرة الفارسية على بغداد وعين محمد خان واليا عليها عام ١٥٣٠[٤٧] . ورغم ذلك لم يتحرك السلطان سليمان ولم يعلن الحرب على طهماسب إلا عام ١٥٣٤ ، حيث خرجت القوات العثمانية من مركزها في حلب في ابريل عام ١٥٣٤ بقيادة الصدر الأعظم ابراهيم باشا ، وعبرت الفرات وتقدمت عبر كردستان إلى أذربيجان ، وزحف ابراهيم باشا على «تبريز» واستولى عليها ومكث فيها إلى أن لحق به السلطان في سبتمبر حيث بدأت المرحلة الثانية من الحملة ، فتقدم الجيش عبر طريق شمال غربي فارس دون أن يلقى مقاومة من جانب الصفويين ثم مر بطريق همدان ووصل إلى سهل العراق .. وهكذا استطاعت القوات العثمانية أن تقطع أي مدد ، ودخل العثمانيون إلى بغداد بدون قتال . هذا وقد أرهقت الحملة الجيش العثماني مما اضطره إلى البقاء في بغداد بضعة شهور ليريح قواته من ناحية ولينظم أحوال الولاية الجديدة من ناحية أخرى ، وعين بعد مغادرته عاصمة العباسيين والي ديار بكر السابق واليا على بغداد . ولقد كان السلطان سليمان حريصا على عدم الاساءة إلى مشاعر الشيعة باعتباره

سلطانا سنيا فزار الكثير من أضرحة الشيعة وأوقف لها مقاطعات عدة . كذلك بنى سد السليمانية لوقاية كربلاء من مياه الفيضان في الربيع وسماه كذلك نسبة لسليمان القانوني ، كما وسع الترعة المعروفة بالحسينية حتى تأتي بالماء باستمرار لزراعة المنطقة حول العتبات المقدسة(٤٨) .

وقبيل مغادرة سليمان بغداد ، هرع زعماء القبائل إلى بغداد معلنين ولاءهم وكان بينهم شيخ المنتفق وأمير البصرة الذي بعث بولده مانع حاملا المفاتيح ووسائل الخضوع . فألحقت البصرة على هذا النحو بالممتلكات العثمانية . وأصبحت امارة عثمانية وعين راشد واليا عليها . الا ان هذا الأخير لم يبق في السلطة طويلا نتيجة تمرده على السلطان ، فقاد اياس باشا ثاني حكام بغداد عام ١٥٤٦ - ١٥٤٧ حملة ضد راشد بن مغامس الذي فر إلى الاحساء بعد أن تداعت قوته ، وضمت البصرة والمناطق المحيطة بها إلى الامبراطورية العثمانية كولاية عثمانية ، وأصبح اياس أول وال عثماني على البصرة(٤٩) .

لم ينه احتلال العثمانيين للعراق النزاع الصفوي العثماني حول العراق حيث استمر هذا الصراع طوال القرن السادس عشر . وسعى الصفويون كثيراً لاسترداد العراق ، ونجحوا في الاستيلاء على بغداد في عهد الشاه عباس الصفوي عام ١٦٢٣ الا ان هذا الاحتلال لم يستمر طويلا حيث استطاع السلطان مراد الرابع فتح العراق مرة أخرى عام ١٦٣٨ وبعد ذلك بقى العراق تحت الحكم العثماني حتى الحرب العالمية الأولى . (نهاية الدولة العثمانية) .

الخاتمة :

مما تقدم نجد أنه من الواضح كل الوضوح ان جميع العوامل السابقة قد أسهمت بنسب متفاوتة في تغيير الاتجاه العثماني من الغرب إلى الشرق .

ونحن نتساءل في هذا المقام هل حركة التاريخ إذا توافرت لها عناصرها ، تعمل من تلقاء نفسها شأن ما يقول به الشيوعيون أو أصحاب التفسير المادي للتاريخ . فهؤلاء يقولون كما نعلم جميعاً ان حركة التاريخ تمشي غير مستأذنة ولا مأذونة من الانسان فهي فوق ارادة الفرد . ونستطيع أن نقول اننا لسنا من هذه الناحية من أنصار المادية التاريخية . لأننا نؤمن بأن الانسان عنصر مهم من عناصر الحركة التاريخية فلا بد أن يوجد الفرد المستجيب لهذه المرحلة التاريخية والمحرك لها(٥٠) . ونحن نعتقد ان سليم الأول كان المحرك لهذه الحقبة من التاريخ لما فيه من خصائص أجمع عليها المؤرخون . هذه الخصائص التي جمعت القدرات القيادية - الحربية ، والممكنات الحيوية الذهنية والجسدية(٥١) . حيث انه ما كان ينام إلا قليلا ،

متربصا ، متحفزا لا تغنيه مباهج الحياة ومسراتها . وكذلك اتصف السلطان سليم الأول بالقسوة والرهبة لانه بدأ عهده بقتل عدد كبير من اخوته وكبار رجال حاشية البلاط . وهكذا قرن اسمه في المؤلفات الأوروبية بـ Salim the Criminal[٥٢] . بالإضافة إلى كل الخصائص التي ذكرناها آنفاً فإننا نرى ان استجابته التلقائية لمنطق التاريخ ودعمه لحركته هي أهمها .

وقد تزامنت كما رأينا آنفاً حالة التشبع هذه ببروز الأخطار البرتغالية والأسبانية التي كانت تهدد العالم العربي ليس وحده وإنما أيضا كانت تشكل خطرا مستقبليا على الدولة العثمانية . فلذا ارتأت الدولة العثمانية مجابهة هذا الخطر قبل استفحاله والخروج له قبل أن يأتي لها . خاصة وإن الوطن العربي يومذاك لم يكن في حالة تسمح له بصد الأخطار . وهذا أيضا الذي شجع الدولة العثمانية على الشروع في السيطرة عليه والاستفادة من ثرواته .

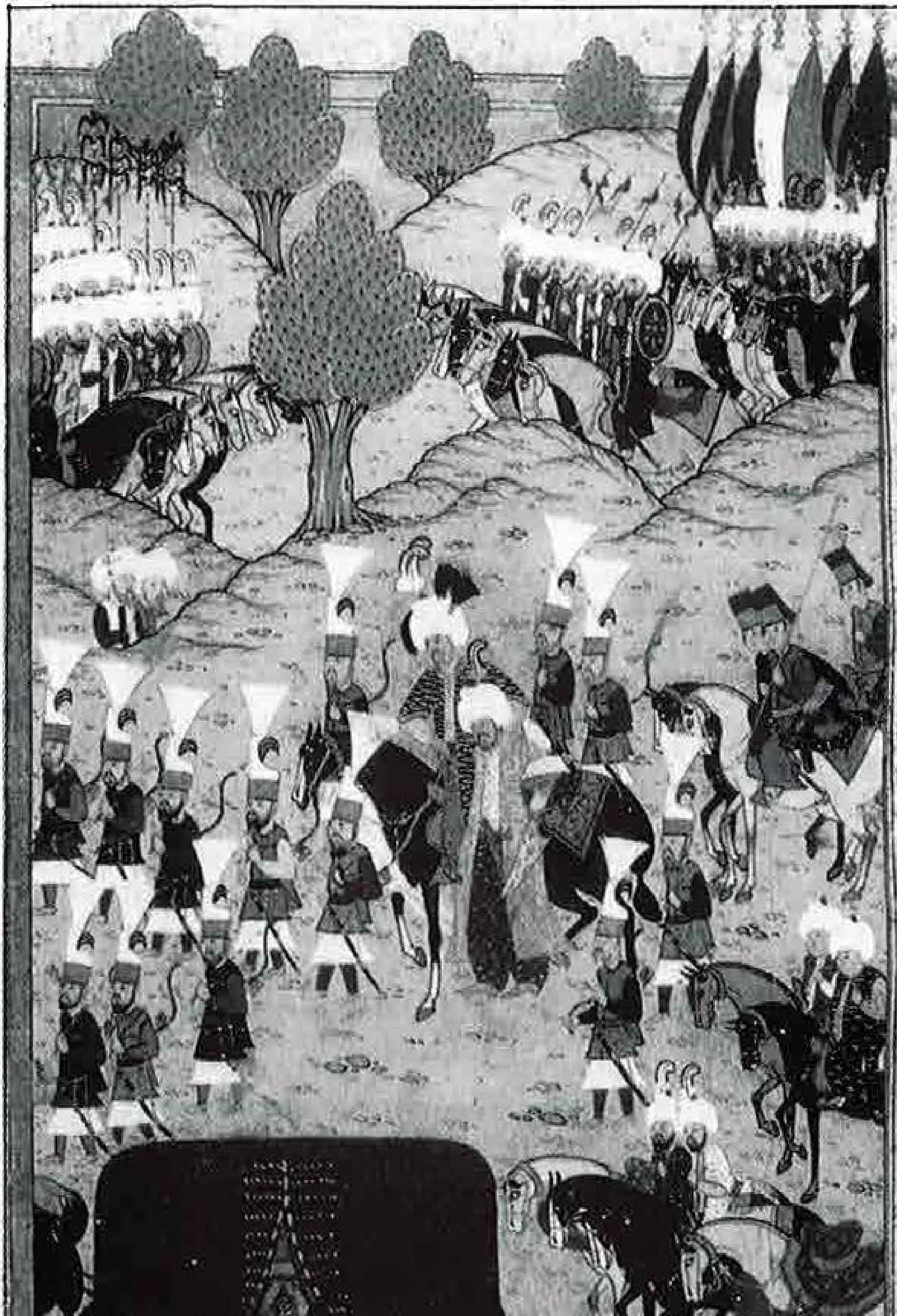
والواقع ان الحكم العثماني بالرغم من جميع ما يقال عنه قد استطاع حماية العالم العربي من الاستعمار الغربي ومن التفكك ، وساعد أيضا على ترابط الشعوب العربية ، حيث كانت الزيارات العلمية على أشدها بين علماء المشرق والمغرب العربيين ،

ولا أدل على ذلك مما رأيناه بعد سقوط الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى كيف سيطرت الدول الغربية الاستعمارية على دول العالم العربي ومزقته أقطاراً وما زالت تعاني شعوبه إلى هذا اليوم من فوضى التجزئة والتقسيم .

د. فؤاد شهاب
جامعة البحرين

*****

● نهاية المسيرة كانت سنة ١٥٦٦ في زجبار المجرية حيث توفي السلطان سليمان الكبير في ميدان القتال وفي خيمته. وقبل ان يتلقى الخبر بانتصار جيوشه الكاسح. وقد احيط نبأ وفاته بالكتمان حتى يتمكن ابنه وولي عهده سليم الثاني من التربع على سدة السلطة.



الهوامش

(١) لمزيد من التفاصيل انظر :

Gibbons, Herbert Adamms, "Foundation of the Ottoman Empire:A Histoory of the Osmamlis up to the death of Bayezid I, 1300-1403"

(٢) انظر احمد عبدالرحيم مصطفى «في أصول التاريخ العثماني» ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ص ١١١ ـ ١٨ . تفيد معظم اللدراسات التاريخية التي تناولت نشاة الامبراطورية العثمانية إلى ان الجنس العثماني والذي تشكل من جنسيات كثيرة «صرب ، ويونان ، وإيطاليون ، والبانيون ، ووروس ، ومجريون ، وأرمن وعرب ومغول وفرس يعتبر من اغنى شعوب العالم في الدم ويشبهونه با لولايات المتحدة وكندا في العصر الحديث . وذلك بسبب التسامح الديني والعرقي الذي عرفت به الدولة العثمانية قبل سقوط القسطنطينية .

(٣) احتل العثمانيون بورصة في عام ١٣٢٦ ، ونيقية في عام ١٣٣١ وباحتلالهم امارة قرة صي في عام ١٣٤٧ ، أصبحوا سادة المنطقة المواجهة لأوروبا . وكان كل انتصار للعثمانيين يأتي إلى صفوفهم بغزاة آخرين . وقد ترتب على ذلك ازدياد الامكانات العسكرية لامارتهم بأكثر مما تتحمله مواردها أو مساحتها ، وتحتم عليها الغزو لاشغال الغزاة . ولما كان مجال ذلك قد أصبح صعبا في الأناضول ، لوقوع معظم المناطق في ايدي امراء الغزاة الآخرين ، ولتعزيز البيزنطيين الدفاع عن الرقعة الصغيرة التي بقيت لهم فيه ، لذلك تطلعت امارة العثمانيين إلى التوسع في أوروبا .

لمزيد من التفصيل انظر د. عبدالكريم رافق «العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦» ، دمشق ١٩٧٤ ، الطبعة الأولى ، من ص ٣٤ ـ ٣٨ .

INALCIK H., "The Emergence of the Ottomans", The Cambridge History of Islam", 2 Vols., edited by P.M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970. Vol I 263-291.

(٤) يرجع بعض من المؤرخين علاقة الود والمجاملة إلى الأسباب التالية :

أ ـ ان حدود البلدين كانت بعيدة كل منهما عن الأخرى فلم تنشب نتيجة

لذلك المشاكل الحدودية .
ب ـ ان الدولة العثمانية وحتى سقوط القسطنطينية في عام ١٤٥٣ كانت تعترف بالريادة للدولة المملوكية .
جـ ـ تركيز الجهود العثمانية يومذاك على محاربة القوى المسيحية وخاصة البيزنطيين .
(٥) محمد أنيس ، «الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ ـ ١٩١٤» ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ـ ١٩٩٠ ص ١٠٢ .
(٦) يشبه شيخ المؤرخين المعاصرين أرنولد توينبي الخطر الصفوي على الدولة العثمانية بخطر تيمور لنك الذي انتصر على العثمانيين في عام ١٤٠٢ في معركة انقرة .. وكانت هذه الهزيمة هي الهزيمة الوحيدة للعثمانيين في ثلاثة قرون متتالية .
أرنولد توينبي ، «تاريخ البشرية» ، الجزء الثاني ، نقله إلى العربية الدكتور نقولا زيادة ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٨ ، ص ١٨٤ .
(٧) الشيخ صفي الدين اسحق (١٢٥٢ ـ ١٣٣٤) من أردبيل في أذربيجان هو الجد الأول للأسرة الصفوية . وقد أسس طريقة صوفية أول من اتبعها هو حفيده الخواجة علي . أما أول من عنى بالسياسة والحرب من هذه الأسرة فهو الشيخ جنيد (جد الشاه اسماعيل) وقد تزوج الشيخ جنيد امرأة تركمانية من خلفاء تيمور في أذربيجان وديار بكر . وبعد تولي الشاه اسماعيل حكم فارس فرض الشيعة على أهاليها الذين قبلوها بسهولة مع انهم إلى أيامه كانوا سنة .
إنظر : حول جذور الصراع الصفوي العثماني ، محمد عبداللطيف هريدي ، «الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الاسلامي عن أوروبا» ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ .
(٨) بدر الدين عباس الخصوصي ، «الدولة الصفوية في مواجهة التحديات» ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٤٤ ، ص ١٤٥ .
(٩) محمد أنيس ، المرجع السابق ص ١٠٦ .
(١٠) لمزيد من التفاصيل حول الصراع العثماني الصفوي انظر :
عمر عبدالعزيز عمر ، «تاريخ المشرق العربي ١٥١٦ ـ ١٩٢٢» ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت من ص ٦٥ ـ ٧٢ ، عبدالعزيز سليمان نوار ، «الشعوب الاسلامية» دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٧٣ ص ص ١٣٩ ـ ١٥٠ ، إبراهيم أحمد العدوي ، «نهر التاريخ الاسلامي .. منابعه العليا وفروعه العظمى ، دار الفكر العربي ١٩٨٩ ص ٤٦٦ .
(١١) سيّار الجميل ، «العثمانيون وتكوين العرب الحديث ، من أجل بحث رؤيوي

معاصر» ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ١٩٨٩ ، الطبعة الأولى ، ص ٣٣٥ .

(١٢) محمد انيس ، «الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ ـ ١٩١٤) ، المرجع السابق ص ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(١٣) عبدالكريم رافق ، المرجع السابق ص ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(١٤) مما هو جدير بالذكر هنا ، ان الشاه اسماعيل الصفوي لم يقد جيشه إلى أية معركة طوال العشر السنوات التي أعقبت جالديران ، بل انصرف إلى الصيد أو إلى الخمرة لتبديد حزنه .

(١٥) يرى بعض من المؤرخين ان مساعدة العثمانيين للمماليك أثناء صراعهم مع البرتغاليين نابعة من رغبة العثمانيين في حماية مؤخرتهم في البلاد العربية من الخطر البرتغالي ، الذي كان يهدد استراتيجيتهم الشرقية وكذلك زعامتهم المنتظرة للعالم الاسلامي . بالاضافة طبعا إلى ان العثمانيين بصفتهم غزاة يقاتلون أعداء الدين ، كان عليهم مقاومة البرتغاليين وحماية الأماكن المقدسة في الحجاز .

انظر عبدالكريم رافق ، «العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦» المرجع السابق ص ٦٠ .

(١٦) نيقولاي ايفانوف ، «الفتح العثماني للاقطار العربية ١٥١٦ ـ ١٥٧٤» ، نقله إلى العربية يوسف عطا الله ، راجعه وقدم له مسعود ضاهر ، الفارابي ، ١٩٨٨ ص ٥٥ .

(١٧) سميت هذه الامارة «بالبستان» نسبة إلى عاصمتها ، وسميت أيضا بامارة ذي القدرة ، او القدرية ، نسبة إلى اسرة تركمانية حكمتها في الفترة بين ١٣٥٣ ـ ١٥٢٢ ، حين احتلها العثمانيون .

(١٨) محمد انيس ، «الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ ـ ١٩١٤)» ، المرجع السابق ص ١٠٩

(١٩) عبدالكريم رافق ، «العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦» ، المرجع السابق ص ٥٩ .

لمزيد من التفصيل حول صراع السلطان بايزيد وأخيه الأمير جيم انظر : محمد فريد بك المحامي ، «تاريخ الدولة العلية العثمانية» ، تحقيق احسان حقي ، دار النفائس ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ ، ص ص ١٧٩ ـ ١٨٢ .

(٢٠) محمد أنيس ، المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٢١) عمر عبدالعزيز عمر ، «تاريخ المشرق العربي ١٥١٦ ـ ١٩٢٢» ، المرجع السابق ص ٧٣ .

(٢٢) نيقولاي ايفانوف ، المرجع السابق ص ص ٦٠ ـ ٦١ .

(٢٣) نفس المرجع السابق ص ٦١ .

(٢٤) يعزو بعض من المؤرخين توجه السلطان سليم الأول إلى مصر ، لتلبية العثمانيين لنداء الواجب والذي يتلخص في الدفاع عن الأقاليم الاسلامية ضد الهجمات والأخطار الخارجية . لقناعتهم بأنهم أقدر من الدولة المملوكية في الدفاع عن المنطقة وتوحيدها في صف واحد . ولذا لم يترددوا في استخدام السيف لتوحيد الشرق الأدنى العربي بأقاليمه في دولة واحدة .

(٢٥) رحب الخليفة المتوكل سليل العباسيين بحرارة بدخول سليم الأول إلى حلب ورأى فيه حاميا جديدا للاسلام . وقدم المتوكل الذخيرة المقدسة للبيت العباسي التي تضم عباءة وبضع شعرات من لحية النبي (ص) مع سيف الخليفة الثاني عمر لسليم اعترافاً منه بالجميل .

(٢٦) محمد فريد بك المحامي ، «تاريخ الدولة العلية العثمانية» ، المرجع السابق ص ١٩٣ .

سيار الجميل ، «العثمانيون وتكوين العرب الحديث» ، المرجع السابق ص ٣٦٣ .

(٢٧) محمد انيس ، المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٢٨) ليلى الصباغ ، «الغزو البرتغالي والدولة العثمانية» ، بحث مقدم إلى ندوة «مكانة الخليج العربي في التاريخ الاسلامي» ، جامعة الامارات العربية المتحدة ـ العين ٢٦ ـ ٢٨ فبراير ١٩٩٠م ، ص ١٩ .

(٢٩) يقال بأن السلطان العثماني سليم الأول بعد جالديران أمر اميراله بيري باشا ببناء أسطول قوي مكون من مائة وخمسين سفينة بأحجام مختلفة إلى جانب مائة سفينة صغيرة . وكذلك أمر بنقل ترسانة السفن من «غاليبولي» إلى «القسطنطينية» ، حيث امكانية انشاء سفن أكبر من السفن السابقة . ويرجع سبب ذلك كما تروى القصة إلى ان السلطان سليم بعد ليلة من القلق ، أحضر بيري باشا وقال له : «إذا كان هؤلاء الأفاعي (ويقصد الفرنج) يملأون البحر سفنا ، وإذا كانت سفن البندقية ، والبابا ، وملوك الفرنجة ، هي المسيطرة على البحر المتوسط ، فذلك يرجع إلى كسلك وتهاونك ، وإلى تسامحي ، أريد أسطولا قويا عديد السفن .

ليلى الصباغ ، «الغزو البرتغالي والدولة العثمانية» ، المرجع السابق ص ٢٧ .

(٣٠) جمال زكريا قاسم ، «الخليج العربي في مواجهة البرتغاليين في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي» ، بحث مقدم إلى ندوة «مكانة الخليج العربي في التاريخ الاسلامي» ، جامعة الامارات العربية المتحدة ـ العين ٢٦ ـ ٢٨ فبراير ١٩٩٠م ، ص ٨ .

انظر أيضا : ليلى الصباغ ، المرجع السابق ص ٢٤ .

(٣١) عمر عبدالعزيز عمر ، المرجع السابق ص ٩٨ .

(٣٢) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ص ٧ .
(٣٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى ، المرجع السابق ص ٨٩ .
(٣٤) نفس المرجع السابق ، ص ٩٠ .
(٣٥) نفس المرجع السابق ، ص ٩٠ .
(٣٦) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ص٩٠ .
(٣٧) محمد عيسى صالحية ، «التدخل العثماني في اليمن» ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ـ العدد ٢٤ اكتوبر ١٩٨٠ ، ص ٩٧ .
(٣٨) صالح رمضان محمود ، «الصراع البرتغالي في اليمن ، ١٥١٧ ـ ١٥٣٨» ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية . العدد ٤٧ يوليو ١٩٨٦ . ص ١٤٥ .
(٣٩) انظر : R. MANTRAN, North Africa In the Sixteenth and Seventeenth Centuries" Cambridge.
(٤٠) عبدالعزيز سليمان نوار ، «الشعوب الاسلامية» ، المرجع السابق ١٠٤ .
(٤١) نيقولاي ايفانوف ، المرجع السابق ص ٩٧ .
هناك اختلاف حول أصل عروج وأخيه ، فمن قائل بأن والدهما كان نحاتا تركيا ، ومن قائل بأنه كان خزافا يونانيا .
(٤٢) عبدالكريم رافق ، المرجع السابق ص ص ٧٦ ـ ٧٧ .
(٤٣) نيقولاي ايفانوف ، المرجع السابق ص ١٠٥ .
(٤٤) عبدالعزيز سليمان نوار ، المرجع السابق ص ص ١١٩ ـ ١٢٣ .
لمزيد من التفاصيل حول التدخل العثماني في الجزائر انظر :
H. de GRAMMONT, Histoire d'Alger Sous La Domination Turque (1516-1830)", Paris 1887.
(٤٥) عبدالعزيز سليمان نوار ، المرجع السابق ص ١٢٤ .
(٤٦) محمد انيس ، المرجع السابق ص ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .
(٤٧) نفس المرجع السابق .
(٤٨) عمر عبدالعزيز عمر ، المرجع السابق ص ٩٢ ـ ٩٣ .
(٤٩) محمد انيس ، المرجع السابق ص ١٣٧ .
(٥٠) عندما اعتلى السلطان سليم الأول كرسي الحكم ، كانت ظروف الدولة العثمانية تتطلب رجلاً قوياً قادراً على إدارة الدولة بطريقة تتناسب والتحديات التي كانت تواجهها بعد فترة حكم لسلفه بايزيد دامت ثلاثين عاما .
(٥١) سيار الجميل ، «العثمانيون وتكوين العرب الحديث» ، المرجع السابق ص ٣٣٠ .
(٥٢) نفس المرجع السابق ، ص ٣٣٠ .

البحرين كما يراها الرحالة العرب

اعداد : د. علي أبا حسين



● مسجد الخميس



● رأس الثور... من آثار دلمون

لوروويسو فارتيما : الرحالة الايطالي الذي كتب اسفاره الى هرمز ومسقط وقال ان هرمز تستورد كميات كبيرة من اللؤلؤ من البحرين وذلك لانه أحسن اللؤلؤ واستمرت رحلاته من ١٥٠٣ – ١٥٠٨م وارفق اسفاره بخريطة نشرت ضمن كتابه المسمى (رحلات فارتيما) المترجم للانجليزية من الايطالية.

فهرانهو لوبز دى كاستانيدا وقد كتب كتابا بعنوان (تاريخ اكتشاف البرتغاليين طريق الهند) وفيه وصف البحرين وحملة بيرو عليها ١٥١٤م والتي تبعد نحو مائتى ميل عن هرمز والبحرين جزيرة كبيرة غنية بالمياه العذبة والخضراوات والأشجار ويسكنها قبائل عربية.. وحول جزيرة البحرين يكثر الجوهر واللؤلؤ والأسماك ويبيع سكانها اللؤلؤ على التجار فتدر عليهم أرباحا طائلة وكان اللورد الذي لم يذكر اسمه كملك أو أمير أو شيخ البحرين وقتئذ يأخذ ضرائب على التجار الذين يبيعون اللؤلؤ(١)

باربوسا البرتغالي والذى كتب عن موانىء البحر الاحمر والخليج العربي كهرمز وقريات ومسقط وجلفار حيث أشار الى رأس الخيمة بالاسم في كتابه الذي انهاه عام ١٥١٦م أما ما كتبه عن البحرين فلم يكن دقيقا لا في وصفها ولا في موقعها الجغرافي اذ جعلها على الساحل الشرقي للخليج العربي ومثل ذلك ما كتبه عن الاحساء. ولكنه سمى البحرين بجزيرة (باريم) ويسكن فيها تجار كبار واشخاص كرماء وموقعها في الخليج موقع حيوى وتتوجه اليها السفن الكثيرة تحمل البضائع المتنوعة وتوجد فيها اللآلىء الكبيرة والصغيرة وهي من احسن الأنواع.

أما الرحالة (بيريز) المتوفى عام ١٥٤٠م فقد وصف البحرين بقوله : ان الجزيرة الرئيسية في الخليج هي (البحرين) وتمتاز بتوفر أفضل أنواع اللؤلؤ فيها حيث ليس له وجود في مناطق أخرى غيرها ويشكل جزءاً مهما من تجارة هرمز ذلك لأن هذا النوع من اللؤلؤ يمتاز بأنه انصع بياضا واكثر استدارة من غيره.(٢)

أما الرحالة (يان هيوجن فان لنشوتن) الهولندي الأصل فقد وصف الخليج العربي ١٥٩٨م وحين ذكر الناس في هرمز قال انهم يأتون بالماء من بحر البحرين عن طريق مكائن عميقة يخرج الماء العذب من تحت الماء المالح للبحر ويصلح للشرب لأنه من أحسن الأنواع. وليس هناك مكان أحسن من البحرين لصيد اللؤلؤ وفيها الذهب والفضة والمعادن الأخرى وملك جزيرة البحرين يحافظ على هذه الثروة تحت الأرض ولا يسمح بتنقيب الأرض لاستخراجها ولقد كان لوصف (هيوجن) لموانىء الخليج وغيرها اثر في تمكين القوى الاجنبية من معرفة فساد الاستعمار البرتغالي مستغلة ذلك للقضاء على البرتغاليين في الخليج والشرق الاقصى (٣) ومن كُتّاب الرحلات البرتغاليين

(بيدرو تكسيرا) الذي كتب عن البحرين في مستهل القرن السابع عشر.

وقد كتب الرحالة البرتغالي (بيدرو تكسيرا) في أسفاره التى بدأت في ٩ فبراير ١٦٠٤م من (جوا) الى هرمز ومنها الى البصرة مارا بالبحرين فقال : تشتهر جزيرة البحرين بلآلئها كما وكيفا وهذا موضوع اذكره باختصار لانه معروف عامة. توجد في الشرق مغاصتان كبيرتان احداهما في البحرين في الخليج والثانية في (مانار) بالقرب من سيلان.

ويبتدىء موسم صيد اللؤلؤ في البحرين في شهر يونيو أو في يوليو عادة ويستمر الى اغسطس ويتكون الاسطول من ٢٠٠ سفينة (من نوع طرادة) ١٠٠ منها للبحرين و٥٠ لجلفار و٥٠ من نخيلو، وتمتاز «لآلىء البحرين» وتفوق جميع الانواع الأخرى من حيث المواصفات والوزن. اذا قارنا لؤلؤتين احداهما بحرينية وثانيتهما أخرى من نفس الحجم فتتفوق لؤلؤة البحرين وزنا. ان قيمة اللؤلؤ سنويا في اللآلىء الصغيرة والعادية تبلغ ٥٠,٠٠٠ دوكات دون أن يؤخذ في الاعتبار قيمة اللآلىء المهربة وهي حوالى ١٠٠,٠٠٠ دوكات لأن التهريب يتم خوفا من مصادرة المندوب البرتغالي في البحرين، وتستخدم معدلات القيراط او قيلات أو عبس (٣ عبسات تساوى قيراطا واحدا) والمثقال (ويساوى المثقال ٢٤ قيراطا أو ٧٣ جراما تقريبا) ويتم تصنيف اللآلىء الصغيرة على أساس ٢٠ أو ٣٠ أو ٤٠ لكل مثقال. يغوص الغواصون البحرينيون الى عمق ١٢ أو ١٥ غورا (والغور) يساوى عمق ٦ أقدام واشار المحقق في الهامش قوله : وتمتد (جزيرة البحرين) الى ٣٠ ميلا طولا و٩ أميال عرضا وطبقا لتقرير ورد من الهند يمتد موسم الصيد من يونيو الى أكتوبر وان شواطىء البحرين تجرى الى ٤ أو ٥ اغوار اي ما بين ٢٤ - ٣٠ قدما وانها من أغنى السواحل ومؤكدة من حيث الانتاج.

وأورد الرحالة (جون ببتسته تيرنيه) في رحلته التى قام بها عام ١٦٤٣ - ١٦٤٤م عن البحرين قوله : وتوجد في الخليج العربي جزر عديدة أهمها جزيرة البحرين حيث يمارس الناس صيد اللؤلؤ في مغاصاتها. كما توجد قلعة متينة فيها ويحرسها حرس يبلغ عددهم نحو ثلاثمائة نسمة وفي البحرين ماء عذب لكنه يكلف كثيرا(٤).

وفي كتاب مخطوط بعنوان (الرحلات في تركيا وايران) لمؤلفه (جين اوتر) الذي كان قنصلا في البصرة سنة ١٧٤٠م والذي جاء فيه : ان الهولة والعتوب انئذ تمردوا ضد طهماسب خان وهنا أقدم اشارة (للعتوب) في كتاب مطبوع في أوربا ١٧٤٠م ويشمل المخطوط اشارة أخرى للعتوب في ص٥٦ و٥٨ من اوتر الى وزير الخارجية الفرنسي بتاريخ ١٦ يوليو ١٧٤٠م قبل الحركة المذكورة قوله : اذا استطاع اسطول طهماسب

مواجهة الهولة والعتوب الذين فرضوا الهزيمة على اسطوله وحجزوا عددا من سفنه وانهم حرروا البحرين[٥].

وكتب (كوبمان) في رسالة مؤرخة في ١٥/١٠/١٦٩٠م قوله سافرت الى (البحرين) في ١٩ يوليو في مركب صغير استأجرته لمدة شهرين لاختبر صيد اللؤلؤ نيابة عن الشركة واتخذ اجراءات أخرى لازمة في البحرين في مجال تجارة اللؤلؤ. يتضمن هذا التقرير نتيجة اختباراتي في الموضوع. أود أن أقول في البداية بأن اللؤلؤ هناك يقسم الى ٣ أنواع واسماؤها كبيسة وبارجة وبي ويتضح هذا من العينات المرفقة من اللآلىء التى تم صيدها. تباع الكبيسة بأوزان أقل بمقدار ٣,٥ حبة لأن العرب يعتبرون نصف أونس وزنا ثقيلا وأسعارها تتراوح بين ١٣٠ أو ١٤٠ أو ١٥٠ محمديا حسب اللون الأصفر فيها أو سوادها أو استدارة شكلها. وتباع البارجة بنفس الأوزان لـ ٦٠ أو ٧٠ محمديا لنفس الاعتبارات وتباع بي بواقع ١٦ أو ١٧ محمديا لنفس الأوزان وبالنسبة للكبيسة يجب الملاحظة أن الأسعار المذكورة لا تشمل اللآلىء الدائرية منها ووزنها ٢,٥ حبة أو اكثر ويتم كيلها وتقدير ثمنها منفردة. ويستخدم ٢٤ معيارا لتصنيف اللآلىء حسب أنواعها الثلاثة.

ووصف (اباكارى) في اسفاره للخليج العربي خلال الأعوام من ١٦٧٢م - ١٦٧٤م فقال بأن البحرين تتعرض لغزاة يقودون سفنا مسلحة ويتصرفون كأنهم أصحاب مغاصات اللؤلؤ[٦].

وفي رحلة بحرية في الخليج العربي قام الملازم (وليام هويدى) عام ١٨١٧م بوصف جزيرة البحرين الذي قال انها تشتهر بمغاصات اللؤلؤ حولها وبعيون المياه العذبة التى تنبثق من قاع البحر فيخرج الغواصون الماء العذب منها ولا نعرف كثيرا عن صناعة اللؤلؤ ولكن شاهدنا عددا كبيرا من أنواع مختلفة من اللؤلؤ البحريني الذي هو أحسن شكلا من لآلىء سيلان لكنها تفقد لونها وبريقها بعد ثلاثين عاما من استخراجها ويبدو ان هذه الملاحظة مجرد وهم اذ أن اللؤلؤ يبقى محافظا على بريقه ولونه بعد مرور ثلاثين عاما[٧].

وجاء في تقرير مؤرخ في عام ١٨٠٢م ان قيمة انتاج اللؤلؤ في البحرين تصل الى خمسمائة ألف روبية مما اكسب العتوب في البحرين قوة كافية وذلك في عهد الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة الذي فتح البحرين فلقب بأحمد الفاتح[٨].

وجدير بالذكر فان (فالانتاين) قد كتب تقريرا وافيا أشار فيه الى ما كتبه الغربيون عن أماكن صيد اللؤلؤ وان صيادى اللؤلؤ يدفعون لشيخ البحرين ضريبة مقابل تأمين سلامتهم في مواضع الصيد فقال : ان الاشارات الأولى لدور الانجليز في الخليج العربي تبدأ حين عاد احد البريطانيين واسمه (رالف فتش) وزملاؤه الى بريطانيا

وقصوا على السلطات هناك عن الثروات الطائلة التى بالامكان جمعها عن طريق التجارة والتى شاهدوها في رحلاتهم حتى اقتنع الانجليز بانشاء شركة ايست انديا (شركة الهند الشرقية) في عام ١٦٠٠ فوضعت بريطانيا لها موطىء قدم في الخليج العربي تحت ستار من التجارة وساعدهم شاه ايران مقابل مساعدتهم له ضد البرتغاليين.

وقد وصف الرحالة (رالف فتش) البحرين ولآلئها الكروية والتى رآها تصدر الى اسواق هرمز وهي أجود أنواع اللآلىء.

أما (شاردن) مبعوث الحكومة الفرنسية لدى ايران بين ١٦٧١ - ١٦٧٧م فكتب في مذكراته قوله : (توجد مصائد اللؤلؤ عبر شواطىء الخليج العربي وخاصة حول جزيرة البحرين) و (تافر نيير) الفرنسي هو الآخر عقد فصلا في كتابه عن اللآلىء وأماكن وجودها قال فيه توجد مصائد اللؤلؤ بالدرجة الاولى حول جزر البحرين.

وفي ١٧٦١م رحلت سفينة تقل خمسة متخصصين في فروع علمية منهم الجراح والنباتي وعالم باللغات وفنان ومهندس منهم (كارستين نيبور) الذي وصف موانىء الخليج العربي ورسم خريطته في ١٧٦٥م والتى أورد فيها البحرين وقطر وفريحة ولكن لم يذكر الزبارة في قطر وهذا دليل على انها لم تنشأ بعد اذ ان تأسيسها كان في ١٧٦٦م على يد الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة.

واضاف ان للمتولى على البحرين قوة عسكرية تحافظ على الأمن في مغاصات اللؤلؤ وتدفع له الرسوم.

ووصف الرحالة (نيبور) ١٧٦٥م جزيرة أوال وما حولها من الجزر والتى تقع في الجهة الغربية من الخليج العربي وأكبرها جزيرة أوال وكذلك تحمل كل جزيرة أسما خاصا بها ونظرا لأهمية هذه الجزر من حيث صيد اللؤلؤ فقد درت عليها الأموال الطائلة وتقدر الرسوم التى جبيت على اللؤلؤ والتمور نحو ثلاثمائة ألف ليفر فرنسي أو ما يعادل مائة ألف روبية هندية وكان المتولى على البحرين هو الذي تدفع له الرسوم المذكورة وله قوة عسكرية يحافظ بها على الأمن في مناطق الغوص وفي بلاده وهذه الرسوم لتسديد نفقات المحافظة على الأمن. وكتب (رينال) بعد سنتين من رحلة نيبور ١٧٦٧م ان البحرين تشتهر بلآلئها وهي اكثر شهرة وأهمية من السواحل الأخرى في الخليج تلك التي قلت فيها اللآلىء بينما البحرين غنية بها ويمارس العرب هذه المهنة ويؤدون رسوما الى شيخهم في جزيرة البحرين الذي يملك أسطولا حربيا يقوم بدوريات بحرية فى شواطىء الغوص على اللؤلؤ(٩).

وقال (رينال) في عام ١٧٦٧م ان سفن الغوص تدفع لشيخ البحرين رسوما وذلك لأن له أسطولا عسكريا يدافع عنهم في مغاصاتهم.

بينما ذكر المقيم (بروس) في الخليج

١٨٠٤ – ١٨٢٢م ان حاكم البحرين يأخذ على كل سفينة ريالا واحدا اتباعا للعرف وان له سبع سفن حربية تحميهم وترافقهم.

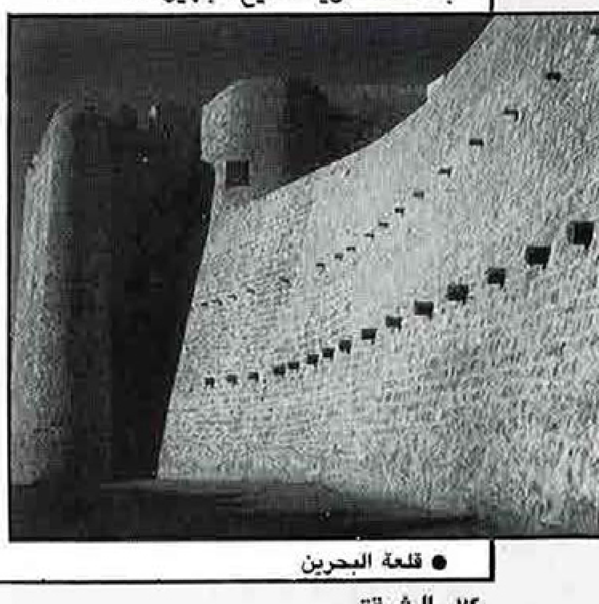
أما (ديوراند) فأورد في عام ١٨١٦م ان شيخ البحرين يفرض ضريبة وله أربع سفن حربية مسلحة وله سهم من الغوص وكتب (ولسن) المقيم بالخليج ١٨٢٧ – ١٨٣١م ان عدد سفن غوص البحرين ١٥٠٠ سفينة وهم يدفعون عن كل سفينة ٥ كراون لشيخ البحرين.

وذكر القبطان (بروكس) ١٨٠٠ – ١٨٢٩م ان ٣٠ ألف مستخدم في الغوص للبحرين وهم يعملون على ٢٤٣٠ سفينة وفي كل سفينة ٨ – ٢٠ شخصا ويدفعون ضريبة مقابل الدفاع عنها ولشيخ البحرين ٥ سفن حربية مجهزة بالاسلحة ويستطيع تجهيز ١٥ – ٢٠ سفينة حربية أخرى.

وفي مذكرات كامبل المقيم المساعد في الخليج ١٨٤٤م قوله ان : لشيخ البحرين اسطولا حربيا لحماية الغوص ثم أخذت بريطانيا على عاتقها حماية الغوص مع الاعتراف بحق شيخ البحرين حسب العرف والعادة.

وفي (رحلات الى مدينة الخلفاء عبر الخليج العربي والبحر المتوسط) عام ١٨٤٠م للرحالة (وليستد) يقول (ولسن) بأن سكان البحرين





● قلعة البحرين



● خريطة تظهر فيها البحرين ويعود تاريخها الى القرن السابع عشر الميلادي.

يستخدمون سفنهم في مغاصات اللؤلؤ الواقعة بين البحرين والقطيف وتعود السفن لموانيها حيث يتم فيها فتح المحار وينشط الغوص في موسم الصيف في يوليو واغسطس وحتى منتصف سبتمبر ويأخذ شيخ البحرين ضريبة تتراوح بين ٣ - ٥ دولارات على كل سفينة حسب حجمها وبلغت حصيلة موسم هذا العام حوالي اربعة ملايين دولار. ويستطرد (ولسن) فيصف البحرين حين مروره بها فيقول : تكسوها الخضرة أكثر من اى مكان في الخليج. واسم خليج البحرين يطلق على الجزء المقابل لجزيرة البحرين والذي سماه بطلميوس (تيارا) ودعاه (سترابو) تيارا وعند البرتغاليين (بحاريم) وتزداد اهمية البحرين بمرور الزمن لخصوبة تربتها ووفرة مياهها العذبة ومحاصيلها المتنوعة وموانيها الرائعة ويقول انني معجب بالبرتغاليين حين اختاروا البحرين وهرمز كأماكن هامة

لهم ومن الضروري للانجليز ان يهتموا بهذه الأماكن في مياه الخليج. في البحرين نحو خمسة آلاف نسمة ومصدر رزقهم اللؤلؤ حيث تزاول البحرين نشاطا تجاريا مكثفا مع الموانىء الاخرى في الخليج بصورة خاصة. ومركزها (المنامة) في الركن الشمالي للجزيرة وهي مدينة رئيسية طولها حوالى عشرين ميلا وعرضها ضيق وفيها مرتفعات في الوسط. وفي حالة المد يغطي ماء البحر العيون العذبة بارتفاع ١٢ قدما(١٠).

وفي عام ١٨١٩م قام الكابتن (ج فورستر سادلير) برحلة عبر الجزيرة العربية من القطيف على الخليج العربي الى ينبع على البحر الاحمر وفيها ذكر عن عتوب البحرين والكويت وذكر طرفا عن انساب بعض القبائل العربية.

أما (جيمس هورسبرغ) المتخصص في علوم البحار فقد كتب في (مرشد السفن للاسفار من والى جزر الهند الشرقية) عن البحرين وذكر ان (تانير) قد زار البحرين عام ١٨١٧م في طراد يسمى (سائك) وفيما يلي وصفه للبحرين:

خرجنا من ساحل بردستان باتجاه الجنوب حتى وصلنا الى خط العرض ٢٧ درجة شمالا. وهنا يجب الحذر من الصخور والألوان المتغيرة للماء التى يمكن مشاهدتها من بعيد واذا سرنا في الاتجاه المختار بدقة نصل الى مغاصات البحرين في حوالي ٢٦ درجة و٥٠ دقيقة شمالا في خط العرض ومن هنا تبتدىء مياه ضحلة تتراوح أعماقها من ١٥٠ قدما الى ١٨٠ قدما وأحيانا الى ٨٤ قدما ثم الى ٦٠ قدما وقاعها رملي.

وان كانت الرياح مناسبة أو كان السفر في ساعات الليل فيجب سبر الاعماق بدقة وأن تكون على أهبة الاستعداد لألقاء المرساة اذا وجدت العمق غير كاف واقل من العمق المتوقع وتتغير الاغوار جنوبا من ٥٤ قدما الى ٤٨ قدما وتهبط أحيانا من ٥٧ قدما الى ٤٢ قدما. ولابد من العناية بتيارات المد والجزر لانها تكون قوية خاصة وأنت تقترب من جزر البحرين واتجاهها شرق جنوب الشرق وغرب شمال الغرب.

وان كانت الرياح معاكسة للسير تختار الاتجاه بين ٤٥ ٥٠° و٥ ٥١° شرقا لسلامته لانه توجد أخطار خارج هذه الحدود على الجانبين ولا يعرف عنها الملاحون الغربيون شيئا.. وعندما تصل الى خط العرض ٣٠ ٢٦° أو ٢٨ ٢٦° شمالا يمكنك ان تشاهد الاشجار على جزيرة عراد وتسمى هذه المنطقة (النتوء الصخرى) وهي في الجنوب الغربي وعلى بعد حوالى ٣ أو ٤ فراسخ على اختلاف اغوارها من ٤٨ قدما الى ٣٢ قدما. وان كنت تقصد المرسى في الشمال الغربي فعليك ان تختار محلا في غرب عراد وان كنت تقصد موضعا في الجنوب الشرقي فعليك ان تختار محلا في جنوبها. أن جزيرة البحرين أعلى ارتفاعا من عراد.

جزيرة عراد

تمتد الجزيرة باتجاه شمالي جنوبي وتحيط بها صخور القليعة والصخور الأخرى التى تمتد في بعض الأحيان الى ٤ أو ٥ أميال في اتجاه الشمال الغربي من (البروز الصخرى).

ان المرسى في الجنوب الشرقي يقع في الجانب العكسي للجزر ما بين (الديبل) و (فشت القليعة) وموضعه في خط العرض ١١ ٢٦° شمالا أو ١٢ ٢٦° شمالا وانه مأمون من الرياح من جميع الجهات بسبب تواجد الصخور حوله وهو موقع مثالي للجوء اليه ان كانت تقصد أية سفينة الوقوف هنا لاكثر من ٣ أيام لكنه صعب المنال نسبيا من المرسى الآخر (أى في شمال غرب) والممر المائى المؤدى اليه بسلام معقد ولا يمكن الدخول اليه دون مرشد وتتوفر خدمات المرشدين دائما ويأتى المرشد فور اعطاء الاشارة ليقود السفينة الى المرسى أو يأتى الاشخاص من زوارق صيد اللؤلؤ ويعرضون خدماتهم لارشاد السفينة مقابل بضع روبيات.

وفي ٢١ أغسطس ١٨٢٩م قام القبطان (جورج بارنز بروكس) وهو يعمل في البحرية الهندية برحلة بحرية في الخليج العربي وكتب تقريرا جاء فيه (ان سلطة حاكم البحرين معترف بها من (راس ركن) الى (البدع) جنوبا وتمتد على جزر (حوار) غربا بالاضافة الى جميع المدن وموانىء الساحل الغربي لقطر واليك مقتطفات من تقريره:

الفويرط: انها مدينة صغيرة يسكنها حوالى ١٥٠ نسمة من البوكواره والعتوب وهم من رعايا البحرين.. وتوجد فيها بعض المواشى والمياه وتتخللها بعض التلال.

رويس: مدينة صغيرة شبه مدمرة يبلغ عدد السكان حوالى ١٠٠ نسمة من البوكواره والعتوب وهم من رعايا البحرين ومعظمهم يشتغلون بصيد السمك.

راس ركن: جزيرة صغيرة واطئة وسلطة حاكم البحرين معترف بها من النقطه (المذكوره) اي من راس ركن الى البدعه جنوبا وعلى جزر حوار غربا.

ابو الظلوف: تقع مقابل راس ركن وتخضع للبحرين ويسكنها حوالى ٥٠ نسمة من البوكواره ومعظمهم سماكون.

يوسفيه: قرية صغيرة وفيها قلعة تخص البحرين. ويبلغ عدد السكان فيها حوالى ٥٠ نسمة وكلهم سماكون.

خور حسن: قرية صغيرة للبحرين وفيها حوالى ١٠٠ نسمة من البوكوراه والعتوب ومعظمهم سماكون (وفيها قلعة مربعة لشيخ البحرين) (كتبت فيها الاتفاقية بين الدولة العثمانية وشيخ البحرين عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م).

فريحه: قرية صغيرة للبحرين وفيها بعض السفن التجارية وحوالى ١٥٠ نسمة من البوكواره والبنعلي

21 August 1829

MEMOIR

DESCRIPTIVE OF THE

NAVIGATION OF THE GULF OF PERSIA;

CAPTAIN GEORGE BARNES BRUCKS.

BOODEEHOOF.

Boodeehoof, in lat. 25° 7' 50" N., long. 51° 16' E., is on the nearly opposite Ras Reccan, and is subject to Bahrein, having fifty men of the Abookara Tribe, mostly fishermen.

YAMALE.

Yamale, in lat. 26° 5' 40" N., long. 51° 14' E., is a small village.

YOSSFEE.

Yossfee, in lat. 26° 5' N., long. 51° 14' E., is a small village, with fort, belonging to Bahrein. It has about fifty inhabitants, of mixed tribes, all fishermen.

KHOR HASSAN.

Khor Hassan is in lat. 26° 4' 20" N., long. 51° 10' 55" E. It is small village, with a square fort, belongs to Bahrein, and has about one hundred inhabitants, of the Abookara and Uttoobee Tribes, principally fishermen.

FEYRAHA.

Feyraha is a small village, in lat. 26° 2' N., long. 51° 0' E. It belongs to Bahrein, and has a few trading boats belonging to it. It has about one hundred and fifty inhabitants, of the Abookara Tribe, principally fishermen.

ZOBARA.

Zobara is in latitude 26° N., long. 51° 8' 30" E. It is a large town, now in ruins. It is situated in a bay, and has been, before it was destroyed, a place of considerable trade. The inhabitants are of the Tribe of Alassar, and subject to Bahrein; a number of fine Nujdee horses are still exported from this place. This was originally the principal place of the Uttoobee Tribe, until they separated.

ابالظلوف : تقع مقابل راس ركن وتخضع للبحرين يسكنها حوالي ٥٠ نسمة من البوكوارة ومعظمهم صيادون .

يوسفيه : انها قرية صغيرة وفيها قلعة وهذه القرية للبحرين ، ويبلغ عدد السكان فيها حوالي ٥٠ نسمة وكلهم صيادون .

خورحسن : قرية صغيرة للبحرين وفيها قلعة مربعة وفيها حوالي ١٠٠ نسمة من البوكوارة والعتوب ومعظمهم صيادون (وفيها قلعة لشيخ البحرين كتبت فيها الاتفاقية بين الدولة ا
وشيوخ البحرين عام ١٢٥٥هـ/١٨٣٦م .

فريحه : قرية صغيرة للبحرين وفيها بعض السفن التجارية وحوالي ١٥٠ نسمة من البوكوارة والمنعلي وهم صيادون .

الزبارة : هي مدينة كبيرة لكنها متهدمة الآن وموقعها على الخليج وكانت مدينة ذات أهمية تجارية في الماضي . وينتمي السكان فيها الى قبيلة الدواسر وهم تابعون للبحرين ويصدر منها عدد من الخيول النجدية . وكانت هذه المدينة مقرا رئيسيا لقبيلة العتوب حتى

وهم سماكون.

الزباره : هي مدينة كبيرة لكنها متهدمة الآن وموقعها على الخليج وكانت مدينة ذات أهمية تجارية في الماضي. وينتمي السكان فيها الى قبيلة (أسد) وهم تابعون للبحرين. يوجد فيها عدد من الخيول النجدية. وكانت هذه المدينة مقرا رئيسيا لقبيلة العتوب حتى تفرقوا.

ربيجة : قرية صغيرة.. وبينها وبين البحرين الآن المياه الضحلة.. وغير صالحة للملاحة.. وعدد سكانها حوالى ١٥٠ نسمة وهم من عتوب البحرين.

جزر حوار : مجموعة من ٨ أو ٩ جزر.. واكبرها حوار وطولها حوالى ٤ أميال تقع فيها قريتان للسماكين وهذه الجزر تملكها البحرين.

قلعة وجزيرة الزخنونية : تمتد الى ٤ أميال وعرضها حوالي ميلين تقع القلعة غربا ويبلغ عدد سكانها ٤٠٠ من قبيلة (أسد) يعترف السكان بخضوعهم لحاكم البحرين.

ومن أطرف ما كتب عن البحرين وآل خليفة (بلجريف) حين رحل الى الجزيرة العربية وغربي الخليج العربي عام ١٨٦٢م فوصف الافلاج ثم الدوحة وسكانها ومنهم آل خليفة وعددهم وقتئذ نحو ٨٥٠ نسمة. من بين سكان الدوحة البالغ عددهم نحو ٢٦٠٠٠ نسمة.

وكتب الرحالة (بلجريف) مذكراته عن رحلته التى استمرت عامين منذ ١٨٦٢ - ١٨٦٤ فقال عن البحرين :

لقد قطعت المسافة الواقعة ما بين ميناء القطيف وميناء مدينة المنامة في زورق عربي صغير، وتقع مدينة المنامة على الطرف الشمالي لجزيرة البحرين ومقابل مرفأ جزيرة المحرق. والذراع البحرى الذي يفصل ما بين القطيف والمنامة ضحل كثيرا، وتستحيل الملاحة فوق مياه غير عميقة، وعندما يرتفع المد نادرا ما تصل المياه الى اغصان النخل المزروع هنا وهناك في الاراضي السبخة على هيئة اسيجة رباعية تمسك بالسمك الذي يرميه سوء طالعه بين هذه الجدران الورقية.

ان المضيق الذي يفصل المنامة عن المحرق ضيق، وعرضه يقل عن ميلين ويبلغ من ضحالته ان الرجل يستطيع ان يخوض فيه بسهولة ابان الجزر، فيصل من جزيرة الى أخرى. والمنامة مرفأ بحرى كبير يبلغ سكانها ٢٥ ألف نسمة أو اكثر من ذلك وبها ساحات وأسواق واسعة كثيرة. وحصن شامخ على طرف البحر، يقطنه نائب الحاكم وهو علي بن خليفة (أما الحاكم فهو محمد بن خليفة ويقيم في مدينة المحرق) وعدة بيوت كبيرة وجميلة تتألف من طابقين أو ثلاثة ولكن معظمها الآن في طريق الزوال، لقد الحق الغزو اضرارا كثيرة بتجارة البحرين وازدهارها.

وطول الجزيرة ٧٠ ميلا تقريبا وعرضها نصف طولها. والجزيرة بوجه عام منبسطة كثيرا أو منخفضة، وهي لا ترتفع اكثر من ٢٠ قدما عن سطح البحر ولا سيما في الجهات

الشمالية والغربية. أما في الشرق فتوجد سلسلة من الجبال أو من التلال على الاصح، يبدو ان أعلى قمة فيها لا تزيد على ٨٠٠ أو ٩٠٠ قدم ويساعد على بروزها الاراضى المنبسطة. والتربة خصبة في معظم الاماكن وينمو فيها الأرز وعشب الحساء وبعض الفواكه ولا سيما الموالح. ويتوفر الماء في الجزيرة وان كان مالحا في بعض الأحيان. ويعتمد السكان في معيشتهم على موردين رئيسيين هما التجارة وصيد الاسماك. أما التجارة فهي (أو بالاحرى كانت لانها تضعف يوما اثر يوم) حركة نشيطة كثيرا وتشمل دائرة كبيرة، فان سيلا دائما من التجارة يربط ما بين البحرين وسواحل عمان وايران والسند والهند الى جانب القطيف وبوشهر والكويت والبصرة. وحتى في هذا الزمن الذي ضعفت فيه الحركة التجارية نجد ان السفن الشراعية الكبيرة - بعضها بني في الجزيرة نفسها وبعضها بني في لنجة الواقعة على الساحل الايراني والباقي بني في الكويت أو الهند - تأتي الى الميناء أو تقلع منه باستمرار وتزدحم البضائع المستوردة والمصدرة والبحارة ورجال الجمارك والحمالون والتجار فوق الرصيف - والكل في شغل دائم. وتزدحم فروع السوق المختلفة بالايرانيين والنجديين والعمانيين والمغول والسنديين والهنود والزنوج وتكاد هذه الاروقة ان تضيق بهم.

ونجد في هذه المدينة من الحوانيت والصناع من حائكين ومعدنين - ما يربو على ما في مدن نجد العليا جميعها ولو انهم وجدوا تشجيعا اكثر لزاد عددهم عن ذلك كثيرا.

وتزدحم المقاهي التى حرمها السلفيون في نجد بالتجار وربابنة السفن أو من اجتمعوا لقضاء أعمالهم أو سماع الأخبار.

وتسير مواكب الزواج في الليل والنهار تتقدمها الطبول والمزامير وفرق الانشاد، ويبتهج المواطنون بذلك.

ونجد في نفس الوقت نسبة كبيرة من السكان تعمل في الغوص على اللؤلؤ. وتزدحم هذه المياه الضحلة التى تحيط بالجزيرة بمئات القوارب في المدة الواقعة ما بين شهرى ابريل ونوفمبر وتلاقي نجاحا كبيرا. وتجبي الحكومة الضرائب عن القوارب وعن اللؤلؤ ويرسل قسم من هذه الضرائب الى عمان. وسوق اللآلىء الرئيسي هو بغداد حيث يكاد اليهود يحتكرون هذه التجارة.

وتكثر الاسماك المختلفة على مسافة من الشواطىء. وتكون الطعام الرئيسي للسكان وتباع أسماك الفندر والسرطان البحرى والمقريل والربيان وغيرها بأسعار زهيدة. ولقد وجدت أن متوسط اسعار السمك هنا يبلغ ١ / ٢٠ من اسعاره في بيروت. وفي نفس الوقت نجد ان اسعار لحوم الابقار والاغنام غالية ومن نوع ردىء. ويكاد يكون لحم الجمال غير معروف هنا، على العكس من نجد، وليس ذلك خسارة

كبيرة.

أما المناخ فهو لطيف وليس باردا وقلما يكون حره مضايقا اما طابعه العام فهو الرطوبة الكثيرة. وهو نتيجة لذلك ليس صحيا وفي الحقيقة فإن الاماكن التى استطعت ان ازاول فيها عملي الطبي مثل البحرين قليلة. والطابع الجسماني للسكان يختلف كثيرا عن سكان وسط الجزيرة العربية، مع انهم يشبهون سكان الاحساء الى حد ما فمعظمهم صغار القامة ونحفاء ولا تبدو عليهم القوة العضلية فهم في ذلك يقتربون من الجنس الهندي نوعا ما.

ويمتازون بملامح واضحة ومتميزة ونظرات تتسم بالذكاء وان كانت قلما تتسم بالحيوية. ويقيم في البحرين كثير من الهنود الذين يشتغلون بالتجارة والذين جمعوا ثروات كبيرة عن طريقها، وهم يحافظون على عادات بلادهم وتقاليدها ولا يتزاوجون ابدا من سكان البحرين. أما العرب فهم من جنس خالص النسب متميز عن غيره. كما انك تقابل الايرانيين كثيرا في المدن وقد اندمجوا مع غيرهم فأصبحت لا تستطيع ان تميزهم عن غالبية السكان. ومنذ عهد ليس بالبعيد كانت تعيش في البحرين جالية يهودية صغيرة، ولكن محمد بن خليفة طردهم منها.

وكان الأمير السعودي منذ بضع سنين يأخذ ضريبة سنوية قدرها ١٨٠٠ جنيه من هذه الجزيرة. وبموجب هذا يرسل الى الجزيرة من حين لآخر بعض رجاله ويكثر المالطيون (ولأسباب أخرى) على شواطيء البحرين وعلى ساحل الخليج كله اكثر من أى مكان آخر في الشرق. ويقيم بعض سكان البحرين في جزيرة قيس الصغيرة والى الأسفل منها في هذا البحر في مينائى لنجة وبندر عباس ثم في مدن البدع والدوحة والوكرة في قطر والشارقة والفجيرة وصحار والسيب ومطرح ومسقط في عمان. وحيثما حلوا يتميزون عن غيرهم بالتفوق في التجارة والمهارة الصناعية.

ان جزيرة المحرق أصغر من جزيرة البحرين بكثير، والمرفأ الرئيسي، وهو الذي يسمى باسم الجزيرة، أقل من المنامة في الاتساع وفي السكان. ويغلب العنصر العربي على العنصر الايراني في المنامة، والتجارة أقل نشاطا من البحرين. والجزيرة كلها منخفضة ومستوية ولكن تربتها الرملية اكثر جفافا من أختها على الشواطيء الضحلة ومناخها اكثر ملاءمة للصحة. وهناك قلعة مربعة منيعة تتحكم في الممر الشرقي للقناة التى تفصل ما بين الجزيرتين، ولكنها الآن مهجورة تماما، وقد تحولت الى مربض لخيول وهجائن الحاكم. وتوجد قلعة أخرى مشابهة لهذه وان كانت اكبر منها بكثير - انها حصن في الواقع - فوق أرض البحرين الرئيسية الى الشرق من المنامة وقد جردت هذه القلعة من آلات الدفاع تجريدا تاما.

ومجموع القرى الموجودة في الجزيرة يبلغ ثمانين قرية، وبعض هذه

القرى من التى زرتها كبيرة الحجم نوعا ما، بالرغم من ان معظم البيوت ليس أكثر من سقائف مبنية من سعف النخيل وهذه هي التى يتطلبها المناخ، وتتناثر بين أكواخ الفقراء هذه بنايات كبيرة مبنية بالاجر والحجارة ومظهرها يتحدث عن الفخامة.

ونأتى بعد ذلك الى البلاد المجاورة وهي قطر. ويحكمها عدة شيوخ محليين وأهمهم محمد بن ثاني وهو رجل عجوز ممتاز اشتهر بالحكمة والروية والرقة ويقيم في ميناء (البدع). وليست له سلطة مباشرة على الشيوخ الآخرين شيوخ الوكرة والزبارة وصور وغيرها. ولحمد بن خليفة حاكم البحرين نفوذ كبير في هذه المنطقة(١١).

وقام (ثيودور بنت) برحلة بحرية الى البحرين ١٩٠٠م فوصف المدينة ومنازلها وعادات الناس وتقاليدهم ثم صناعة اللؤلؤ وتربية الخيول وزراعة الفواكه. وقد زار الشيخ عيسى بن علي آل خليفة وولي عهده الشيخ حمد في الرفاع والتقى بالشيخ عبدالله بن عيسى وسعد بن عمر أمير المنامة وهو رجل كبير السن قد بلغ نحو ستين عاما. كما زار القبور المقببه في عالي ومدرسة في (بوزيدان) وسوق الخميس وفيها مسجد صغير كان الشيخ عيسى يصلي فيه وبقربه بركة صغيرة. وبعد أن اوردنا طرفا عما كتبه بعض الرحاله والذين مروا بالبحرين نختتم بالرحالة (بانال) وهو ضابط برتبة نقيب في الفيلق الثالث بالجيش الفرنسي وكان قبطانا يقود سفينة أو زورقا اسمه (لاسوربرايز) ومعناها (المفاجأة) وابحر بانال على ظهر سفينته هذه في ١٩٠٨م من البصرة الى بومباي في الهند عبر الخليج العربي مارا بالكويت فالبحرين فقد ابحر في يوم الجمعة الثالث من شهر ابريل ١٩٠٨م من الكويت بعد ان قضى عدة أيام في الكويت وقابل شيخها واتجهت السفينة صوب البحرين والريح تدفعها ويقول : فمررنا بجزر صغيرة ومنخفضة يصعب النزول فيها كجزيرة (فارسي) التي لا يزيد طولها على ثلاثة أمتار (كيلو مترات) وتبعد عن اليابسة نحو ٦٠ ميلا اما جزيرة (عربي) فطولها ٠.٩ كم وتبعد عن اليابسة نحو اربعين ميلا. ولما كان هناك تيار شديد للمد والجزر فقد كنا مضطرين الى تحديد مكان وجودنا باستمرار معتمدين في ذلك على حسابات فلكية. ولكي نعبر نحو البحرين في الظلام الدامس فقد كنا نسير في وسط حلقة من الجزر والفشوت الصغيرة في تيار غير مستقر من المياه ويواجهنا كثير من الصخور التى تعلو نحو خمسة امتار في داخل الماء ولا يمكن والحالة هذه الرسو في هذه المياه الا للقوارب الصغيرة وكنا نعتمد على الآلات البحرية لمعرفة الاتجاهات ليلا حتى اذا طلع الفجر اتجهنا صوب (فشت الجارم) بعد ان شاهدنا طوافة على بعد خمسة اميال وكان الطقس جميلا لذا لم ننزل في هذا الفشت وواصلنا السير باتجاه غربي

التجاري مع موانيء هذه المنطقة وكثيرا ما كانت البحرين مستودعا للبضائع ومقرا للشركات التجارية الكبرى كما يمتاز ميناء البحرين بصلاحيته لرسو السفن فهو يتسع للسفن الكبيرة ومحمي من الرياح الجنوبية (الكوس) والرياح الشمالية حيث تحميه صخور فشت الجارم الذي يتصدى لأمواج البحر وان كان لهذه الرياح اثرها على الـزوارق الصغيرة وكثيرا ما يغلق الميناء عند هبوب الرياح الشمالية. وفي حالة الجزر تقف السفن على بعد مائتي متر من اليابسة حيث توجد الحمير الكبيرة الحجم لنقل الركـاب والسلع الى رصيف الميـنـاء. ويـوجـد المقـر الانجليزي في الناحية الشمالية من المدينة حيث لا يتسنى لنا النزول هناك الا عندما تكون المياه عالية. ومدينة (المنامة) مدينة عربية يبلـغ عدد سكانها نحو ثلاثين ألف نسمة وهي اقل نظافة من غيرها من المدن وبعض أسواقها ليست ذات أهمية تجارية ويسكن فيها المقيم البريطاني النقيب (بريدو) وكـذلك المقيم التجـاري (فولكهام) ويمثل احدى الشركات الانجليـزية كمـا ان فيها بعض المبشرين الامريكيين الذين يسكنون منزلا جميلا قرب المقر الانجليزي وهؤلاء المبشرون لم يحصلوا على اية نتيجة لصالح دعوتهم الا انهم قدموا خدمات بواسطة المستشفى الذي اقـاموه في البحـرين. أما المقيم الانجليزي فيسكن في منزل جميل يضم عددا من الخدم ويعتبر النقيب (بريدو) من الشخصيات البارزة وحين لقائي معه اكتشفت فيه مودة كبيرة معي الى درجة انه وضع نفسه في خدمتي. وبما ان البحرين كانت وقتئذ تحت الحماية البريطانية فقد كان دوري اكثر سهولة ولم اتعرض لأية مضايقات وقد طلب النقيب (بريدو) من الشيخ ان يستقبلني ووضع مترجمه الخاص تحت تصرفي وكان الشيخ يسكن مدينة المحرق التي تبعد نحو ثلاثة أميال بحرا ونظرا لأن الصخور تحيط بالمحرق فقد كان مستحيلا الوصول اليها الا اذا كانت المياه عالية فمدينة المحرق أنظف من مدينة المنامة وتفوقها في عدد سكانها الذي وصل الى ٣٠ الف نسمة الا ان المحرق تبدو اقل حيوية من مدينة المنامة.

واستقبلنا شيخ البحرين (الشيخ عيسى بن علي آل خليفة) الذي كان معه ابنه حين وصولنا كما لاحظت ان الشيخ وابنه كانا قد اعتنيا بلباسهما كثيرا وكان الشيخ المسن عيسى بن علي آل خليفة هو أقدم شيوخ المنطقة وكلما رأى أجنبيا سر بالحديث معه ولكنه كان بالغ الحذر في احاديثه معنا. ولا أعلم هل سبب ذلك لحضور مترجم المقيم معنا أو بسبب آخر ؟ ومع ذلك فقد سمح لنا بأخذ صورة معه دون الحاج.

وقد سبق أن أكدت على ان قوة الشيخ نابعة أساسا من صلابة شخصيته.

ولم نشاهد أية سفينة فرنسية في البحرين قبل سفينتنا (السربرايز) فقد فهمنا مدى قلق هؤلاء الاشخاص (وهم الانجليز) وحذرهم من الخطر الداهم.

واكد لي النقيب (بريدو) انه لا يتدخل في شئون الشيخ الداخلية وانه يتركه يحكم دون احراج الا اننا رأينا على باب المقر الانجليزي نسخة من القوانين الجمركية وهي معلقة في لوحة هناك والتى تعهد بتنفيذها الشيخ وقد كتبت بأسلوب شرقي مثلما رأينا ذلك في الكويت. وعلى الرغم من وجود الحماية البريطانية على البحرين وغيرها من دول المنطقة الا انها تترك للحكام وللسكان المحليين تدبير شئونهم بدليل ان المقيم لا يرى الشيخ الا مرة واحدة في اليوم. فالبحرين ذات أهمية لانجلترا وهي تمثل المحور الاساسي للاتصالات البحرية المكثفة وتشرف على أبواب نجد والتى تؤدى الى القلب النابض للعالم العربي في جزيرة العرب ومن هنا أيضا نستقصى الاخبار ولا اعتقد ان اصطياد اللؤلؤ مدعاة لاهتمام مكثف من طرف الانجليز بل انه من حين لآخر نشاهد سفينة حربية انجليزية تقوم بالمراقبة.

وقد أخبرني الوسيط الدبلوماسي الالماني بأن هذه المنطقة خالية من الغزاة وان صناديق الروبيات تنقل من مكان لآخر ومن شخص لآخر في أمن وسلام دون تهيئة وسائل أمنية كنا قد تعودنا عليها. وقد سبق ان لحقت بالتجارة البحرينية أزمة من جراء انهيار التجارة الامريكية اذ لم يجد اللؤلؤ سوقا رائجة في هذا العام. الا ان تجارته في المنطقة العربية اكثر نشاطا رغم اعتقاد الوسيط التجارى الالماني بأن المنطقة العربية لا تستهلك الا القليل من اللؤلؤ.

وكان النقيب (بريدو) في غاية اللطف معنا وقد جعل تحت تصرفنا خيله وسياراته عندما ذهبنا معه لشاهدة القبور المقببه التى اكتشف ما فيها من آثار غريبة كما انها تظل لغزا لم يحل بعد.. وقد مشينا لبضعة كيلومترات داخل منطقة القبور المقببه وكانت تحتل مسافة تقدر بنحو ثمانية أميال طولا وثلاثة أميال عرضا وتكاد تكون القبور متشابهة ولكنها متفاوتة الأهمية. وقد فتح النقيب بريدو عددا كبيرا من هذه القبور القديمة مما أمكننا مشاهدتها من الداخل فوجدنا بها غرفا للموتى مبنية بالاسمنت وفيها بعض الهياكل العظمية وسبق ان عثر على بعض الاختام والجواهر ولكنه لم يعثر على اي أثر مكتوب.

أما علماء الآثار فلم يحددوا بعد الحقبة التاريخية التى بنيت فيها هذه المقابر أو جنسية اصحابها ويعتقد (بريدو) ان البحرين كانت مقرا مقدسا لسكان الأرض كالذي نشاهده في بلاد ما بين النهرين ومن الممتع التعرف أيضا في البحرين على ينابيع عيون المياه العذبة المنبثقة في وسط البحر فالماء العذب وفير الى حد ان السكان يزرعون النخيل ويسقونه بمياه الينابيع العذبة غير ان النجاح

يبقى دون مقارنة مع انتاج نخيل شط العرب، والمنتجات البحرينية قليلة جدا اكثر المواد مستوردة خاصة المواد الغذائية لذا فهى أغلى من البلاد المجاورة ولدى البحث عن بعض السلع لنشتريها وجدنا ان البضائع الالمانية ارخص من الانجليزية.

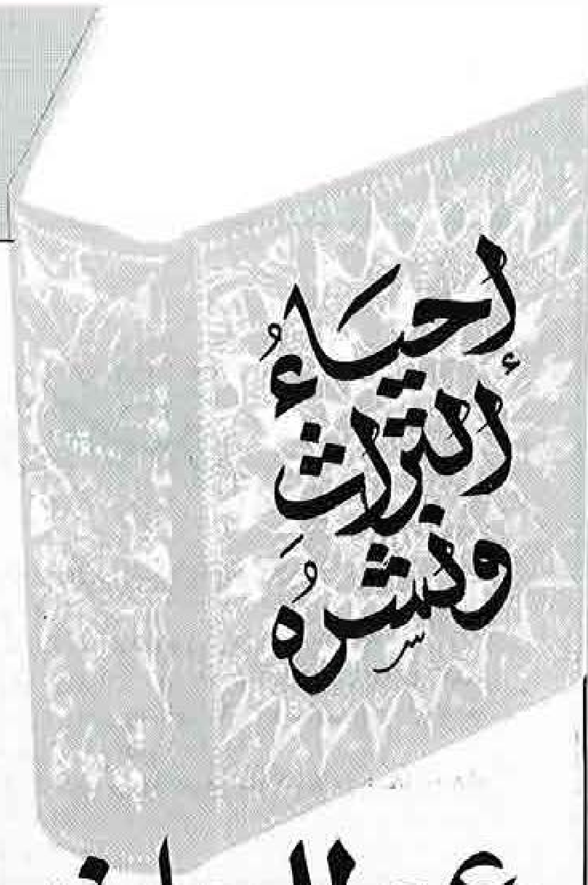
وفي تمام الساعة الحادية عشرة صباحا من السادس من ابريل ١٩٠٨م غادرنا البحرين فكانت الرياح الشمالية باردة وهي تعصف فتدفع بسفينتنا وهذا ما جعلنا نصل بسهولة الى الجهة التى نقصدها وهي (مسقط).

ثم اصبح الضباب يمنع الرؤية فلم يعد يظهر جبل الدخان بوضوح ولا المآذن القديمة ولكن يظل الحصن أو القلعة البرتغالية (قلعة البحرين) وفنار السفن وجزيرة المحرق وجزيرة بوسعفه كدلائل هامة يهتدى بها الملاحون. وبعد خروجنا من البحرين هبت علينا ريح هادئة اختلطت بنسيم البحر فرفعنا الشراع غير ان أحد الأشرعة انكسر فاضفنا له رافع الشراع العملاق ودفعتنا الريح نحو الجنوب الشرقي فوق الاعماق العالية في منطقة (الديبل) وكانت سرعتنا تشير الى تسع عقد ثم مررنا بين (بوناير) و (سارى) على بعد عشرة أميال من جنوب (ابو موسى) ووفقا لاتجاه الرياح وقوتها التى بلغت سبع عقد والامواج ستة أمتار فقد اصبحنا نقود الباخرة بحذر شديد متبعين اتجاه الريح لكيلا نتعرض الى لطمات الامواج الشديدة وكان الجانب الخلفي من السفينة مثقلا بعابورة حتى وصلنا الى مضيق هرمز ثم وصلنا مسقط واقمنا بها من ٨ – ١٣ ابريل ثم اتجهنا الى بومباى في رحلة يطول شرحها[١٢].

★★★★★

الهوامش

(١) اسفار فارتيما ص ٩٤
(٢) دوارتي باربوسا. ص ٨١ و٨٢ . والوثيقة ١٥/١٦٦ و١٦٣
(٣) الوثيقة ١/ص ١١١ و١٥٤ و١٥٥
(٤) جون ببتسته . ستة اسفار بحرية ص ٩٤ و١٤٥ طبع لندن ١٦٧٢ .
(٥) جين اوتر. الرحلات في تركيا وايران. ص٥٦ و٥٨ المخطوط في قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية في باريس رقم اف. ٩٨٩ والمطبوع في ١٧٤٨م.
(٦) اسفار اباكاري في الهند والشرق الادنى ص ١٠١ .
(٧) وليام هويدي. رحلة بحرية في الخليج ورحلة برية الى الهند من انجلترا عام ١٨١٧م ص ٤٦. طبع لندن ١٨١٩م.
(٨) تقرير من بومباي في ٢٢ اكتوبر ١٨٠٢م.
(٩) ونستد. الاسفار الى مدينة الخلفاء عبر الخليج والبحر المتوسط ص ١١٤ و١٢٣ و١٢٥ و١٢٧.
(١٠) الوثيقة ١٠/١١٨ - ١٣٦
(١١) الوثيقة ٩/١٤٠ - ١٤٢
(١٢) بانال/زورق الانزال (المفاجأة)/الاسعد الزمني .



دعم للحاضر واستشراف

نطلق لفظ التراث بالمعنى الواسع على نتاج الحضارة في جميع ميادين النشاط الانساني من علم وتاريخ وفكر وأدب ، وفن ، ومأثورات شعبية ، وآثار ، ومعمار ، وتراث فلكلوري وإجتماعي واقتصادي . وكثير من هذا التراث سجله الأجداد فيما خلفوه لنا من مخطوطات تتناول البحث في فنون المعرفة المختلفة من تاريخ وتفسير ، وحديث وفقه ، وأدب ، ولغة ، ونحو ، وفلسفة ، وطب ، وعلوم ، ورياضيات ، وفلك ، وفلاحة وغيرها .

وقد استطاع النزر اليسير من هذا التراث أن يصارع عوادي الزمن ويعيش حتى الوقت الحاضر ، ولكن جله لم يعرف طريقه الى الطباعة فتعم الفائدة منه ، وما زال في معظمه رهين رفوف المكتبات ، أو مخزونا داخل صناديق في ظروف طبيعية صعبة تسمح للحشرات وأمراض الورق أن تجد طريقها اليه .



بقلم الدكتور محمد عبدالقادر

المستقبل

ولا يقل التراث الأثري والمعماري اهمية عن التراث الفكري الموجود في المخطوطات . ويتمثل التراث الاثري والمعماري في المساجد والقصور والحمامات ، والتكايا ، والبيمارستانات ، والسدود ، والقلاع والحصون ، والأبراج ، والأسوار ، ويحتاج هذا النوع الى جهود تبذل للكشف عنه وترميمه ، واصلاحه ، والمحافظة عليه ، وتعد المعالم الأثرية



ثروة قومية تجب حمايتها وتعهدها بالرعاية لصالح حضارتنا العربية والاسلامية العريقة .

وهناك التراث الفلكلوري المتمثل في الأناشيد والأغاني والمأثورات ، والأمثال ، وحلقات الذكر ، والأساطير ، والحكايات .

أما التراث الاجتماعي والاقتصادي فيضم نوع الحياة التى كان يحياها أجدادنا في عاداتهم وتقاليدهم ، وأنواع الأطعمة التى كانوا يتناولونها ، والألسبة التى كانوا يلبسونها وطرقهم في التكسب ، وفي السكن ، ، وفي الاحتفال بالأعياد والمواسم ، واستعداداتهم للطوارىء ، والكوارث الناشئة عن الحروب ، والأخرى الناجمة عن الطبيعة ، وكثير من هذه العادات التى تفرض نفسها علينا في حياتنا الحاضرة لها جذورها القديمة ، وأصولها العريقة . وأقصر كلامي هنا على التراث المخطوط الموزع بين الشرق والغرب .

ويعرف **العلماء المخطوط** بأنه كل كتاب كتب باليد ، وبلغ في القدم مائة سنة فأكثر . وتعامل معاملة المخطوطات الوثائق ، والصكوك القديمه ، والأثرية التى تتوافر فيها الشروط ذاتها . وكذلك كل انتاج أدبي أو فني غير منشور تقرر الدولة أنه من المصلحة القومية أو الوطنية الحفاظ عليه .

المقصود باحياء التراث

ونعنى بإحياء التراث تحقيقه عن طريق اختيار بعض النصوص التى خلفتها لنا الحضارة العربية في عهودها المختلفة ، وعصورها المتعددةثم نشرها بين المثقفين لتيسير اتصالهم بها فيقفوا على المستوى الفكري لبناة هذه الحضارة .

أهمية التراث المخطوط

يحتل التراث العربي الاسلامي المخطوط أهمية كبرى لأنه يمثل العمود الفقري في التاريخ الحضاري والثقافي للأمة العربية الاسلامية .

إن قضية التراث تطرح نفسها اليوم وتؤكد أهميتها على الصعيد القومي كعنصر أساسي يؤكد أصالة الأمة وصمودها أمام التحديات المصيرية التى تواجهها . ومن الضروري أن نعنى بالتراث بروح المسئولية القومية ومن خلال فكر الأمة الاسلامية وتاريخها ومستقبلها . وأن نسقط الدعوات المغرضة التى تدعى وجود تناقض بين احياء التراث وبين

المعاصرة والتقدم الحضاري . فتراث الأمة هو سيرتها والقوة الدافعة لبناء المستقبل على ضوء التوازن المتفاعل بين الأصالة والمعاصرة .

ولا أجد انفصالا بين ماضي الأمة وحاضرها ومستقبلها ، فالماضي يضيء لنا طريق الحاضر والمستقبل ، وحاضرنا يحمل من ميراث الماضي الذي تكمن في أعماقه جذور ذاتنا . والأمة التى لا ماضي لها لا حاضر ولا مستقبل لها .

إن لنا ماضيا عريقا في علوم الطب والرياضيات والعلوم والفلك وهو ما نطلق عليه التراث الذي خلفه علماؤنا العرب والمسلمون من حقنا أن نذكره خاصة وقد كانت لنا الريادة في هذه العلوم في بداياتها ، ووضع علماء المسلمين اللبنات الأولى التى أخذها علماء الغرب وأفادوا منها وبنوا عليها . ومن حقنا أن نذكر هؤلاء العلماء ونتعرف على ما نبغوا فيه ، وليس هناك عيب أو تخلف كما يدعي البعض لأمة تريد أن تعرف ماضيها العريق .

ونشاهد في هذا العصر أمما تبالغ في أمجادها الماضية كي تصنع زادا روحيا خلاقا لأجيالها الحاضرة يعينها على انجاز مهامها الحالية . بل وأمما أخرى تفتقد التراث وأمجاده فتحول الأساطير والخرافات الى تراث تستثمره في بناء وحدتها القومية ، وشحن شبابها بالطاقات .

إن نشر التراث العربي الاسلامي يتيح للذين يتتبعون حركة الفكر الانساني أن يضعوا أيديهم على الحلقة التى وصل بها العرب تراث اليونان بنهضة أوروبا في عصرها الحديث . فطوال ما يزيد على ستة قرون كانت الحضارة العربية الاسلامية هي المنارة الوحيدة الهادية في محيط هذا الكوكب . ولولاها لما وصلت الشعلة المضيئة الى أوروبا ، ولولاها لانطبق وصف «العصور المظلمة» على هذا الكوكب بأسره طوال هذه القرون .

لقد أخذ اليونان عن قدماء المصريين ، وأخذ العرب عن اليونان والفرس ، والهنود ، ثم أخذت أوروبا عن العرب عندما قامت بترجمة تراثهم الى اللغات الأوروبية وكان أخذهم في مدارس قرطبة وطليطلة واشبيلية في بلاد الأندلس . ثم عدنا نحن في الوقت الحاضر نأخذ عن الأوروبيين ، فتراث مصر القديمة ، والتراث اليوناني ، والتراث العربي الاسلامي وتراث أوروبا في عصر النهضة يمثل مسيرة الانسانية الفكرية عبر هذه القرون .

ومن ثم فإن إحياء التراث العربي الاسلامي والوعي به يؤكد حقيقة قانون «التأثير والتأثر والتفاعل بين الحضارات والثقافات» ويؤكد أن الحديث عن استقلال شعب من الشعوب بثقافته استقلالا كاملا ، وانغلاقه على نفسه حضاريا هو خرافة من الخرافات غير قابلة للتحقيق والتطبيق .

ومما يدعو الى الأسف انني أجد كثيرا من المثقفين الذين تعلموا في



إحياء التراث ونشره

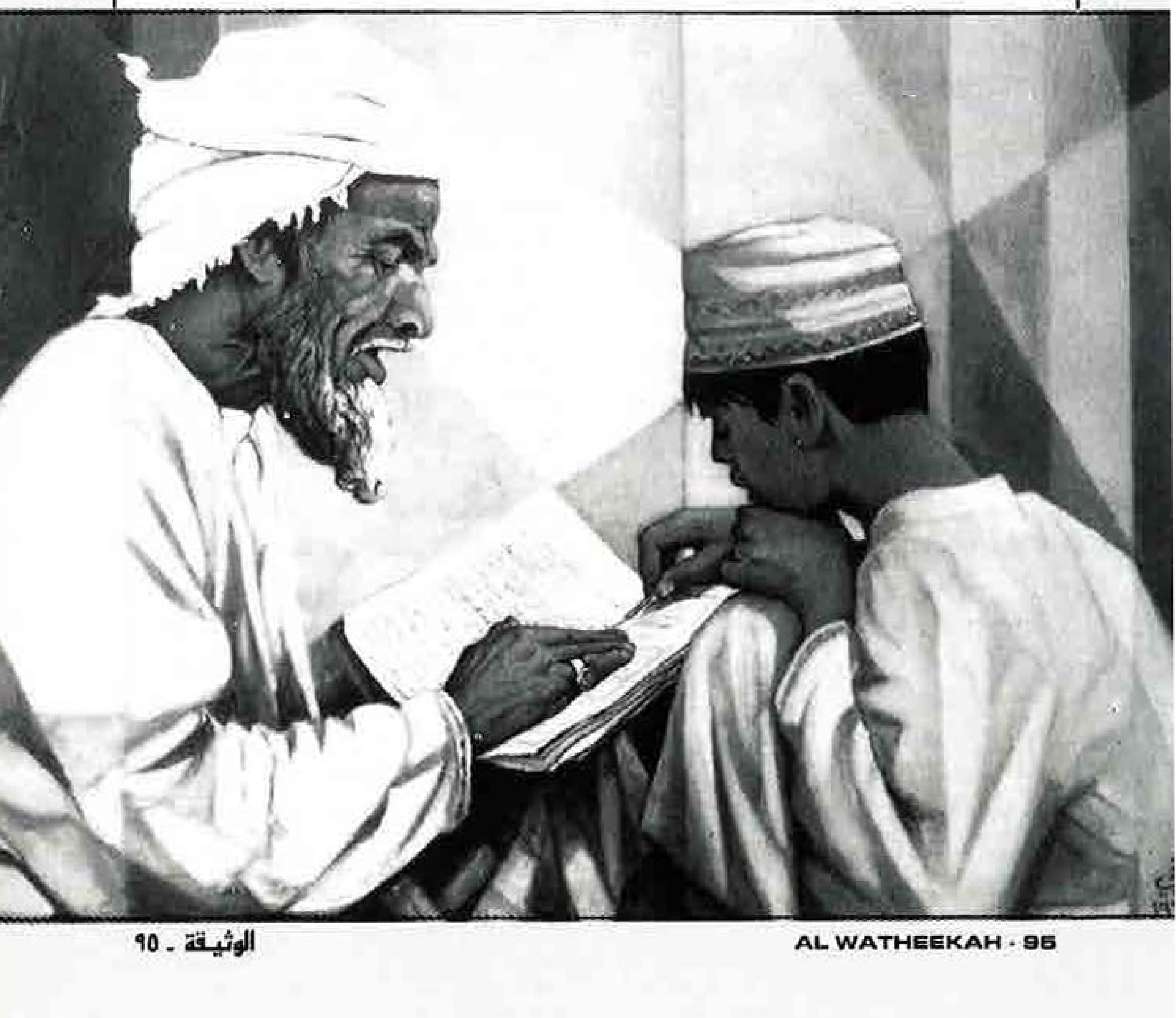
الغرب يسخرون ممن يتحدثون عن التراث العربي الاسلامي ويتهمونهم بأنهم الباكون على أطلال بنى أسد ، وبني تميم ، وقيس .

ويقولون إنكم تتحدثون عن التراث والعالم ارتاد الفضاء ووصل الى القمر .

نعم لقد وصل العالم في العصر الحديث الى القمر وارتاد الفضاء ولكن هذا العالم استغل وأفاد مما توصل اليه الفلكيون العرب الذين نبغوا في علم الفلك وكتبوا عن الفضاء الخارجي وكانوا يقيمون في مراصدهم شهورا وليالي بأدواتهم يتبعون الكواكب في أفلاكها وأبراجها ومساراتها ويرصدون حركاتها ويبحثون عن الأجرام العلوية ، وارتباطها ببعضها البعض ، وعلاقاتها فيما بينها ، والوقوف على سير النواميس السائدة على حركاتها .
أليس العرب هم الذين اخترعوا الاسطرلاب ؟ وهو آلة فلكية تمثل قبة السماء مقسمة الى اقسام بها النجوم في المجموعات المختلفة ، ويوضح عليها حركة الشمس ، والكواكب ، ويستطيع الفلكي أن يعين بها زوايا ارتفاع الأجرام السماوية عن الأفق في أى مكان . أليس العرب هم الذين اخترعوا الزيج ؟ وهو جدول فلكي حسابي مبنى على قوانين عددية توضح حرة كل كوكب ، ومنه يعرفون موقع كل كوكب في فلكه وتواريخ الشهور والأيام والتقاويم المختلفة ، لقد طور علماء المسلمين علم الفلك فصار علما يعتمد على الملاحظة الحسية ، والمقاييس العلمية ، مبنيا على الأرصاد والحسابات الفلكية وأصبح يدرس في مدارس بغداد ، ودمشق ، وسمرقند ، والقاهرة ، وفارس ، وطليطلة ، وقرطبة وغيرها . وأقاموا المراصد التى كان من أهمها مرصد بغداد والقاهرة وغيرهما .

لقد درس علماء العصر الحديث في أوروبا وأمريكا وروسيا كل ما وصل عن العرب من نتاج فلكي ورياضي ساعدهم على مواصلة البحث والنجاح في الوصول الى الكواكب . ونقول لهؤلاء الجاحدين من أبناء العرب لفضل علماء المسلمين إن الغربيين أنفسهم اعترفوا بفضل علماء العرب والمسلمين ومدحوهم فها هو الفلكي الانجليزي (هال) يقول عن البتاني (٢٣٥هـ ـ ٣١٧هـ) «إنه علامة عصره ، عجيب التدقيق ، مجرب في الرصد ، وقد أجرى أرصاده في الرقة وأنطاكية» وها هو الفلكي جورج سارتون يقول عن «ابي الحسن

الرازي .. «٢٩١ ـ ٣٧٦هـ» «إنه من أعظم علماء الفلك في الاسلام» ويبين قيمة بحوث أبي الوفاء البوزجاني (٣٢٨ ـ ـ٣٨٨هـ) المستشرق الفرنسي «سيديو» بعد أن عثر على مخطوطة قديمة له بها مكتشفات فلكية عزاها التاريخ خطأ الى علماء القرن السادس عشر وقد اكتشفها البوزجاني قبلهم بستة قرون . ويقول المستشرق كارل نللينو عن ابي الريحان البيروني (٣٦٦ هـ ـ ٤٤٠هـ) ... انه من أكثر الفلكيين ذكاء ، وأوسعهم علماً» ويقول المستشرق الفلكي «جراون» عن ابن رشد .. إنه أول من رأى كاسف الشمس وكتب عنها ، ورصد عبور عطارد على قرص الشمس . هذا قليل من كثير من اعتراف علماء الغرب بعلماء الفلك المسلمين بعد أن قرأوا ما كتبه هؤلاء العلماء في الترجمات



اللاتينية التى اعتمد عليها علماء أوروبا عدة قرون .

ولهؤلاء المقللين من قيمة علماء المسلمين في أبحاث الفلك والفضاء أقول إن الحسن بن الهيثم عالم البصريات المشهور (٩٦٥هـ - ١٨٣٩م) له دراسة في علوم الفضاء ، وتضم بداخلها دراسة عن البقع القاتمة ، على سطح القمر ، وقد ظلت هذه الدراسة مخطوطة دون أن تطبع حتى طلبتها وزارة الثقافة السوفيتية من جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٥م ليطلع عليها العلماء السوفيت المشتغلون بأبحاث الفضاء .

إن بعض أبنائنا الذين بهرتهم الحضارة الغربية يقللون من شأن تراثنا الاسلامي ، ولا يعون من تراث امتهم ، وكنوز حضارتها عشر معشار ما يعون من تراث أوروبا والاغريق . وهم لا يرون من التراث العربي الاسلامي إلا ما يريد لهم أساتذتهم في الغرب أن يروه .

إننا نأخذ من تراثنا العربي الاسلامي ما هو مملوء بالطاقات الابداعية الخلاقة التى تدفع مسيرتنا الى الامام بحيث يكون هذا التراث حربا ضد التخلف والجمود ، وتيارا يربط ضمير الأمة بأمجد صفحات تاريخها وحضارتها ، يزكي فيهاحساس الأصالة والمجد ، ويدفع خطواتها على الطريق الى الأمام .

لابد من الوفاء لأسلافنا واخلاصنا الحقيقي لهم يتمثل في المحافظة على آثارهم الحضارية لا باعتبارها رمادا ميتا ، ولكن باعتبارها لهبا حيا . إن النهر حين يجرى نحو البحر إنما يعبر عن اخلاصه الحقيقي لمنبعه . وان عودة مياه الجداول والأنهار كي تصب في أحضان البحر العظيم - علاوة على كونها ضرورة طبيعية - هي نوع من الوفاء لهذا المنبع الذي كانت منه عمليات التبخر الأولى ، قبل أن تتحول سحبا تسوقها الرياح الى قمم الجبال فتسقط أمطارا تصنع مياه هذه الجداول والأنهار وقد عبر عن هذه الفكرة الشاعر الصوفي عمر الخيام بقوله :

أن تفصل القطرة من بحرها

ففي مداه منتهى أمرها

وتعني هذه الرؤية الفلسفية الصوفية في دراستنا للتراث أن أى امة لا تستطيع أن تسير الى الأمام بقدم راسخة وثابتة وشجاعة إلا اذا زرعت جذورها في تراثها وربطت خيوط حاضرها ومستقبلها بما ماثلها وشابهها في صفحات ماضيها القريب منه والبعيد .

ان كل الايديولوجيات والمذاهب في العصر الذي نعيش فيه متفقة على أهمية أحياء تراثها وبعثه ، وتسليط الأضواء عليه ليل نهار وحتى الذين يذهبون مذهب اليسار يشهد أدبهم السياسي بأهمية التراث ودوره في بناء الحاضر والمستقبل وضرورة احيائه ، والاستفادة من طاقاته المبدعة والخلاقة ، وقد ثبت خطأ ما أشاعه البعض عن أهمال الشيوعيين



الماركسيين لكل ما هو «تراث» لأن الماركسية تعد الماركسي الحقيقي هو الوارث الشرعي والمسئول الأمين عن كل ما في تراثه وتراث أمته من القيم والأفكار والتقاليد التى ما زالت صالحة للعطاء التقدمي وخدمة قضية الانسان وتقدمه وتطوير مجتمعه الى الأمام .

ويرفض لينين ما يشاع من أن الروس الماركسيين يجحدون التراث فيكتب في سنة ١٨٩٧م مدافعا يقول .. «ان الماركسيين هم حراس التراث ، وهم لا يجحدون التراث» .

حرص السلف على جمع التراث والمحافظة عليه

شهد القرن الأول الهجري اهتمام العلماء وحرصهم على جمع التراث العربي من مصادره الأصلية في البادية ، واخذه من أفواه الأعراب الخلص لأن اللغة السليمة كانت في مظانها الأصلية في بوادي الأعراب الذين لم يتأثروا بالحضارة الوافدة ، ولم يختلطوا بالأعاجم فيفسد لسانهم ، لذلك ضرب كثير من العلماء أكباد الابل الى البادية ليجمعوا اللغة والشعر والأخبار من أفواه فصحائها ، ثم عادوا الى مدنهم يحملون ثروة لغوية كان لها رواج عظيم في أسواق العلم بالبصرة والكوفة ثم بغداد بعد ذلك . وألفت الكتب الضخمة التى ضمت بين طياتها مفردات اللغة العربية ، وأقوال العرب واشعارهم ورجزهم وامثالهم ، وكان من هؤلاء العلماء الذين حرصوا على جمع التراث والتقاطه من مكامنه الأصلية أبو عمرو بن العلاء ، والخليل ، والكسائي ، وأبوزيد الأنصاري ، والأصمعي ، وأبوعمرو الشيباني ، وابن السكيت ، وغيرهم ممن جمعوا اللغة والأدب عن طريق مشافهة الأعراب والأخذ عنهم . ويروي أن الكسائي خرج الى البادية وأنفذ خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة سوى ما حفظه ، أما أبو عمرو بن العلاء فقد رووا أن كتبه عن العرب الفصحاء ملأت بيتا له الى حد قريب من السقف .

وكان ابن الأعرابي يقول سمعت من ألف أعرابي خلاف ما قاله الأصمعي . وقد بدأ جمع التراث العربي في عصر الأمويين ، ولكن هذا الجمع لم يبلغ ذروته ويزدهر إلا على أيدى العلماء في عصر العباسيين ، وأكثر تدوين التراث تم في العصر العباسي لا قبله .

وإذا مضينا الى الأسباب التى دفعت بهؤلاء الرواة واللغويين الى



تجشم المتاعب لجمع التراث ، والبواعث التى تكمن وراء صنيعهم الجليل ، وجدنا هذه البواعث يمكن تقسيمها الى ثلاثة بواعث : الباعث القومي ، والباعث الديني ، والباعث الاجتماعي .

أما الباعث القومي فيتمثل في عدم رضى العرب عما أصاب لغتهم من خلط وهجنة وعجمة بسبب تحدث الأجانب بها . فقد دخلت عليها تغييرات هددت صورة وقعها وجرسها وطبيعة تكوينها وتركيبها بالمسخ ، فخشى العرب على لغتهم من الفناء والذوبان في لغات الاعاجم لذلك نشأ مبدأ تنقية اللغة العربية وذلك عن طريق جمعها أولا ، ووضع القواعد لها ثانيا ثم تعليمها بعد ذلك ، ضمانا لسلامتها من هذا الخلط الذي كان يهددها في أصولها وحركتها وأصواتها .

ويتمثل الباعث الديني في خوف المسلمين من تسرب اللحن الى القرآن الكريم ، ومن ثم بدا التفكير في وضع النحو ، وحملهم التفكير في وضع علم النحو ، على جمع اللغة بطريق مشافهة الأعراب والأخذ عنهم ، كما حملتهم الرغبة في فهم معاني بعض الألفاظ التى وجدت في القرآن الكريم والحديث الشريف الى الرحلة الى البادية للوقوف على معانى هذه الألفاظ ، وتلك التعابير ، وجمعوا الشعر وحفظوه ليستعينوا به على فهم الفاظ وتعابير القرآن الكريم .

أما الباعث الاجتماعي فيتمثل في رغبة المولدين ، وحرص الشعوب المستعربة على تعلم اللغة العربية ليستقيم لسانها من ناحية ، وتشارك في الحياة العامة للدولة من ناحية أخرى ، فقد كان خلفاء بني العباس لا يعينون في وظائفهم الكبيرة إلا من تفوق في اللغة العربية .

وظل الرواة خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة مشغولين في جلد منقطع النظير في جمع التراث وتدوينه . ثم استحدثت الأجيال الأسلامية بعد ذلك أنواعا من التآليف في علوم أخرى كالتفسير ، والحديث ، والفقه ، والعقائد ، والملل والنحل ، والفلسفة ، وتاريخ الاسلام ، والنظم الاسلامية ، وتراجم الأعلام ، وطبقات الرجال ، فتركوا لنا تراثهم ، الخصب في علوم الاسلام . وحرص خلفاء الدولة العباسية على إثراء التراث العربي عن طريق تشجيع الترجمة من اللغات المختلفة الى اللغة العربية ، ففي ذلك العهد نقل المترجمون كثيراً من الاعمال العلمية والأدبية من الفارسية والهندية .

واليونانية الى اللغة العربية ، وبعث الخلفاء بالنساخ الى مكتبات الدول ذات الميراث الحضاري لينسخوا لهم ما عرفت الدنيا لعهدهم من كتب ذات بال .

وصاحب حركة جمع التراث وتدوينه العناية بانشاء المكتبات العامة تفتح للدارسين وطلاب العلم، ففي بغداد أسس هارون الرشيد بيت الحكمة لتضم كل ما جمعه من مخطوطات التراث ، وخصص فيها جناحا للترجمة، وضمت بيت الحكمة كثيراً من الفنيين من خطاطين ونساخ ، ومجلدين ومذهبين .

وفي القاهرة أسس الخليفة الفاطمي العزيز بالله الذي تولى الخلافة سنة ٣٦٥ هـ مكتبة القاهرة ، وكان العزيز شديد الولع باقتناء الكتب والحرص على جمعها والاستكثار منها وبذل الأموال الطائلة لها . ويذكر المؤرخون أرقاما ضخمة لرصيد المخطوطات التى كانت تضمها هذه المكتبة .

وفي بلاد الاندلس أسس المستنصربالله مكتبة قرطبة الكبرى في قصر الزهراء المشهور وكان يبعث التجار الى الأقاليم ليشتروا له المخطوطات ليضمها الى هذه المكتبة كما كان يتتبع أنباء ما يظهر من جديد المؤلفات ونوادر المخطوطات ويسعى في سبيل جلبها الى مكتبة الزهراء . وجمع المستنصر بالله في مكتبته النساخ والخطاطين والمجلدين والمترجمين لينقلوا نوادر التراث من العربية الى الأسبانية واللاتينية .

وبجانب هذه المكتبات الرسمية الكبيرة كانت توجد مكتبات خاصة بالأمراء والقواد ورجال العلم والأعيان ، ويحدثنا التاريخ عن مكتبات أخرى يطول الكلام في الحديث عنها مثل مكتبة المدرسة النظامية ، ومكتبة سيف الدولة في حلب ، والمكتبة الظاهرية في دمشق ، ومكتبة جامعة الزيتونة في تونس ، ومكتبة جامع القرويين في فاس .

لقد وقف أجدادنا ما جمعوا من كنوز تراثنا الروحي والعلمي على خدمة العلم والدين ، وأودعوه بيوت الله اعتقادا منهم أنه في دور العبادة بمأمن من الضياع .

إن ظاهرة الحرص على تراث الأجداد كانت عامة في جميع أنحاء الوطن العربي لم ينفرد بها إقليم دون آخر ، وكان النساخ يقومون بنسخ مئات النسخ من المخطوط الواحد تلبية لطلب الخلفاء والأمراء والقادة والأعيان والعلماء . ولعل خير مثال يؤكد لنا ذلك ما حدث إبان عهد الخليفة المستنصر العلوي (٤٢٧هـ) عندما تمرد عليه الجنود الاتراك يطلبون دفع مرتباتهم وعندما عجز الخليفة عن تلبية مطالبهم أرغموه على بيع مخطوطات مكتبته ، ثم سطوا على مخطوطات مكتبة العزيز ودار العلم والجامع الأزهر وباعوا مخطوطاتها في الأسواق بثمن بخس ، واتخذ بعض الجنود من جلود المخطوطات نعالا . وبفضل إيمان كثير من المصريين بقيمة

تراثهم تطوع عدد من أهل القاهرة بشراء المخطوطات التى عرضها الجنود للبيع واحتفظوا بها في خزائنهم الخاصة صيانة لتراث العروبة والإسلام .

وفي تونس اهتم التونسيون منذ أقدم العصور بجمع المخطوطات واستنساخها فوضعوها في بيت الحكمة ، وقصور العباسية والمنصورية ، ورقادة وجامع عقبة وفي مكتباتهم الخاصة .

وكان للأغالبة فضل كبير في ذلك وخاصة في عهد ابراهيم الثاني الأغلبي الذي أرسل بعثة الى الفسطاط ودمشق وبغداد لاستقدام نخبة من العلماء الى عاصمة ملكه رقادة لينقلوا له الكتب النادرة ، كما كان يرسل الى كبار علماء القيروان لتصحيح مخطوطات مكتبته وشكلها وتفسير مفرداتها . واستمرت العناية بالتراث العربي في عهد الصنهاجيين وخاصة في عهد المعز بن باديس فقد بذل في سبيل نسخ المصاحف والكتب العلمية على الرق وتذهيبها وزخرفتها وتزويقها وتجليدها المبالغ الضخمة ، وأوقف هذا التراث الضخم على مكتبة الجامع الكبير بالقيروان .

وعلى الرغم مما أصاب المكتبة التونسية من أضرار ومحن ونكبات أدت الى ضياع العديد من المؤلفات والأسفار فإن التونسيين كانوا جد حريصين على تراث عروبتهم إما بالشراء وإما بإيداعه في أماكن لا تصل إليها يد المستعمر .

أما المغرب فقد عرف منذ قديم الزمان بكثرة خزائنه وما يضمه من مئات الألوف من المخطوطات النادرة والكتب النفيسة . واهتم الملوك الذين تعاقبوا على حكم المغرب بجمع المخطوطات والمحافظة عليها . وأهم هؤلاء الملوك السعديون ، ويبرز من بينهم المنصور الذهبي ، وكان يدعو العلماء للتأليف لخزائنه ويجزيهم بسخاء . وكان له مبعوثون في كل ناحية من نواحي العالم يبحثون وينقبون ويوجهون إليه النادر والغريب من المخطوطات العربية في شتى فنون المعرفة .

وفي فترة الحماية الفرنسية قام المغاربة بجمع المخطوطات والوثائق ووضعوا بعضها في سراديب ، وبعضها الآخر داخل جدران القصور والمباني ، وتم البناء عليها ، خوفا من سطو الاستعمار على هذا التراث النادر الثمين .

واقع التراث الراهن :

من المؤسف أن هذا التراث الضخم
الذي خلفه لنا الأجداد لا يجد العناية الكافية التى ينبغى أن نوجهها اليه في الوقت الحاضر . فميدان الاهتمام بالمخطوطات العربية وتحقيق النصوص القديمة لا يغرى سوى فئة قليلة جداً من الدارسين والباحثين ، لأن العمل في هذا الميدان ربما لا يتيح لأصحابه ما تتيحه المجالات الأخرى من الصيت والشهرة ، كما أن العمل في إحياء التراث ليس عملا هينا

يسيرا ، بل هو عمل شاق مرهق ، تحف به صعاب لا تكاد تحصى ، صعاب في فحص عناوين المخطوطات ، والتوثق من نسبتها الى مؤلفيها ومن مادتها ومضمونها ،وصعاب في مقابلة نسخها ومعارضتها على كل ما أشتق فيها من روايات فرعية واقتباسات ، وصعاب في جمع النسخ ، وصعاب في اصلاح سقطات الكلام وتصحيفات النساخ ، مع ضرورة عرض مادة النص وما يحتوى عليه من مضمون على كتب المكتبة العربية ، وكلها صعاب ما يزال المحقق لنص من نصوص تراثنا ينفق في تذليلها الأعوام الطوال حتى يصبح النص نقيا صافيا مهيئا للانتفاع به والإفادة منه .

وعلى الرغم من الجهد المخلص لهذه الفئة القليلة من علمائنا العرب الذين يعكفون على نشر تراثنا العربي بجميع فنونه وفروعه ، وما يحمل هذا الجهد في طياته من إيمان بماضينا العريق ، ومن إحكام للصلة بين نهضتنا الحاضرة وبين تراثنا الخالد ، إلا أن هذا الجهد لا يمثل إلا جدولا صغيرا من نهر تراثنا الذي تزخر به المكتبات في الشرق والغرب .

إن الجهود التى تبذلها بلادنا العربية في جمع المخطوطات وتصويرها والمحافظة عليها وتحقيقها تعد جهودا متواضعة لو قورنت بجهود علماء الاستشراق الغربيين ، ، فقد أسست كثير من جامعات أوروبا وأمريكا أقساما للدراسات الشرقية



تعلم اللغة العربية وتحث المستشرقين والدارسين على دراسة التراث العربي وتحقيقه ، كما أنشأت هذه الدول جمعيات ومجلات خصصتها للاستشراق .

إن المسئولية الملقاة على عاتقنا تجاه هذا التراث جد كبيرة ، فهذا التراث هو التراث العربي الاسلامي ، وهو تراثنا نحن وليس تراث المستشرقين ومن واجبنا أن نتحمل نحن عبء جمعه واحيائه قبل غيرنا ففائدة الاحياء تعود علينا نحن قبل غيرنا ، ومن ثم نجد أنفسنا حيال مهام اذا قسناها وقارناها من حيث الجدية والضخامة وشرف القدر والغاية بما هو حادث الآن في حقل احياء التراث ، وجدنا أنفسنا في وضع مختلف أو حال لا نحسد عليه .

وهناك جهات كثيرة يمكن أن تقوم بدورها بصورة أفضل مما هو الآن خاصة في مجال جمع المخطوطات وفهرستها والتعريف بها واختيار بعضها وتحقيقه من هذه الجهات



المجامع العلمية واللغوية ، ومراكز تحقيق التراث ونشره التى أنشأتها بعض الجامعات العربية ، وحث طلاب الدراسات العليا على القيام بهذا العمل واتخاذ تحقيق بعض المخطوطات موضوعات لرسائلهم في الماجستير والدكتوراه .

دور الاستعمار في تبديد التراث

تمتلك الأمة العربية الاسلامية تراثا كبيرا ، يمثل حلقة ضخمة من حلقات تطور الإنسانية واطراد النشاط الفكري العالمي . ويقدر عدد المخطوطات العربية الموجودة في العالم بنحو ثلاثة ملايين مخطوط على اقل تقدير .

ويتعجب المطلع على الكتب التى عنيت بحصر التراث ، وذكر أسماء المخطوطات من تلك الأعداد الهائلة التى نصت عليها ، والتى ليس لها نظير في أية حضارة من حضارات العالم . فقد حصرت تلك المصادر مئات الألوف من الكتب التى نطلق عليها اسم التراث العربي . ومما يدل على كثرة المخطوطات التى خلفها لنا الأجداد أننا حين نطالع كتب تراجم العلماء منهم نجدها تذكر الكتب التى الفوها ، والتى تعد بالعشرات أو المئات للعالم الواحد . ولكننا حينما نبحث عن الموجود منها لا نجد إلا واحدا أو اثنين ، وقد لا نجد شيئا . فمنذ عصر التدوين والمكتبة العربية يزداد رصيدها كل يوم من المخطوطات العربية ، ويكفي للمرء أن يعرف أن فهارس مكتبة الصاحب بن عباد المتوفي سنة ٣٨٥هـ بلغت عشرة مجلدات . وذكر ابن خلدون أن مكتبة الحكيم المستنصر الأموي والذي كان في قرطبة من سنة ٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ بلغ عدد فهارسها أربعة وأربعين فهرسا ، في كل فهرس عشرون ورقة ، وليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير .

ويقدر بعض المؤرخين ما أتلفه الصليبيون في (طرابلس) وحدها بثلاثة ملايين مجلد (مصطفى السباعي ، من روائع حضارتنا ١٦٢) ويحدثنا التاريخ «أن أحد الأطباء رفض دعوة سلطان بخارى للاقامة عنده في بلاطه لأنه يحتاج الى أربعمائة بعير لنقل مكتبته (جلال مظهر . حضارة الاسلام وأثرها في الترقي العالمي ٣٨٤) .

فاذا كانت الكتب في مدينة واحدة (طرابلس) نحو ثلاثة ملايين ، والكتب التى في مكتبة خاصة لواحد من الاطباء تبلغ حمل أربعمائة بعير ، فكم يبلغ ما كان في المدن الاسلامية كلها ؟

وما كان في المكتبات الخاصة كلها (عبدالعظيم الديب ، المستشرقون والتراث ، ١٩٨٦ ، ص ٦) .

ومما يؤسف له أن هذا التراث الجم الغفير تفرق في جميع أنحاء العالم نتيجة لكثير من العوامل التاريخية والإقتصادية والسياسية والفكرية التى مر بها الوطن العربي ، وما تعرضت له الأمة العربية من هجمات استعمارية من الخارج ، ومحن فكرية وثقافية في الداخل ، فقد كان للبعثات التبشيرية والتجارية والسياح والرحالة الأجانب والغزاة المستعمرين الأثر الكبير في جمع ما تضمه بلادنا من نفائس المخطوطات ونوادرها وتهريبها الى الخارج بحيث أصبحت مكتباتهم ومتاحفهم تزخر بآلاف المخطوطات التى تفتقر الى وجودها مكتباتنا . ومما ساعد على تفرق المخطوطات وتوزيعها في كثير من بلدان العالم اتساع رقعة الثقافة الإسلامية ، بحيث شملت جميع بقاع الوطن العربي والأقطار الإسلامية على ترامي المسافات وتباعدها .

واجب الأمة العربية والاسلامية نحو التراث

وواجب الأمة العربية والإسلامية وهي تسعى في الوقت الحاضر الى استعادة مكانتها الحضارية أن تحقق انتماءها الثقافي والفكري بالعناية بتراثها وجمعه والحفاظ عليه واحيائه ودراسته ، حتى تقوم حياتها الفكرية المعاصرة على أسس من جهود علمائها وأدبائها السابقين دون تفريط في امتدادها التاريخي العريق .

وإذا رجعنا إلى التاريخ في محاولة للتعرف على دور الغزاة والمستعمرين في تبديد تراثنا والقضاء عليه إما بالحرق والإغراق أو النقل إلى بلادهم تلقانا موجة زحف التتار على الشرق العربي في مطلع القرن السابع تدمر كل مظهر للحضارة الإسلامية العربية في خراسان وفارس والعراق ، وتسقط بغداد سنة ٦٥٦هـ في أيديهم ، ثم يدمرون ويحرقون بيت الحكمة والمدرسة النظامية ، والمدرسة المستنصرية ، وغيرها من المكتبات وخزائن الكتب وصروح العلم الزاخرة بالتراث العربي ، وما تبقى من ذخائر التراث العربي ألقى في نهر دجلة ، حتى ليروى أن المخطوطات العربية سدت كثرتها مجرى النهر ، وعبر الناس عليها بين شطي النهر كأنها جسر قائم وعبرت خيل التتار بين شاطىء دجلة على هذه المخطوطات التي ألقيت في النهر . كما روى ان مياه نهر دجلة ظل لونها متغيرا فترة طويلة من اثر اختلاط مداد المخطوطات بها .

وفي بلاد الأندلس منى التراث العربي بنكسة لا تقل ضراوة عما أصابه في المشرق العربي على يد التتار . فعندما سقطت الأندلس في أيدى الأسبان خربوا دور العلم وأحرقوا المكتبات والمدارس ، وحولوا المسجد الأموي بقرطبة إلى كنيسة كاثوليكية ، واتخذوا من مسجد

طليطلة اصطبلا لخيولهم . ولم يسلم من مخطوطات الأندلس التي كانت في مكتباتها أو في خزائن حكامها وامرائها وعلمائها سوى ما حمل إلى أوروبا أو حمله المسلمون الفارون إلى المغرب .

وعندما جاء الغزو الصليبي إلى الشام ومصر أحرق الغزاة من تراثنا ذخائر لا تعوض ، وحملوا منه إلى الغرب الشيء الكثير .

ولا يكاد يسلم بلد من البلاد العربية التي بليت بالاستعمار من مداهمة مكتباته والاستيلاء على ما فيها من كتب ومخطوطات ووثائق بالسلب أو السرقة أو الشراء ونقلها إلى مكتبات ومتاحف أوروبا وحفظها فيها ، حدث ذلك إبان الحملة الفرنسية على مصر ، وإبان الاحتلال الانجليزي . وحدث ذلك من سلطات الاحتلال الايطالي إبان إستعمارها لليبيا . ولم يقف الأمر عند حد نقل التراث العربي إلى الغرب بل تعدى ذلك إلى الحرق والإبادة والقذف به في مياه البحر المتوسط ، فقد روى المستشرق الايطالي أوجينو قرفيني ان سلطات الاحتلال الايطالية كانت تحمل المخطوطات والوثائق والسجلات على عربات وتقذف بها في مياه ميناء طرابلس ، وشهادة هذا المستشرق محفوظة في دار الوثائق التاريخية في طرابلس .

وفي تونس عبثت يد المستعمر الفرنسي بالتراث العربي خطفا وتمزيقا ودوسا بسنابك الخيل ، فقد تشتتت محتويات المكتبة التونسية من التراث العربي في مكتبات العالم من ذلك ما يوجد في فرنسا والفاتيكان والهند . وخرجت كثير من كتب جامع الزيتونة النادرة والتي عليها خطوط ملوك بني حفص ، أو توزعت في مكتبات الشرق والغرب .

أما في الجزائر فقد كانت صورة التبديد أقوى وأشد ، ومن مكتبات الجزائر التي نهبت من قبل سلطات الاحتلال مكتبة الأمير عبدالقادر الجزائري وجل مخطوطات هذه المكتبة التي كان ينقلها معه إبان مقاومته الاستعمار الفرنسي ضاعت في موقعة «طاكين» التي كانت بينه وبين الفرنسيين . وعرف تاريخ الجزائر الثقافي مكتبة الشيخ الحداد الجزائري ببلاد القبائل الكبرى التي استولى عليها الفرنسيون بعد ثورة سنة ١٨٧١م .

وكثير من مخطوطات المكتبة الجزائرية ضمته مكتبات أسبانيا ، وايطاليا ، وهولندا وغيرها من الدول الغربية ولكن غالبية التراث الجزائري نقل إلى فرنسا عنوة بعد مصادرته من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي للجزائر ابتداء من سنة ١٨٣٠م . ومن يرجع إلى مقدمة فانيان ، وهو أول فهرس مطبوع للمخطوطات ، الشرقية من عربية وتركية وفارسية محفوظة بالمكتبة الوطنية في الجزائر يجد أرقاما وأسماء لمخطوطات ضاعت من المكتبة وتسربت إلى فرنسا ، وذكر ان من بين الوثائق الضائعة نحو ٢٠٠ مجلد من بينها سجلان لقرارات الدايات ،



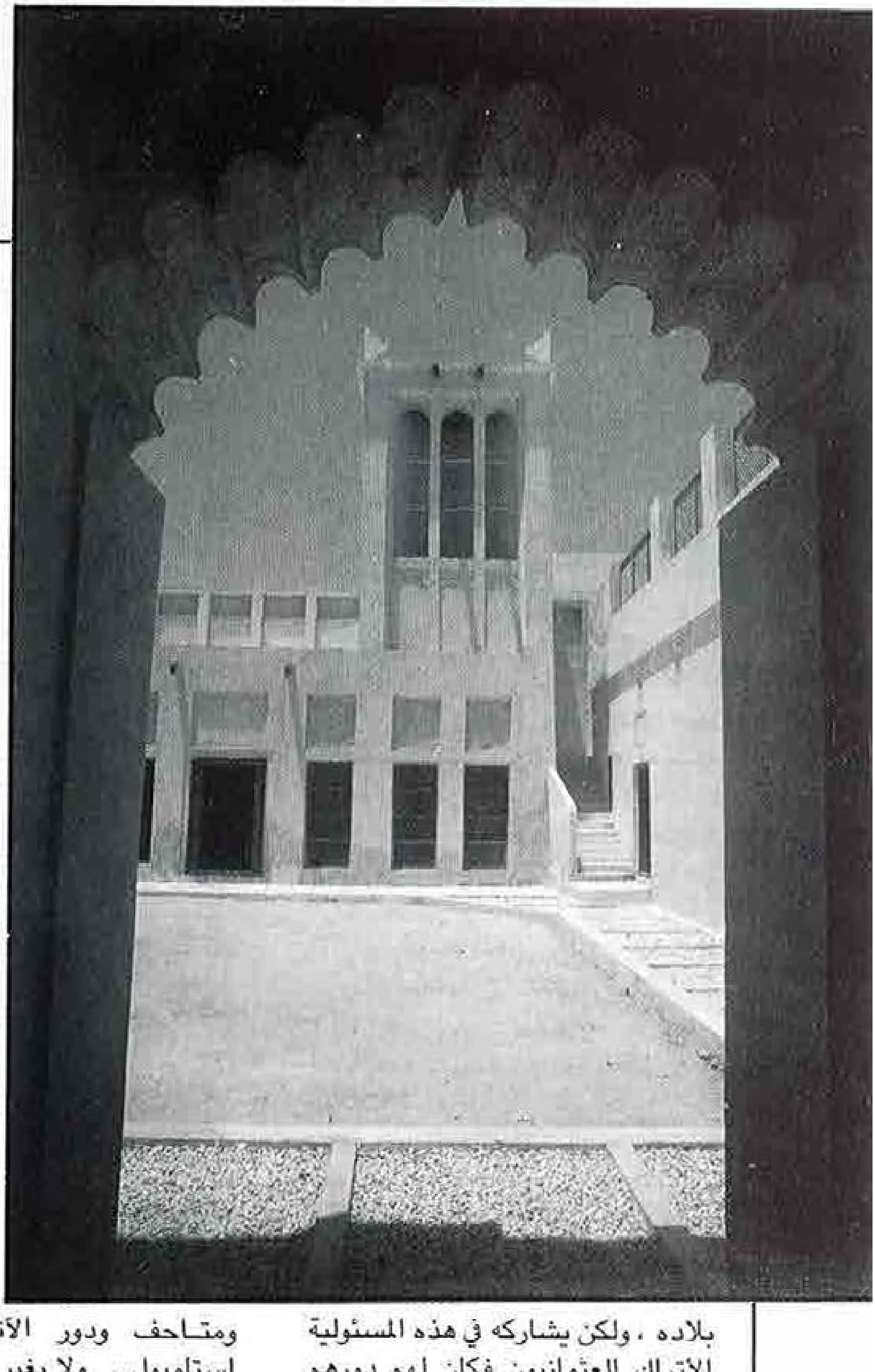
والمئات من العقود والرسائل والوثائق الادارية . وقد عثر على عدد كبير من المخطوطات الجزائرية في مكتبات أسر فرنسية كان أحد أفرادها من الأجيال السابقة التي كانت في جيش الاحتلال العسكري للجزائر .

ولم تسلم المكتبة الوطنية من اعتداء سلطات الاحتلال الفرنسي . وحدث الاعتداء أيضا على مكتبة جامعة الجزائر . وقد ثبت لأحد العلماء الجزائريين العاملين في حقل المكتبات والمخطوطات العربية خلافا لما شاع بعد استقلال البلاد ان مخطوطات مكتبة الجزائر لم تحرق مع غيرها من الكتب المطبوعة يوم أحرقت المكتبة الجامعية في السابع من يوليو سنة ١٩٦٢م ، بل نقلت كلها إلى فرنسا من قبل . وتعرضت كذلك مكتبات المساجد وخزانات الزوايا والتكايا أكثر من غيرها للنهب والسرقة . واتخذ هذا السطو أحيانا صبغة رسمية كما وقع لكتاب (العبر) لعبدالرحمن بن خلدون الذي نقل من المكتبة الوطنية الجزائرية إلى المكتبة الأهلية في باريس بأمر من الأمبراطور نابليون الثالث . واعتمد المستشرق الفرنسي دي سلان على هذه النسخة الجزائرية فيما اعتمد عليه من نسخ لنشر الجزء الخاص بشمال أفريقيا من تاريخ ابن خلدون .

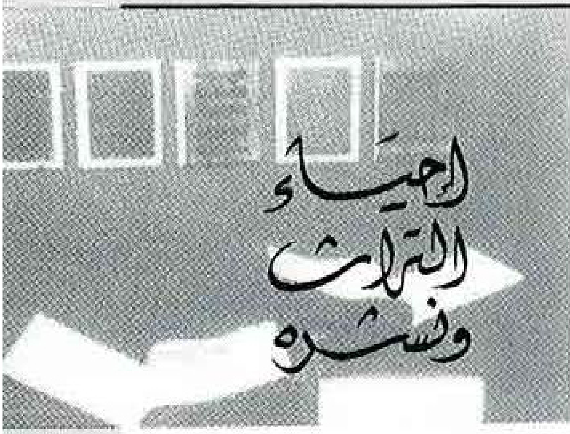
وطوال مدة الاحتلال الفرنسي للجزائر نهبت المكتبات العامة والخاصة على أيدي الضباط الفرنسيين ومساعديهم من موظفين ومستشرقين وباحثين بطرق شتى منها الضغط والتهديد والاغراء والمخادعة والشراء مقابل دريهمات معدودة .

وتعد المغرب من الدول العربية التي كانت غنية بما خلفه الأجداد من تراث عربي واسلامي كبير ، ولكن أسبانيا حينما احتلت تطوان عسكريا وشردت أهلها في حرب ١٢٦٠ - ١٢٧٢هـ ترك المغاربة وراءهم أملاكهم وأمتعتهم وممتلكاتهم الثقافية . فنقل المحتل كثيرا من مخطوطات تطوان إلى مدريد عاصمة أسبانيا ، وهذا ما يفسر وجود كثير من مخطوطات المكتبة الأهلية في مدريد من أصل تطواني . يضاف إلى ذلك ما وقع في المغرب بعد إعلان الحماية سنة ١٩١٢م من هزات عنيفة كانت سببا في تشتت كثير من المكتبات العامة والخاصة ، وانتقال محتوياتها إلى الأيدى الأجنبية .

ولم يكن الاستعمار الأجنبي لبعض الأقطار العربية وحده هو الذي نهب التراث ونقله إلى مكتبات ومتاحف



بلاده ، ولكن يشاركه في هذه المسئولية الأتراك العثمانيون فكان لهم دورهم الكبير في نقل التراث العربي من المكتبات والمساجد إلى استامبول وايداعه مكتباتها . ولا أظن أن بلداً من بلدان العالم يحوى من ذخائر التراث العربي ما تحويه مكتبات ومتاحف ودور الآثار في مدينة استامبول . ولا يغيب عن أذهاننا ما فعله السلطان سليم الأول عندما غزا مصر سنة ١٥١٧م فقد جمع كثيرا من الصناع والحرفيين المصريين والتراث العربي وبعث به بحراً إلى استامبول .



وتذهب بعض الدراسات الحديثة إلى ان حرص السلاطين العثمانيين على جمع التراث العربي والاسلامي وايداعه خزائنهم الخاصة أو مساجدهم التي تملأ استامبول وتعرف بأسمائهم وأسماء قوادهم لم يكن عن تقدير لقيمة هذا التراث والرغبة في الانتفاع به ، وإنما كان ارضاء لشهوة التملك والاقتناء ، واستكمالا لمظهرية السلطان ، وارضاء للوجدان الديني عند الجماهير المتدينة التي كان يحكمها العثمانيون باسم الاسلام .

ولا يفوتنا أن نسجل دور البعثات التبشيرية وقناصل الدول الأجنبية في البلاد العربية وقد لبسوا أقنعة خدام العلم ، ورسل الثقافة ، والمبشرين بالتفاهم والتقارب بين شعوبهم وبيننا ، وقاموا تحت هذا الستار بجمع كثير من المخطوطات بشتى الأساليب وأرسلوها إلى دولهم على مرأى من السلطات العربية الحاكمة ، وربما كان ذلك راجعا إلى قصور في قوانين الآثار المعمول بها في البلاد العربية آنذاك . ويحدونا رجاء كبير في أن يزداد وعينا لقيمة تراثنا عمقا ورسوخا فنعجل بدراسة اصدار قانون عربي لحماية المخطوطات العربية والحفاظ عليها من الاستلال الثقافي والعلمي . كما نعجل بالعمل على جمع مخطوطات كل بلد عربي في مكان واحد بعد إعدادها علميا ، وتصنيفها ، وفهرستها ، وطبع الفهرس الخاص بها ، ثم تصويرها على مايكروفيلم خشية تلف المخطوطات الأصلية او ضياعها بأية طريقة من الطرق .

أما بشأن ما تبدد من مخطوطاتنا العربية والاسلامية شرقا وغربا فضمته مكتبات أوروبا وأمريكا وروسيا والدول الاسلامية فلا سبيل إلى استرجاعه الآن ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ، والسبيل إلى جمعه والاحاطة به والتعرف عليه هو بتصويره على مايكروفيلم أو طبعه بالطرق الحديثة والاحتفاظ بالنسخ المصورة في وطننا العربي .

لماذا جمع التراث وتحقيقه ؟

وما من شك في أننا إذا كنا جادين في استئناف دورنا الحضاري التاريخي وفي استئناف احياء جامعاتنا العلمية التي أضاءت بنورها كل الغرب ، فعلينا أن نكون على وعي أصيل بقوتنا الذاتية ، ومقوماتنا الراسخة ، وما يضمه تراثنا من ذخائر علمية وأدبية وفلسفية .



ولا يمكن أن تقوم الحضارة الحديثة إلا على أسس ثابتة من أصالة الماضي لأن التراث الحضاري سلسلة متصلة الحلقات يأخذ حاضره من ماضيه ، ويضيف إليه اسهامه الجديد . ومن واجب الأبناء أن يحيوا تراث الآباء ، ويعرفوا به عن طريق تحقيقه ونشره بالأسلوب العلمي .

ولعل من أسباب العناية التي ينبغي أن توجه نحو تحقيق التراث العربي ونشره أن حرفة نسخ المخطوطات التي كانت رائجة في الماضي بدات تنقرض في وطننا العربي ، ولم تعد كما كانت تدر ربحاً وفيراً على من يشتغلون بها . وهذا التوقف في استمرار النسخ معناه بقاء المخطوطات القديمة على قدمها ، وعدم تجديدها بنسخ جديدة عنها . فإذا ضاع المخطوط القديم أو أصيب بالبلى أو التلف لا نجد نسخا أخرى منه . وتبدو خطورة ذلك إذا عرفنا أن المخطوطات العربية شأنها شأن الكائن الحي يصيبها الهرم بمرور الأيام . وقد تصيبها أمراض الرطوبة والأرضة والتسوس فتطمس كثيرا من صفحاتها وتأتي على المخطوط كله . وأمام هذا الوضع الجديد فإن الخلاص منه لا يكون إلا بنشر هذا التراث .

وسبب آخر من أسباب العناية باحياء التراث اعتماد أكثرية البحوث والدراسات الحديثة على التراث العربي الاسلامي القديم . ويخلص الباحثون المحدثون إلى كثير من النتائج في بحوثهم ودراساتهم اعتمادا على ما تضمه مصادر التراث القديمة من معلومات . ومن الخير للباحث الذي يبحث في موضوع من موضوعات المعرفة أن تتوفر بين يديه كل المصادر والمراجع القديمة التي تعرضت لموضوعه تعرضا مباشراً أو غير مباشر ، للتعرف على وجهات النظر المخالفة والآراء المتباينة التي أبداها القدماء في تناولهم للموضوع . وعلى الباحث المدقق الذي يريد أن يتحرى الصواب فيما يكتب ، وأن ينتهي إلى نتائج سليمة لا تقبل الطعن أو الشك أن يضع أمامه كل ما خلفه القدماء في مادة تخصصه من روايات ، أو أخبار ، أو أسانيد ، أو شواهد ، أو أية مواد علمية ، حتى لا تصدر أحكامه ناقصة أو جزئية خاصة في المسائل الجدلية .

مدارس ينبغي أن نحيي فكرها :

ان كثيراً من الخصائص

والقسمات الأساسية للمدارس والتيارات الفكرية التي حفل بها تراثنا العربي الاسلامي لا تزال بعيدة عنا لاننا لم نقم حتى الآن بتحقيق ونشر الموجود من هذا التراث والذي يمكن أن يعطينا الصورة الكاملة والواضحة التي تجعل لأحكامنا قيمة تذكر .

ان ما طبع ممثلا لأفكار فرقنا الاسلامية يعد قليلا جدا بالقياس إلى ما لم يطبع حتى الآن فأفكار الأشعرية والمعتزلة والخوارج لم تطبع مصادرها كلها . وأفكار المعتزلة لا تزال حبيسة المخطوطات موزعة في مختلف المكتبات ، والكثير مما طبع لم يلق العناية الكافية في التحقيق والدرس والتقديم . ولم تثر حول نصوصه المناقشات الضرورية واللازمة للاستفادة من هذه النصوص . وذلك على الرغم من قلة هذه النصوص التي بقيت للمعتزلة حيث ان الجانب الأكبر من آثارهم قد أبيد بفعل أعدائهم الفكريين والسياسيين عندما اضطهدوهم .

ويمثل الخوارج بفرقهم المختلفة في تراثنا قسمة من أهم قسمات الفكر العربي الاسلامي ، ومع ذلك نجد كل من تصدى لدراستهم يؤكد على ندرة المراجع التي رجع اليها مما يحول دون إنصافهم ، وما زلنا نأخذ آراءهم وأخبارهم ومقالاتهم من مؤلفات أعدائهم ومناهضيهم ، يحدث هذا بينما عشرات المكتبات الخاصة في سلطنة عمان وجزيرة «زنجبار» وبعض المواطن بشمال أفريقيا تزخر بالعديد من الآثار الفكرية التي كتبها علماؤهم والتي فيها رغم قلتها النسبية الكثير عن «مقالاتهم» و«فقههم» وقسماتهم الفكرية المميزة لهم ولعلمائهم وشعرائهم وخطبائهم عن بقية المدارس والتيارات .

ان نظرتنا في دراسة كثير من أدبائنا وعلمائنا ومفكرينا العرب والمسلمين لا تزال نظرة جزئية استخلصناها مما وقع بين أيدينا من نصوص لهؤلاء الأدباء والعلماء ، وليس مما بين أيدينا من «الأعمال الكاملة» لهؤلاء الرواد .

وهناك مفكرون أعلام عرب ومسلمون اختلف الناس حولهم وحول أفكارهم ، كل حسب مجموعة النصوص التي عثر عليها أو التي وجدها موافقة لما يراه ، ومن ثم فقد قدم هؤلاء الاعلام بصدد مجموعة من القضايا بصور مختلفة ومتباينة بل وأحيانا متناقضة ومتعارضة والسبيل المأمون والأمين لجلاء الحقيقة حول موقف هؤلاء العلماء والأدباء من هذه القضايا والأمور أن نطلع على أعمالهم الكاملة حول الموضوع .

وهناك جهد آخر يتصل بالأعمال الكاملة لادبائنا وعلمائنا وهو قيامنا بتجميع الرسائل الصغيرة ذات الموضوع الواحد بعد أن ألف أصحابها لبناتها المتفرقة وجزئياتها الصغرى . فهناك كثير من الرسائل الصغيرة قد تكون كلها لعالم واحد ، أو لعلماء متفرقين ومقالات متناثرة ، وأجوبة عن أسئلة ، وخطب ،

وأحاديث ، وأمالى تتناول موضوعات هامة وحيوية في فكرنا العربي الاسلامي ونجد الأغلبية من المتخصصين في تحقيق التراث ونشره يحجمون عن الاهتمام بهذه الرسائل . بينما نستطيع إذا وعينا أهمية التجميع والتأليف فيما بينها على أساس موضوعي أن نقدم مجموعة من المراجع والمصادر المهد لها بالدراسات اللازمة والضرورية تسد الكثير من الثغرات الموجودة في مكتبة تراثنا العربي الاسلامي . وقد قام في العصر الحديث المفكر الاسلامي الدكتور محمد عمارة بتجميع مجموعة رسائل في موضوع (العدل والتوحيد) للإمام الحسن البصري (٢١ ـ ١١٠ هـ) والامام القاسم الرسى (٧٨٥ ـ ٨٦٠م) والقاضى عبدالجبار بن أحمد (٤١٥ هـ) والشريف المرتضى (٩٦٥ ـ ١٠٤٤م) ، وكذلك مجموعة رسائل الجاحظ التي قام بجمعها وتحقيقها أولا السندوبي ، ثم بعد ذلك عبدالسلام هارون .

وتأتي أهمية تجميع رسائل ومقالات الموضوع الواحد وتقديمها كأثر فكري لدورها في خدمة الباحث الذي يتصدى لدراسة موضوع، معين . وتعاون هذه الرسائل في اعطاء المعالم البارزة للمدارس الفكرية المتعددة التي شهدها تراثنا العربي الاسلامي بجانب الأعمال الكاملة وبذلك نكون قد أنجزنا شيئا هاما وضروريا في ميدان احياء تراثنا العربي الاسلامي ونشره .

ويشكو كثير من الدارسين المحدثين من عدم استطاعتهم استيفاء دراساتهم بسبب نقص المصادر الأصلية في موضوعاتهم ، ويعود هذا النقص إلى تقصيرنا في نشر تراثنا العربي . فهناك قدر كبير جداً من المصادر الأصلية في كل علوم العربية لم ير النور بعد ، وما زال مطمورا في غياهب لا يعلم عنها أحد شيئا . ونتيجة لهذا التقصير في جمع التراث وتحقيقه ونشره ضاعت معالم كثير من الحقائق العلمية ، والآثار الأدبية والفكرية . وخفيت على الباحثين والدارسين كثير من الحقائق التي لا يمكن التثبت منها لعدم تيسر العودة إلى المصادر الأساسية للتأكد من مدى ما تتصف به تلك الأحكام والتصورات من صحة أو خطأ .

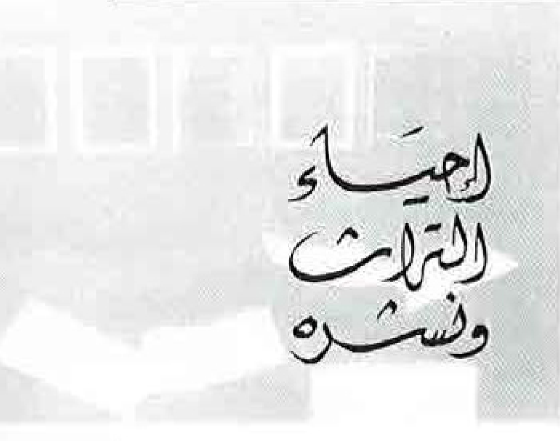
ولا سبيل إلى تلافي ذلك إلا بالعمل على تجميع المخطوطات المبعثرة في المكتبات والخزائن وضمها بعضها إلى بعض ، وبذلك يمكن لنا أن نؤرخ للثقافة العربية تأريخا شاملا دقيقا متتبعاً للتطورات المختلفة ، وقائما على اكتمال المادة بين يدي المؤرخ لا على الاستنتاج من جزئيات متباعدة .

ولا مناص من أجل التعرف على حضارة الأمة العربية والفكر العربي من جميع جوانبه من إحياء ما خلفته هذه الحضارة من أعمال فكرية . ونشر المخطوطات القديمة ، سجل ثقافتها الماضية ، ومقياس التطور الفكري فيها بالنسبة لحضارتها هي من ناحية ، وحضارات الأمم المعاصرة

لها من ناحية أخرى .

وعلى ضوء المنشور من هذه المخطوطات نستطيع أن نحدد مكان الثقافة في أمة من الأمم ومدى ما وصلت إليه ، ومقدار النقلة التي خطتها في طريق العلم والمعرفة . ومن هنا تجيء قيمة جمع التراث العربي واحيائه . وبفضل التقدم العلمي الحديث في أساليب التصوير أصبح من اليسير على المكتبات أن تقوم بتصوير المخطوطات التي ليست في حوزتها دون الاخلال بالقيمة التاريخية للمخطوطات الأصلية ، وبحقوق التملك الأثري للمكتبات والمتاحف والأفراد في مختلف أنحاء العالم ، في وقت تظل فيه المخطوطات الأصلية في أماكنها الموجودة فيها .

لقد أصبحت قضية إحياء التراث العربي قضية قومية ينبغي أن نتكاتف جميعاً أفرادا ومؤسسات ووزارات من أجل تحمل عبئها والنهوض بها . إذ من المؤسف أن تظل مكتبتنا العربية تفتقر حتى الآن إلى دائرة معارف عربية ، وإلى معجم تاريخي يؤرخ لتطور معاني الألفاظ ومدلولاتها واستعمالاتها عبر العصور المختلفة ، وذلك على غرار معجم اكسفورد في اللغة الانجليزية . كما اننا لا زلنا نفتقر إلى معجم للتراجم . ولا زلنا حتى الآن نلجأ في كثير من دراساتنا إلى دائرة المعارف الإسلامية ، وإلى المصادر الأجنبية لعدم وجود النظير في اللغة العربية . وهذا التقصير في إعداد دوائر المعارف العربية ،



إحياء التراث ونشره

ومعاجم التراجم والألفاظ يعود في جانب كبير منه إلى تقصيرنا في الاحاطة بالتراث العربي ونشره خاصة ما يضم المواد الأصلية التي نحتاج إليها في دراساتنا ، وفي إعدادنا لمثل هذه المعاجم .

عدم ترك المجال للمستشرقين :

فبعض المستشرقين الذين تصدوا لتحقيق بعض كتب التراث غيروا في النصوص كي تأتي متفقة مع ما يريدون أن يشيعوه ، فظهرت في تعليقات بعضهم ودراساتهم التي يقدمون بها بين يدي النصوص الروح الصليبية بعد الباسها ثوب البحث العلمي وخدمة الغاية الانسانية المشتركة .

من هذه التحريفات قول جولد تسيهر عن زياد بن عبدالله البكائي وكان عالما من علماء الحديث ، ومن أهل الضبط والاتقان وهو من الرواة الثقاة لكن جولد تسيهر يقول عنه : «ويقول وكيع عن زياد بن



عبدالله ، البكائي : انه مع شرفه في الحديث كان كذوبا ، ولكن ابن حجر يقول في التقريب : ولم يثبت ان وكيعا كذبه» .

ويعني هذا ان جولد تسيهر يريد أن يقول ان زيادا البكائي كان كذوبا وكي يثبت كلامه يأتي بشهادة «وكيع» أحد أعمدة علم الجرح والتعديل .

وأصل النص الذي حرفه جولد تسيهر كما جاء في التاريخ الكبير للامام البخاري : «وقال ابن عُقبة السَّدوسى عن وكيع : وهو (أي زياد بن عبدالله البكائي) أشرف من أن يكذب .. أي انه ابعد من الكذب بسجيته وفطرته وطبعه وشرف نفسه وعلوّ همته ، وسمو نفسه . ومع وضوح النص يحرفه المستشرق .

ومن تحريفات جولد تسيهر للتراث اتهامه للأمام الزهري بالوضع ومسايرة الحكام والمشي في ركابهم ، والحديث بلسانهم ويصفه بأنه التقى الصالح ويعترف بخطئه ويبرر ذلك الخطأ بأنه واقع تحت الاكراه من السلطة وهكذا بهذا الملمس الناعم يسوق تزييفه وتحريفه ، وينفثه في خفة ومهارة .

وسوف ترى التحريف المتعمد في النص كما ذكره جولد تسيهر بما يقلب المعنى رأسا على عقب . وأصل النص كما هو عند ابن عساكر وابن سعد : ان الزهرى كان يمتنع عن كتابة الأحاديث للناس .. كان يفعل ذلك ليعتمدوا على ذاكرتهم ، ولا يتكلوا على الكتابة .. فلما طلب منه هشام ، وأصر عليه أن يُملى على ولده ليمتحن حفظه كما تقدم ، وأملى عليه أربعمائة حديث ، خرج من عند هشام ، وقال بأعلى صوته : «يا أيها الناس ، إنا كنا منعناكم أمرا قد بذلناه الآن لهؤلاء ، وان هؤلاء أكرهونا على كتابة (الأحاديث) فتعالوا حتى أحدثكم بها فحدثهم بالأربعمائة حديث» .

هذا هو النص التاريخي .. يقول الزهرى ، وقد رواه الخطيب البغدادي بلفظ آخر ، وهو : «كنا نكره كتاب العلم ـ أي كتابته ـ حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء ، فرأينا ان لا نمنعه أحدا من المسلمين» .

أما جولد تسيهر فيروى النص ويأتي عند كلمة الأحاديث المعرفة بأل التعريفية ، ويجردها من أل فتتحول إلى نكرة وتصير (أحاديث) فتكون رواية جولد تسيهر على النحو التالي : «أكرهونا على كتابة أحاديث» . وهناك فرق بين أن يكون قوله كما رواه المؤرخون : «أكرهونا على كتابة

الأحاديث» أو كما رواه الخطيب «على كتابة العلم» وبين قول جولد تسيهر «أكرهونا على كتابة أحاديث» فحذف (أل) من (الأحاديث) تقلب الفضيلة رذيلة فالنص الأصلي يدل على أمانة الزهري واخلاصه في نشر العلم حتى انه لم يرض أن يبذل للأمراء ما منعه على عامة الناس المتعلمين مما جعله يقرر أن يبذله للناس جميعا ، ولكن هذا المستشرق الحقود ينسب للزهري انه وضع للأمراء أحاديث أكرهوه عليها فأين هذا من ذاك ؟.

لا ينبغي ترك المجال رحبا للمستشرقين فنحن نرى أفكار وأخبار ومعلومات أسلافنا من خلال رؤية المستشرقين لهؤلاء الأسلاف . إني أتمنى أن أرى «ابن رشد» من خلال نصوصه هو لا من خلال الدراسة التي قدمها عنه «أرنست رينان» (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢م) في كتابه (ابن رشد والرشدية) وان أرى «الحلاج» الصوفي الفيلسوف (٨٥٧ ـ ٩٢٢م) من نصوصه هو لا من خلال ما كتبه عنه «ماسينيون» (١٨٨٣ ـ ١٩٦٢م) .

للدفاع عن العرب وبيان سبقهم في كثير من العلوم :

فكثير من العلوم والنظريات والأفكار التي يدعى بعض الغربيين ان الفضل في وجودها يرجع إليهم وانها نبت غريب عن المزاج العربي والعقل الاسلامي ، في الحقيقة بدأ نبتها عند المسلمين وأخذها الغرب عنهم وهي الآن عند الغربيين امتداد ناضج وتطور وبلورة لعناصر وأفكار أبدعها أسلافنا عندما فتحوا نوافذهم الفكرية على الثقافات والحضارات التي عاصرتهم أو ورثوها .

أن الحضارة الغربية قامت على ما قدمه العرب إليها إبان تفوقهم ، وجهود فرد أو جماعة في ميادين المعرفة تمهد السبيل لظهور جهود جديدة من أفراد أو جماعات أخرى . فالفكر البشري ككائن ينمو ويتطور ، فأجزاء منه تقوم بأدوار معينة في أوقات خاصة تمهد لأدوار أخرى تالية ، فاليونان قاموا بدورهم في الفلسفة والمنطق والعلوم ، ثم جاء العرب فأتموا ما بدأه غيرهم ثم من بعدهم جاء الغربيون ، وما كان لأمة أن تسبق الأخرى ، فالفرد أو الجماعة الحاضرة تأخذ عن الفرد أو الجماعة السابقة ثم تضيف وتنقح وتجدد وتطور وتسلم إلى الفرد أو الجماعة التالية ، ووجود ابن الهيثم وجابر بن حيان وأمثالهما كان لازما وممهدا لظهور جاليليو ونيوتن ، فلو لم يظهر ابن الهيثم لاضطر نيوتن أن يبدأ من حيث بدأ ابن الهيثم ، ولو لم يظهر جابر بن حيان لبدأ جاليليو من حيث بدأ جابر بن حيان ، وعلى هذا يمكن القول لولا جهود العرب لما بدأت النهضة الأوروبية العلمية في القرن الرابع عشر .

ان الدفاع عن العرب والمسلمين يمكن أن يجد الدليل والبرهان فيما يتم احياؤه ونشره من مخطوطات

علمية لهم ، تبين ابداعهم وانهم لم يكونوا ناقلين دون أن يضيفوا ويتوصلوا إلى حقائق جديدة ، ومبتكرات لهم فيها حق الابتكار والسبق والاختراع ، بل كان في نقلهم روح وحياة فهو نقل ابعد ما يكون عن الجمود ، وخطوا في العلوم خطوات فاصلات كان لها أبعد الأثر في تقدمها ، فبعد أن أطلع العرب على ما أنتجته قرائح القدماء في سائر ميادين المعرفة نقحوه وشرحوه وأضافوا إليه اضافات هامة أساسية تدل على الفهم الصحيح وقوة الابتكار .

ان احياء المخطوطات العربية في العلوم يؤكد حقيقة هامة ذهب اليها كثير من المفكرين وهي ان العلم بدأ أول ما بدأ في بلاد الشرق وسبق المشارقة الإغريق في العلوم . يقول سارتون «من سذاجة الأطفال أن نفترض ان العلم بدأ في بلاد الإغريق فإن المعجزة اليونانية سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرهما من الأقاليم ، والعلم اليوناني كان احياء أكثر منه اختراعا» .

ومعنى هذا ان الشرق العربي كان مهدا للكثير من العلوم والمعارف ، وقد ورث العرب والمسلمون هذه المعارف والعلوم وقاموا بدورهم في تلقيها وجمعها ودراستها وهضمها والاضافة إليها ، وساهموا بذلك في ظهور النهضة العلمية الحديثة حتى قيل انه لولا الانتاج العقلي العربي لتأخر سير المدنية مئات السنين . كما قيل لولا جهود العرب لبدأت النهضة الأوروبية في القرن الرابع عشر من النقطة التي بدأ منها العرب نهضتهم العلمية في القرن الثامن للميلاد .

لقد عنى الخلفاء في الدولة العباسية بالعلوم وحرصوا على جمع التراث ودفع عجلة العلم إلى الأمام حتى ان الخليفة هارون الرشيد كان يقبل الجزية كتبا . بينما كان الخليفة المأمون يعطى وزن الكتاب المترجم ذهبا ، وأوفد المنصور والمأمون والمتوكل رسلا إلى القسطنطينية وغيرها من المدن البيزنطية للاتيان بالكتب اليونانية التي اهملها أصحابها ولم يعرفوا قيمتها ، وكان الخلفاء يرسلون العلماء إلى أعدائهم أباطرة الروم ليشتروا منهم الكتب العلمية اليونانية وخاصة كتب العلوم .

وكانت كتب علماء العرب والمسلمين في الكيمياء والرياضيات والطبيعة والفلك تدرس في معاهد وجامعات اوروبا وان كثيرا منها نقل إلى اللغة اللاتينية في ذلك الوقت في أسبانيا . وبفضل هذه الترجمات خرجت أوروبا من عصورها الوسيطة المظلمة ولولا انتقال العلم العربي إلى أوروبا لتأخرت حضارة الغرب عدة قرون . لقد ساهم العرب في مختلف العلوم في الرياضة ولا تزال كتب الخوارزمي تشهد بفضل العرب في الحساب والجبر والهندسة وحساب المثلثات . كما أسهموا في التنجيم والفلك وهم

أول من قال بكروية الأرض وتوصلوا إلى قياس محيط الكرة الأرضية في عهد المأمون ، ولا يكاد يوجد عالم من علماء القرنين الثاني والثالث الهجريين إلا وله كتاب أو أكثر في علم الفلك . وكثير من الكلمات التي تستعمل في الفلك في اللغات الأجنبية كلمات عربية دخلت بنطقها ورسمها مع تحريف بسيط مثل العقرب acrab ، والعذراء adara ، والسماك azimeck ، وبنات نعش (القائد) be-nernash (alkaid) ، وذنب الجدى deneb algedi ، ورجل الأسد regulus .



ويعد علم الكيمياء علما عربيا أصيلا نبغ فيه جابر بن حيان ، والرازي وبفضله ابتكروا صناعة





المعادن ، ومواد التجميل ، والورق ، والبارود ، والدباغة ، والأصباغ ، والشموع ، والعطور ، والزيوت النباتية ، والزجاج .

ونبغ علماء العرب في الطبيعة ودرس البيروني علة خواص المادة ، وعرفوا الأوزان النوعية لبعض المواد وقد توصل إليها البيروني والخازني . ولابن الهيثم السبق في كثير من علوم الطبيعة . كما سبق العرب في الطب . ويرجع الفضل لابن النفيس مدير مستشفى قلاوون في مصر لاكتشاف الدورة الدموية . ويرجع الفضل لابن مسكوية الذي كتب في التطور قبل داروين .

لقد ظلت كتب كثير من علماء العرب والمسلمين في الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والكيمياء يعتمد عليها علماء أوروبا حتى القرن السابع الميلادي مصادر لدراسة جوانب كثيرة من العلم ومن هؤلاء العلماء ابن سينا ، وابن الهيثم ، والكندي ، والفارابي ، وأبو بكر الرازي ، وجابر بن حيان ، والخوارزمي ، والبيرونى وكثيرون غيرهم .

ويشير إلى هذا المعنى شاعر النيل حافظ ابراهيم في قصيدته «اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها» ، فيقول بلسان اللغة :

رموني بعقم في الشباب وليتني
عقمت فلم أجزع لقول عداتي
وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدركا من
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي ؟
ارى لرجال الغرب عزا ومنعة
وكم عز أقوام بعز لغات

دعم لترجمة العلوم وتدريسها باللغة العربية :

وعندما نثير قضية استيعاب اللغة العربية للتفكير العلمي المعاصر ، وقدرتها على التعبير عن المصطلحات العلمية تجدنا في حاجة للإجابة عن هذه الأسئلة بالإيجاب إلى إحياء التراث العربي في المجالات العلمية المختلفة من طب ، ورياضة ، وكيمياء ، وطبيعة ، ونبات .. وذلك للاستفادة من المصطلحات العربية التي وردت في كتب التراث عند ترجمة هذه العلوم من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، خاصة وان المترجمين العرب حلوا مشكلة المصطلحات التي اعترضتهم عندما قاموا بنقل علوم

اليونان وفارس والهند إلى اللغة العربية في أواخر العصر العباسي . لقد استفاد المترجمون العرب آنذاك من خصائص اللغة العربية وقبولها للتطور والنمو والزيادة بالاشتقاق والمجاز والنحت والتعريب في توفير المصطلحات العلمية . وعلى مرور السنين انصهرت الكلمات المعربة في بوتقة اللغة العربية ، واشتقت منها أفعال وأسماء وصفات ومصادر حتى كأنها عربية أصيلة منذ آلاف السنين .

إن ما يدور في كتب التراث العلمية من مصطلحات لأكبر رد على ما يزعمه القائلون بفقر اللغة العربية إلى المصطلحات العلمية . والحقيقة ان اللغة العربية قادرة بأساليبها على التعبير عن أخفى الأفكار وأبهت ظلال المعاني ، وكانت لغة العلوم الطبيعية والطب في القرون الوسطى ، بل كانت الترجمات العربية الواسطة التي انتقلت بها علوم اليونان وفلسفتهم إلى أوروبا في تلك العصور .

وفيما يلي نقدم مثالا حيا على طواعية اللغة العربية وقدرتها على الاحاطة واستيعاب العلوم في الوقت الحاضر ، وانها ليست عاجزة عن ان تكون لغة العلم والابتكارات ، لغة الطب والمخترعات . وهذا المثال يتجلى واضحا في التجربة الرائدة التي حملت لواءها جامعة دمشق ، منذ ما كانت الجامعة السورية ، ولم يكن فيها آنذاك غير معهدين احدهما للطب والثاني للحقوق . فقد قام في المعهد الطبي العربي ، منذ تأسيسه عام ١٩١٩ أساتذة نبشوا الكنوز اللغوية التي ألفت بها كتب الطب القديمة ، كقانون ابن سينا ـ وكامل الصناعة ، ومفردات ابن البيطار ، وتذكرة داود وغيرها من الكتب العلمية أو اللغوية ، ووجدوا فيها ضالتهم لاختيار المصطلحات العلمية ، ومع أن معظم الأساتذة الذين اختيروا للتدريس في هذا المعهد (الذي أصبح كلية فيما بعد) كانوا ممن تلقوا العلم في المعاهد التركية أو الفرنسية فقد شمروا عن ساعد الجد والعمل ونفذوا إلى صميم المعاجم المختلفة ووضعوا كثيرا من المصطلحات العلمية التي لم تكن موجودة .

(والآن وقد مضى على تأسيس كلية الطب أكثر من خمسين عاما ، نجد أن أساتذة هذه الكلية ، قد وجدوا بين أيديهم ذخيرة لغوية ثمينة ، أغنوا بها خزانة الكتب الطبية العربية ، بما لا يقل عن ثمانين مجلدا في فروع الطب المختلفة .

دعم للغة العربية :

لان اللغة العربية لغة التراث شعره ونثره ، واحياؤنا للتراث احياء للغة العربية ، فقد كتب الشعراء والكتاب والخطباء شعرهم ورسائلهم وخطبهم باللغة العربية الفصحى . ونحن العرب عندما نقوم بتحقيق ديوان شعر او كتاب أدب ، او لغة ، أو نحو ، أو كتاب في التفسير أو الحديث أو الفقه نكون قد أضفنا إلى اللغة العربية دماءً

جديدةً تساعدنا على السير في طريق كشف أسرارها وسبر أغوارها . ومعرفة المفردات والتراكيب الفصحى التي كان يستخدمها العرب إبان ازدهار اللغة العربية .

إن تحقيق كتب اللغة يبرهن على ثراء اللغة العربية لانها تقتنى ثروة طائلة من الأصول الثلاثية والرباعية ، والخماسية ، وتضم نظاما متكاملا لا يختل في الاشتقاق ، ونظاما متطورا في النحت ، بحيث تضارع غيرها من اللغات الكبيرة .

إن دعمنا للغتنا العربية ، واصرارنا على احياء تراثها اصرار على اثبات وجودنا العربي ، وعلى سيرنا في طريق وحدتنا وتضامننا ، فإن لم تقم الوحدة السياسية بين الأقطار العربية في وقت قريب ، فإن الوحدة اللغوية والثقافية هي المسعى الضروري ، الذي يجب أن يكون قريبا . ولن تتم هذه الوحدة إلا بالمحافظة على اللغة ودعمها ، واستخدامها في كل مجال ، فذلك يؤدي إلى وحدة الشعور والفكر ، والاتجاه بين العرب ، وتلك خطوة لازمة لمن يسعى نحو الوحدة السياسية .

هل نقوم بتحقيق كل التراث ؟

ليس من السهل على أي جهة أو باحث أن يقوم بتحقيق كل ما يقع تحت يده من كنوز التراث ، فالتراث فيه الغث وفيه السمين ، لذلك لا بد من اختيار النصوص التي نقدمها لأجيالنا الحاضرة والمستقبلة ، فنشر كل آثار الأولين عمل ضخم جدا لا يفكر فيه أحد بسبب المصاعب المادية ، واستغراق هذا العمل لسنين طوال يتحول فيها فكرنا الحاضر إلى تراث ، ولاقتناع الجميع ان في هذا التراث الكثير من النصوص الضارة ، والمعوقة ، والتي لا ضرورة لاحيائها ، وبذل الجهد والمال والوقت في تقديمها إلى الناس بينما هناك جوانب مفيدة هي التي يجب احياؤها وبعثها من جديد .

وعملية الاختيار ليست في حد ذاتها عملية سهلة فهي مسئولية وأمانة وقديما قالوا : «ان اختيار المرء قطعة من عقله» . ومسئولية الذين يختارون نصوص التراث ويحققونها وينشرونها بنفس درجة مسئولية الذين يبدعون ويؤلفون . فناقل الكفر ضالع ومتهم وليس بالبريء .

ومن المهم أن نحرص في اختيارنا على الأعمال التي تمثل الجوانب المتقدمة والمستنيرة لفكر العصر الذي نشأ فيه المؤلف . ونقدم أعمال المبرزين في الموضوعات المختلفة والتي تمثل المعالم والقسمات الرئيسية للتراث وما يضمه من تيارات فكرية ، ومدارس .

إن احياء التراث ينبغي أن يبعد عن التعصب لفرقة أو مذهب سياسي أو ديني أو حزبي . وبذلك يدرك المحقق أن فروق الأمس التي باعدت بين الناس ليست هي الفروق التي تباعد أو تقارب بين الانسان المعاصر

احياء التراث ونشره

وأخيه الانسان . ان الكثير من صفحات هذا التراث التى تتوزعها آثار الفرق المختلفة والمذاهب المتعددة لو أحسن اختيارها واحياؤها وتقديمها والاستفادة منها لأمكن لهذا التراث ان يتحول إلى زاد يبلور للأمة شخصيتها المتحدة والمتميزة بدلا من ان يستخدم كما هو حادث الآن في اذكاء روح الخلافات ، وبعث الحزازات التي تخطاها التطور ، وعفا عليها الدهر منذ قرون .

ان اختيارنا ينبغي أن يتفق مع كل ما يدفع من نصوص إلى التطور إلى الأمام في الاتجاه الذي يخدم قضية حرية الانسان ورخائه ، وكل ما يضيف جديدا نجهله ، ويترتب على معرفته تقدم الانسان ورخاؤه وتطوره .

ان عملية الانتقاء والغربلة مطلوبة قبل البدء في التحقيق ، خاصة وان تراثنا العربي الاسلامي لم يخل من الانتحال والوضع والدس فليس كل ما رواه الرواة يعد صحيحا بل لا بد من التثبت والاطمئنان إلى سلامة الراوي ومعرفة رأي القدماء فيه خاصة وان كثيرا من العلماء القدامى تعرضوا لبعض الرواة وبهرجوهم ، وزيفوا ما جاءوا به من مرويات . وقد عرفت هذه الظاهرة في تاريخ الشعر العربي باسم «الانتحال» واشتهر من بين العرب رواة عرفوا بالوضع مثل محمد بن اسحاق بن سيار ، وخلف الأحمر . وعرفنا في تاريخ الفكر الاسلامي ظاهرة وضع الأحاديث التي سميت بـ «الأحاديث الموضوعة» خاصة وقد كثر وضع الأحاديث كثرة هائلة بعد انتشار الفتوح الاسلامية ، واتساع رقعة الدولة ، ودخول كثير من الأمم في الدين الاسلامي ، ولا سيما وان كثيرا ممن دخلوا في الدين الاسلامي دخلوا بألسنتهم لا بقلوبهم ، ولأسباب كثيرة حدث وأسندوا إلى الرسول ﷺ أحاديث لم يقلها ونسبوها إليه ، ولا أدل على استفحال الوضع من أن البخاري اختار أحاديثه وهي لا تعدو سبعة آلاف من ستمائة ألف حديث كانت متداولة في زمنه .

وقد وقفت بعض الدوافع وراء بعض الوضاعين الذين كانوا يضعون الأحاديث مثل الخلافات السياسية بين الأحزاب التي كانت تتناحر في سبيل الخلافة ، والتي دفعت كل حزب لافتعال الأحاديث تأييداً لمذهبه ، ومثل العصبية القبلية والقومية ، وتنازع قبائل العرب الرياسة



والمكارم ، فكانت كل قبيلة تضع الأحاديث في بيان فضائلها وتفوقها على القبائل الأخرى ، مثل الأحاديث التي وضعت لبيان فضل العرب على العجم ، والأحاديث التي وضعت لبيان فضل العجم ، وعلى هذا النحو كانت كل أمة تضع الأحاديث التي ترفع من شأنها وتعدد فضائلها . ومن ذلك أيضاً الأحاديث التي وضعتها الفرق الإسلامية لتأييد كل فريق لمذهبه . ومن ذلك الأحاديث التي وضعها الموالي وغير الموالي ممن اعتنقوا الدين الإسلامي كارهين ، وقد أضمروا في أنفسهم كراهيتهم ، وسوء نيتهم ، فأخذوا يضعون الأحاديث للتشنيع على الدين الإسلامي ، وقذفه بالترهات والأباطيل . وهناك فريق من الأتقياء والوعاظ وضع مجموعة من الأحاديث للترغيب والترهيب وأباح لنفسه ذلك بحجة ان هذه الأحاديث لا يقصد بها تحريم المحلل ، وتحليل المحرم ، ووجد بعضهم الا بأس عليه في وضع اسناد لكل كلام حسن ، ومن هذا الطريق جاءنا عدد وافر من الأحاديث المكذوبة ، وهناك أسباب أخرى للوضع منها حب التقرب من ذوى المكانة والسلطان فوضع الوضاعون بعض الأحاديث رغبة في حب التقرب من ذوي المكانة والسلطان وارضاء لهم ، كما وضعت بعض الأحاديث رغبة في الاغراب والاطراف .

وقد مر تدوين الحديث بعدة محاولات منها المحاولات التي كانت في عهد عمر بن الخطاب ، ثم في عهد عمر بن عبد العزيز ، وفي عهد المنصور قام الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) بجمع طائفة من الأحاديث في كتابه «الموطأ» .

وفي القرن الثالث ظهر حذاق المحدثين والناقدين الذين وضعوا أصولا دقيقة ميزوا فيها الأحاديث الصحيحة والمكذوبة ، وأشهر الكتب المؤلفة في هذا العصر صحيح البخاري (ت ٢٥٦هـ) ، وصحيح مسلم (٢٦١هـ) وسنن أبي داود (٢٧٥هـ) وسنن النسائي (٣٠٢هـ) وجامع الترمذي (٢٧٩هـ) وسنن ابن ماجة (٢٧٣هـ) وهذه الكتب الستة تعد أصح كتب الحديث ، ويضاف إليها مسند الإمام أحمد (٢٤١هـ) .

ولتمييز الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الموضوعة نظر المحدثون والحفاظ في الحديث من طريقين :

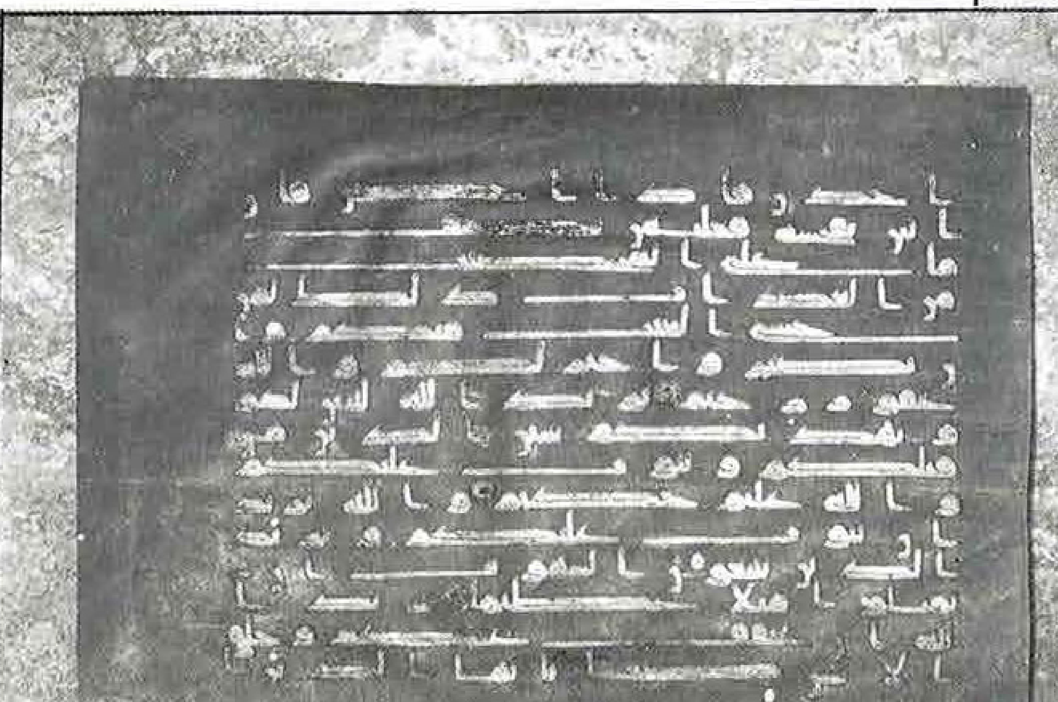
الأول : طريق السند وهم الرجال الرواة للحديث .

الثاني : طريق المتن وهو نص الحديث نفسه .

فنظروا في رواة الحديث هل هم جميعا من الثقاة العدول المعروفين بصدق الرواية أو ان منهم من عرف بالكذب والوضع ، وخرجوا من هذا النظر ببحث سموه علم «التجريح والتعديل» درسوا من خلاله حياة كل راو ، ومقدار حفظه ، وهل هو أهل للثقة بحيث تؤخذ عنه مروياته أم لا ، فأسسوا لنا علماً جليل القدر لا يوجد مثله عند غير المسلمين لا في القديم ولا في الحديث .

وقد كلف هذا المنحى في دراسة أحوال الرواة وثقتهم وعدالتهم وضبطهم أو كذبهم وغفلتهم ونسيانهم العلماء كثيراً من المشاق لأنه يتطلب منهم دراسة عشرات الألوف من الرواة مع كل ما يتصل بهم .

وقد كان العلماء منهجيين في دراستهم متجردين من كل غرض شخصي واضعين خدمة الإسلام وسنة



نبيه فوق كل اعتبار . فهم يفحصون كل راو فحصاً دقيقاً ، فاذا توصلوا إلى نتيجة أعلنوها صريحة ، مهما كانت صلتهم بالراوي فقالوا هذا ثقة أو عدل ، أو لا بأس به ، أولين الحديث ، أو كذاب ، أو رديء الحفظ ، أو ضعيف الذاكرة ، وما أشبه ذلك . وكان القصد من هذا العلم التأكد من صحة الأحاديث النبوية ، وقد حصل هذا المقصود بهذا العلم الجليل تمييز السنة النبوية من غير الصحيح .

ويعني ما سبق اننا نختار للتحقيق في كتب الحديث ما جاء من أحاديث مرويا عن رواة ثقاة عدل عرفوا بسلامة مروياتهم وبعدهم عن الوضع والكذب لتحقيق غرض من الأغراض .

ان كتب التراث ليست كتبا مقدسة فقد كتبها بشر منهم العلماء الكبار ومنهم التلاميذ . كما ان أعداء الاسلام من الاسرائيليين حرصوا منذ زمن مبكر على ادخال تحريفات على متون كتب العلماء فعلوا ذلك في كتب التفسير ، وفعلوا ذلك في كتب الحديث .. حيث ادخلوا بعض الأحاديث الموضوعة . فمن الأحاديث الموضوعة التي أدخلوها في الكتب :

ـ ان سيدنا موسى عندما جاء ملك الموت ليقبض روحه صكه ففقأ عينه .

ـ ان الله اشتكت عيناه فعادته الملائكة .

ـ ان الله لما أراد أن يخلق نفسه خلق الخيل وأجراها فعرقت فخلق نفسه منها .

ـ ان الله لما خلق الحروف سجدت الباء ، ووقفت الألف .

ـ الباذنجان شفاء من كل داء .

ـ إن الله اذا غضب أنزل الوحي بالعربية ، وإذا رضى أنزل الوحي بالفارسية .

ـ إن الأرض على صخرة ، والصخرة على قرن ثور ، فإذا حرك الثور قرنه تحركت الصخرة فحركت الأرض وهي الزلزلة .

ـ أربع لا تشبع من أربع : أنثى من ذكر ، وأرض من مطر ، وعين من نظر ، واذن من خبر .

ـ من أكل الأرز أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .

ـ لا تقطعوا الخبز واللحم بالسكين كما تقطعه الأعاجم ولكن انهشوه نهشا .

وحتى في كتب الفقه نحن في حاجة إلى أن نختار لان بعض كتب الفقه دخلتها مسائل كثيرة عندما نقررها على الطلاب قد تضر ولا تنفع وتشغل فكر الطالب ووقته عن غيرها من مسائل فقهية أخرى خاصة وان هذه المسائل تعد من باب الترف العقلي الذي كان عليه بعض العلماء ولم يعد الانسان بحاجة إليه الآن ، وبعضها افتراضات عقلية مستحيلة التحقيق ، وفيها تفاصيل واسعة فيما لا يحتاج إلى تفصيل وفيما يلي بعض هذه النماذج :

١ ـ لو استاك المرء بأصبع غيره وهي خشنة أجزأه ذلك ، قاله في شرح المهذب وفي إصبعه خلاف ، والراجح



في الروضة لا يجزىء ، والراجح في شرح المهذب الاجزاء ، وبه قطع القاضي حسين ، والمجاملى ، والبغوى ، والشيخ ابو حامد ، واختاره الدرياني في البحر . فانظر كيف شغل هؤلاء العلماء جميعاً أنفسهم بهذه المسألة الساذجة التي لا يعقل أن تحدث على مر السنين .

٢ ـ لو غرز الصائم سكينا في ساقه لم يفطر ، ولكن لو غرزها في جوفه فإنه يفطر .

٣ ـ لو أدخل الصائم بعض خيط في جوفه قبل الإمساك في رمضان ، أو بلعه ، وبقي البعض الآخر خارج الجوف فإنه يفطر إذا شد الخيط أو أخرجه من جوفه لانه ضرب من القيء ، ويفطر كذلك إذا ابتلع الجزء الخارجي ، وإن ترك الخيط لم تصح صلاته لاتصاله بالنجاسة في جوفه والطريقة إذن أن ينزع الخيط من فمه وهو نائم ، أو يجبره الحاكم على اخراجه فيكون قد أخرجه مكرهاً .

ومع الفروض وجدت الحيل التي تحارب روح الإسلام ولنضرب لذلك مثلين :

١ ـ إذا أراد المالك أن يتخلص من دفع الزكاة فإنه يهب أمواله لزوجته قبل أن يحول الحول ، وترد الزوجة المال لزوجها قبل أن يحول الحول على ملكيتها للمال ، وهكذا ، وعلى هذا لا تجب الزكاة على أي منهم .

٢ ـ إذا أراد أن يأخذ ربا عن قرض فإنه يبيع للمقترض شيئا يملكه بثمن مرتفع ويقبض الثمن ثم يشتريه من المقترض بثمن منخفض ، ويبقى له الفرق ويمنحه القرض بعد ذلك بدون زيادة ، لأنه أخذ الزيادة مقدماً عن طريق ذلك البيع .

وينبغي أن نقف من تعليقات بعض المستشرقين على بعض كتب التراث التي نشروها موقف الناقد وخاصة في مقدماتهم التي كتبوها بين يدي النصوص . ففي كثير من كتاباتهم دعوة إلى التشكيك وزرع للفتن ولكن ذلك لا يخفى على أريب ولله در أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور حين قال : «إنه ما أسر أحد معصية قط إلا ظهرت في آثار يده أو فلتات لسانة» . وأسلوبهم ومداخلهم فيها ذكاء .. فهم يذكرون العيب فيمن يقصدونه ويذكرون بجانبه عشرة محاسن ، ليست لها أهمية كبيرة كي يقف القارىء خاشعا أمام سعة قلوبهم وسماحتهم ويسيغ ذلك العيب الواحد الذي يكفي لطمس جميع المحاسن .

وكثير من هؤلاء المستشرقين يَدُسُّون في كتاباتهم مقداراً خاصا من



«السم» ويحترسون في ذلك فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم حتى لا يثير ذلك في نفس القارىء الحذر، ولا تضعف ثقته بنزاهة المؤلف .

ان كتابات هؤلاء وتعليقاتهم على كتب التراث أشد خطرا على القارىء من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون العداء، ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء، ويصعب على رجل متوسط في عقليته أن يخرج منها أو ينتهي من قراءتها دون الخضوع لها .

وإذا مضينا ننظر في اختيارات بعضهم من كتب التراث نجد اهتماما بموضوع الفرق الاسلامية ونشأتها وما ثار بينها من خلاف واتجاهاتها الفكرية المتعارضة، وكأنهم يريدون لهذه الخلافات أن تظل حية متأججة تشغل الأمة الاسلامية، وتستهلك قواها، وتستحوذ على فكر علمائها، ولب قادتها فتضرب بينهم الفرقة، وينشأ الخلاف، وللأسف فإن كثيرا من ذلك حدث . وفيما يلي بعض أسماء هذه الكتب التي حققوها :

- أخبار الحلاج الحسين بن منصور ت ٣٠٩ - ٦٢٢م . نصوص قديمة جمعها ماسينيون .
- الطواشين للحلاج .
- المنتقى من كتاب الرهبان لأبي الدنيا .
- الأئمة المستورون للمهدي عبدالله .
- تنقيح الأبحاث للملل الثلاث لابن كمونة اليهودي سعد بن منصور (٦٨٣هـ - ١٢٨٤م) .
- رسالة راهب من فرنسا إلى المقتدر بالله
- الديا سطرون أو الانجيل الرباعي ألفه باليونانية ططيانس، وترجمه ابن الطيب البغدادي .
- مثالب عليّ بن أبي بشر (أبي الحسن الأشعرى) للأهوازي الحسن بن علي بن إبراهيم المقرىء (٤٤٦هـ - ١٠٧٤م) .
- رسالة في الحكمين وتصويب أمير المؤمنين عليّ في فعله للجاحظ .
- تعبير الرؤيا - أرطاميدوس، نقله إلى العربية حنين بن اسحاق (٢٦٠هـ - ٨٧٣م) .
- الحيل (في الفقه) للخصاف أبو بكر أحمد بن عمرو (٢٦١هـ) .
- ديوان أبي نواس .
- المفاخرة بين الجواري والغلمان .
- كتاب ألف ليلة وليلة .
- كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .

لقد قام المستشرقون بتحقيق «ألف ليلة وليلة» وطبعوها طبعات متوالية،

وأجروا حولها بحوثا ودراسات جعلوها لنا زاداً وصوروا لنا هذه القصص الخرافية كأنها حقيقة حدثت وانها الصورة الحقيقية لحياة المسلمين وقادتهم في العصر العباسي ، وحثوا الدارسين أن يرجعوا إليها لرسم صورة تاريخ آبائهم وأجدادهم حتى شرد خيال أحد الكتاب فكتب يقول : «كان هارون الرشيد إذا صعد على الدرج في قصره يصطف له صفان من العذارى على الجانبين ، وهن عاريات الصدور ومتعطرات متبرجات بزينة حتى يتكىء بيده على النهود» .

ومما يدل على احتفاء المستشرقين بألف ليلة وليلة حشدهم هذا العدد الضخم من المستشرقين ليكتبوا مادتها في دائرة المعارف الاسلامية بين دراسات وترجمات مما استغرق ٣٥ صفحة كاملة .

ويتألم المرء أن تقرر احدى كليات الآداب في جامعة عريقة في وطننا العربي قصة الف ليلة وليلة الحقيقية على الطالبات لدراستها وعندما يشكو والد احدى الطالبات من تكليف ابنته بدراستها وما في القصة من أدب مكشوف ومواقف عهر وفجور يثور أستاذ المادة ويسب ويشتم ويتهم كل من يخالفه رأيه في دراسة هذا الفجور بالجهل بالتراث .

ان هارون الرشيد الذي صوره هؤلاء المستشرقون في كتاباتهم بصورة الخليفة الفاجر المنحل كما جاء عن ول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) . وكما جاء عند مرجليوث في كتابه (محمد ومطلع الاسلام) وما حاولوا أن يروجوه من قاله سوء عن علاقته بجعفر البرمكى لم يكن كذلك ، فهارون الرشيد قام بغزوات كثيرة ، وبنى وعمر ، ونشر العلم والحضارة والنور ، وقاد الجيوش بنفسه وكان يقضي الشهور بملابس الميدان ، وهو الذي أذل اباطرة الروم حتى مات مجاهدا ودفن في طوس على أطراف دولته .

أما عن كتاب الأغاني فقد قام المستشرقون بتحقيقه وطباعته واخراجه ونشره ، كما قاموا بعمل دراسات وأبحاث حوله . ومع تسليمي بقيمة كتاب الأغاني من الناحية الأدبية وكونه مصدرا من مصادر دراستنا للأدب العربي من بعض جوانبه ، إلا اننا لا ينبغي أن نأخذ كل ما جاء منه على أنه روايات لا يأتيها الباطل . أو أن ندرس تاريخ الفكر من فقه وتفسير وعقيدة من خلال روايات الأغاني بحيث يستند إلى رواياته من يطعنون في رواة السنة وفتاوي الأئمة ، وآراء الفقهاء ، وأحكام القضاة .

وما ورد في كتاب الأغاني من لهو وعبث ومجون لا يمثل الأمة الاسلامية جميعها إنما يمثل بعض طوائف الفاسدين وهم في كل مجتمع من المجتمعات . خاصة وان بعض علماء الرجال طعنوا في روايات أبي الفرج الأصفهاني وقالوا : «كذاب يأتي بالعجائب والغرائب بحدثنا وأنبأنا» .

وتحدثوا عن نزعته الشعوبية وأهوائه المذهبية وذكروا أن معظم ما في الكتاب أكاذيب وأخبار ملفقة وروايات منتحلة ساقها المؤلف للتسلية والمتعة ، وليس لها من السند العلمي أساس

إن كثيرا من رجال الجرح والتعديل يضعون مؤلف الأغاني مع الكذابين وأصحاب الأهواء والمذاهب الباطنية الذين يهدفون إلى هدم قيم الاسلام وتشويه تاريخ المسلمين والنيل من السلف الصالح .

وقد نص بعض القدماء على كذب الأصفهاني . قال الخطيب البغدادي حدثني أبو عبدالله الحسين بن محمد بن طباطبا العلوي قال : سمعت أبا محمد الحسن بن الحسيني بن النوبختي يقول : كان أبو الفرج الأصفهاني اكذب الناس ، كان يشتري شيئا كثيرا من الصحف ثم تكون كل رواياته منها» .

وقال هلال بن المحسن الصابى : «كان الأصفهاني وسخا قذرا» . وقال ابن الجوزى «ومثله لا يوثق بروايته» . يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق ، ويهوّن شرب الخمر ، وربما حكى ذلك عن نفسه ، ومن تأمل كتاب الأغاني رأى كل قبيح ومنكر» .

وقال الشيخ الذهبي : «رأيت شيخنا تقى الدين بن تيمية يضعفه في نقله ، ويستهول ما يأتي به» .

وفي العصر الحديث ذكر الدكتور محمد أحمد خلف الله ان الاصفهاني أخذ عن الكذبة . ويقول الاستاذ وليد الأعظمى : ان ثمة كتب سخيفة كاذبة هادمة ، امتلأت صفحاتها بالمخازى والمجون ، والمفاسد والمباذل والفضائح تحت ستار الأدب والسمر والغناء ، وجمع كل خبر مهما كانت درجته من الصدق أو الكذب ، وأبو الفرج الأصفهاني من أبرز هؤلاء المتسترين تحت ظلال الأدب والأخبار والحرص على تدوين ما سمع وقرأ فترى الأعاجيب في كتابه الأغاني ، وهو يجمع في سنده بين الثقاة والكذابين وبين الزهاد والفساق والصالحين الأبرار والطالحين الأشرار ونحن نعلم ان الكاذب قد يروى عن الصادق والثقة ، ولكن الصادق الثقة لا يروى عن الكاذب أبدا .

ان كتاب الأغاني طافح بالأخبار التي تسيء إلى آل البيت النبوي الشريف وتجرح سيرتهم وتقدح في سلوكهم وتهون أمرهم وشأنهم ، وتجعل منهم عشاق اللهو والطرب والعبث .

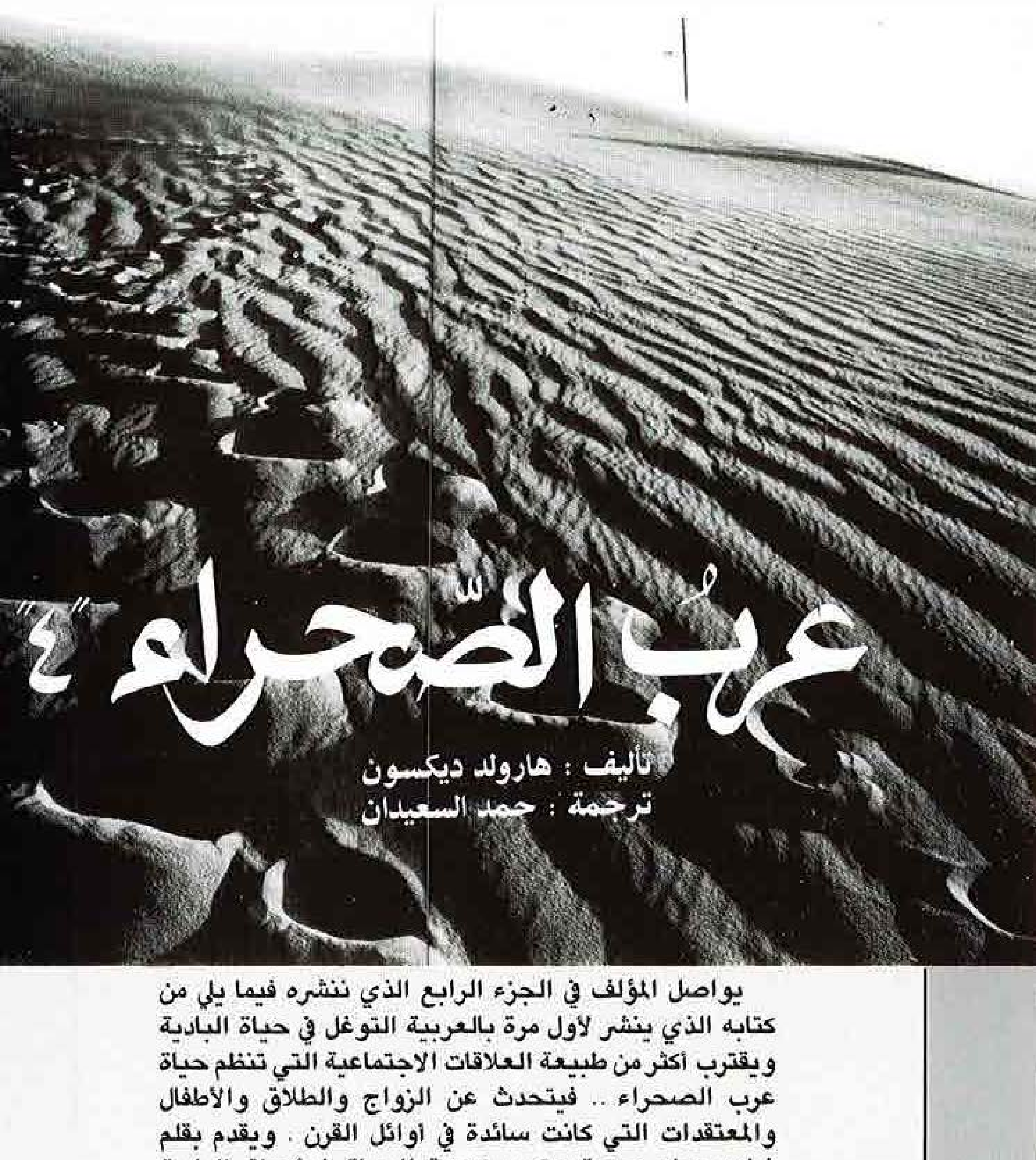
ولا يرضى كل مسلم غيور وعربي أصيل بهذا الغثاء الذي ورد في كتاب الأغاني.

وعلى الرغم من كل ما قدمت فلا أستطيع أن أقطع بأن كل المستشرقين كانوا ضد التراث فمنهم من خدم التراث ، واجتهد في جمع المخطوطات والنسخ المتعددة لكل كتاب من مصادر مختلفة في أنحاء العالم ولكل هؤلاء الشكر على ما قدموه للغة العربية وما علينا الا أن

نلتقط الخير من مؤلفاتهم وتحقيقاتهم متنبهين إلى مواطن الدس والتحريف لنتجنبها أو لنكشفها أو لنرد عليها لان الحكمة ضالة المؤمن ان وجدها فهو أحق بها .

الدكتور محمد عبدالقادر
جامعة البحرين

*****



عرب الصحراء ٤

تأليف : هارولد ديكسون
ترجمة : حمد السعيدان

يواصل المؤلف في الجزء الرابع الذي ننشره فيما يلي من كتابه الذي ينشر لأول مرة بالعربية التوغل في حياة البادية ويقترب أكثر من طبيعة العلاقات الاجتماعية التي تنظم حياة عرب الصحراء .. فيتحدث عن الزواج والطلاق والأطفال والمعتقدات التي كانت سائدة في أوائل القرن . ويقدم بقلم شاهد عيان صورة ميكروسكوبية للحياة في أعماق البادية العربية . ويهمنا ان نؤكد هنا وللمرة الثانية ان المؤلف اجنبي عاش في البادية سنين طويلة .. ولكن رغم هذه المعايشة فيجب ان يكون ماثلا في الذهن انه ينتمي الى مجتمع مخالف وبيئة مختلفة وان رؤينه للأحداث لا بد وان تكون من هذا المنظور .

(الوثيقة)

قبيلته فحلّ قتله . ففي عام ١٩٣٢ اطلق عبد لفالح بيك السعدون النار على عبدالله بيك الصانع وأرداه قتيلا لمحاولته الزواج من ابنة رئيس وزراء العراق الذي يعود نسبه الى الأشراف لأن الصانع بالرغم من وصوله الى منصب حاكم بغداد إلا انه ليس من طبقته الاجتماعية . وقد أيد هذا العمل كل عربي أصيل ووافق عليه .

وعليه فطبيعي ان يكون من المستحيل زواج انجليزي من فتاة تنحدر من الاشراف حتى ولو تحول الى الاسلام . وان حدث وسُمح له بذلك وهو أمر نادر فلا يمكن مطلقا اخراج زوجته من قبيلتها وعليه أن يحيا حياة البدو ويعيش مع أهلها . وهذا ما حدث مع الحاج ويليامسون ضابط المخابرات البريطاني المعروف في الحرب العالمية الأولى والذي تزوج فتاة من قبيلة الظفير وعاش مع عشيرتها .

وزواج أبناء العمومة بين البدو عُرف معمول به . وتكون الفتاة حقا مشروعا لإبن عمها إلا اذا تنازل ابن العم عن هذا الحق بإعطائها ورقة تفيد بعدم رغبته في الزواج منها . ولا يستطيع والداه ولا والدي الفتاة حرمانه من هذا الحق . وإذا حدث وأخلى سبيلها فلا يمكنها الزواج من غيره إلا بإذنه . فإذا خرقت الفتاة هذه القاعدة أو حاول أهلها تزويجها من شخص آخر فإن ابن عمها يقتلها بدون أن يكون مطالباً بدفع ديّة دمها .

والغرض من زواج أبناء العمومة هو المحافظة على تماسك العائلة وهي طريقة أثبتت جدواها حيث تضمن وجود زوج لكل فتاة تبلغ سن الزواج . ولكن هذا العرف قد أدى الى الظلم عند العرب الأكثر تمدنا حيث مانع الإخوة تزويج اخواتهم خشية فقد ممتلكات العائلة وهو الحال بين آل السعدون في العراق بصورة خاصة . إذا نما الى علم أحدهم ان ابنة عمه على غرام مع شخص آخر فإنه يمنع زواجها من ذلك الشخص وقد تموت الفتاة وهي عانس .

وإذا توفى والد الفتاة وهي راغبة في الزواج من غير ابن عمها تذهب اليه فور وفاة والدها وترجوه اخلاء سبيلها ، فتقول له (لقد توفى والدي ارجو أن تعطيني حريتي) وعادة ما يكون ابن العم شهما في تلك الظروف فيخلي سبيل الفتاة وان كان غير مجبر على ذلك . أما اذا رفض فلا مناص أمامها سوى الهرب . تفر مع محبوبها الى ارض نائية ثم تتزوج بعد ان تضع نفسها تحت حماية شيخ القبيلة ومع هذا تظل في خطر دائم من ابن عمها . وتعتبر فعلة زوجها مثل القتل وعليه ان يدفع مثل ديّة الدم لضمان سلامته .

وهناك بالطبع ، حالات يقع فيها الشاب في غرام جنوني مع فتاة غير ابنة عمه .. فإذا كانت طليقة ، أي غير مرتبطة بابن عم ، ففي هذه الحالة يحاول الشاب مغازلة الفتاة أو التقرب اليها اثناء رعيها للجمال أو الغنم ،



وهو ما لا تقره التقاليد العربية ، ويمكن أن يفقد البدوي حياته مثله مثل أي أجنبي إذا تعرض متوددا لفتاة غير متزوجة لأن الأعراف المتبعة ان يتقدم الشاب بطلب يد الفتاة من أهلها .. إلا انه يمكن طلب الزواج مباشرة من امرأة أرملة أو مطلقة .

عندما يتقرر زواج ما يدفع الشاب لأب الفتاة مبلغا من المال يتراوح ما بين سبعين الى خمسمائة روبية ، وهو أمر يعتمد على الوضع الاجتماعي للشاب ، إن كان شخصا عاديا أو شيخا . ان هذا لا ينطبق على التقاليد التي تحكم العائلات الحاكمة في الجزيرة العربية . فمثلا يبلغ مهر العروس بين عائلة الصباح الفا وخمسمائة وربما ألفي روبية . وإذا حصل ورغب شيخ الزواج من فتاة ليست من نسب شريف فليس من المتبع أن يحدد الأب مهر الفتاة وانما يتركه للشيخ الذي من المفروض أن يعرف ما عليه أن يدفع وربما تجود نفسه بأكثر . كما عليه ان يزود العروس بعباءة أو اثنتين وفراش من القطن الأحمر يفرش على الأرض .

وتسمى هدية العروس (الجهاز) ويتكون من مال وملابس وفراش زوجية وهو تقليد عام وشامل . وعندما يتم تقديم الجهاز تقام احتفالات الزواج على يد المطوع المحلي أو رجل ملم بأمور الدين ، وهو عادة إمام الصلاة ، بين البدو الفقراء . أما بين عائلات الشيوخ فتقام هذه المراسم على يد عالم دين . ويوجد بين كل



● فتاتان من عرب الرشايدة وقد كشفتا النقاب وتهيأتا لتأدية رقصة بدوية.

جالية مهما صغر عددها رجل مؤهل للقيام بمراسم الزواج ولو كان الضرير الوحيد.

والفتاة غير المتزوجة لا يسمح لها بإزالة الشعر الزائد في وجهها أو جسدها ولكن عليها التخلص منه نهائيا منذ يوم زواجها. وتقوم البدويات من العائلات الثرية بذلك في الحمامات العمومية باستعمال محلول من الزرنيخ أما الفقيرات فيقمن بإزالة الشعر يدويا. ويعهد بالعروس الى احدى النساء الخبيرات لمدة سبعة ايام قبل الزواج فتقوم بتحميمها وتنظيفها والعناية بشعرها وملابسها ودهن جسدها وما شابه ذلك، أما مهمتها الرئيسية فهي ازالة جميع الشعر الزائد من جسد العروس قبل ليلة الزفاف.

مراسم الزواج بسيطة جدا ، يسأل المأذون الزوج ان كان يريد الفتاة فيجيب (نعم) أمام الشهود ثم يسأل وكيل الفتاة ، والذي عادة ما يكون والدها أو عمها ، إن كانت راغبة في الزواج من ذلك الشاب فإذا كانت الاجابة (نعم) انتهت المراسم وأحيانا تجلس الفتاة خلف حاجز في الخيمة وتستمع لكل ما يجري إلا ان ذلك نادر الحدوث .

وتسترق العروس من تحت حجابها النظر الى عريسها فتتعرف الى شكله على الأقل .. ولا يرى العريس عروسه إلا إذا كانت ابنة عمه وترعرعا ضمن اسرة واحدة ، ذلك ان نساء البدو معزولات عزلا تاما عن مجالس الرجال ولا يختلطن بالرجال إلا ضمن دائرة عائلاتهم المباشرة إلا ان الشاب إن كان ذكيا لا يُعدم وسيلة لمشاهدة عروسه مسبقا وتساعده العروس على ذلك بكامل رضاها .

والتقليد المتبع بين القبائل غير الكويتية بعد نهاية حفل الزواج هو ان يأخذ البدوي عروسه الى الخيمة التي نصبها بالقرب من خيمة والدها ثم يدخل عليها. أما في مدينة الكويت فالتقليد المتبع بين القبائل الكويتية ان يقضي العريس وعروسه سبعة أيام في ديرة أهلها ، والغرض من ذلك مساعدة العروس التي عادة ما تكون شديدة الخجل والاضطراب .

تبدأ ليلة الدخلة عندما يذهب العريس الى غرفة عروسه فيخلع عنها عباءتها ويفرشها على الأرض ثم يصلي فوقها .. وهو تقليد عام في الكويت وبين القبائل وتظهر العروس حياء شديدا في أول ليلة من ليالي زواجها فلا تحاول اظهار وجهها أو رأسها أو جسدها ، ولا يطالبها الزوج بعمل ذلك لأنه من دلائل قلة الحياء وقد يثير الشك في عيني زوجها بأن يكون لها تجارب سابقة من هذا القبيل .. ومن واجب الزوج ان يحاول معها بلطف في البدء فإذا هزت رأسها تمنعا يستعمل معها القوة فينزع البرقع عن وجهها كما ينزع باقي ثيابها . ولا تغضب العروس من ذلك وإنما تُظهر مقاومة وتمنعا من باب الحياء .

لليلة الدخلة اهتمام خاص وخاصة بين النساء .. أما بين الرجال فالعريس محط تنكيت ومزاح شديد من أقرانه ولكن من المعيب ان يتناول المزاح اسم العروس ولو بالذكر . وتذهب بعض القبائل وعلى الخصوص قبيلة الظفير بعيدا في مزاح سمج فيحيكون الألاعيب والحيل لارباك العروس والعريس .. فيحيطون بخيمة العروسين ويختلسون النظر الى الداخل باسلوب سمج وأحيانا يصبون الماء على العروسين من خلف الحواجز الخلفية .. وعند العوازم لا تزف العروس لعريسها ولا العريس الى بيت أهل عروسه وانما يطلب اليه ان يخطف عروسه التي تكون مختبئة بين النساء ويبدأ البحث والمطاردة ويا ويل من لا يستطيع الامساك بعروسه .

والعريب دار أو ابن القبائل المحلية

في الكويت عندما يرغب في الزواج يعبر عن رغبته هذه الى نساء بيته اللاتي يقترحن له العروس المناسبة ثم يذهبن الى أمها ويبحثن الأمر معها .. فإذا وافقت الأم بعثت النساء الى والد العروس لطلب يد ابنته منه ايضا . وهنا يطلب الأب ما يقبل به كجهاز لابنته ويتم دفع المال المطلوب . ولا تخضع هذه القضايا للمساومة ، فإن لم يوافق أهل العريس على الجهاز المطلوب عادوا الى خيامهم وانتهى الأمر . أما إذا بُلّغ العريس بالموافقة فإنه يبعث بطلب الى المطوع (المأذون) ويحضر والد العروس وتتم مراسم الزواج وينوب الأب عن ابنته بالوكالة ويتقاضى المطوع روبيتين كأجر له . الى هذا الحد لا تعلم الفتاة من أمر زواجها شيئا وتصلها الأنباء عن طريق امها التي تطلب منها الاستعداد لليلة الزفاف ، ويعقب هذا النبأ مزيج من الابتهاج والتردد.. وعندما يتم اجراء كل الترتيبات اللازمة بالصورة اللائقة ، وعادة ما يتم ذلك في مساء نفس اليوم ، يُؤخذ العريس الى خيمة العروس أو الى خيمة صغيرة نصبت بالقرب من خيمة الوالدين . وهنا يستقبل رفاقه لمدة حوالي الساعة وبعدها ينصرف الرجال وتأتي قريباته من النساء بالعروس الى الخيمة ويحطن بها محاولات منعها من الافلات حيث يُتوقع منها أن تقوم بذلك . ثم يتركنها في تلك الخيمة المغلقة من كل جانب ويناذين على العريس لامساك فتاته ثم ينسحبن فتحاول الفتاة اللحاق بهن أو الافلات من تحت حاشية الخيمة . وفي هذه الحالة على العريس أن يمسك بها بسرعة قبل أن تفلت إلا اذا كان لا يريدها . ثم يبدأ بالتودد اليها وبالتأكيد تستجيب له بخلع عباءتها والكشف عن وجهها وشعرها .

وفي صبيحة اليوم التالي يجب على العريس ان يترك تحت فراش عروسه هدية من المال تساوي عُشر قيمة الجهاز . وتسمى هذه الهدية (الصباحة) وهذا التقليد عام وشامل .

ويسود تقليد غريب بين عامة الناس في مدينة الكويت ، إذا نزفت طفلة قطرات من الدم بعد ولادتها فلا تنسى الأم هذا الحدث وتذكره لقريباتها يوم زفاف ابنتها فيقمن احتفالا يسمى (نطاره) . وتحيط قريبات العروس بالعروسين في غرفة الزوجية منذ الغروب وحتى الفجر فيعقن عملية الدخلة بالرقص والموسيقى والضحك . وحوالي منتصف الليل يُجلسن العروس والعريس بطريقة تجعل أقدامهما الحافية متقابلة ثم يسكبن الماء فوق الأقدام الأربعة . ولا تخرج النساء المشاكسات اللواتي يفسدن على العروسين خلوتهما إلا عند الفجر بعد ان يقفلن الباب على العروسين في غرفة صغيرة . بعد ذلك وعندما يهم العريس بالخروج يفتحن الباب ويدخلن الى العروس فيحممنها ويُغيرن ملابسها ويلبسنها ثيابا جديدة ويُهيئنها

للعريس مرة أخرى .

وتسود تقاليد مماثلة بين القبائل في العراق . وهنا يرسل العريس مهر العروس الى والدها قبل اسبوعين أو شهر من الزواج . ويضيف الوالد لهذا المهر مبلغا من المال من جيبه الخاص ثم يقدم المال لإبنته التي تقوم بتحويله الى مصوغات بمساعدة والدتها وقريباتها . ويكون مهر العروس من بنات القبائل في العراق في حدود المائتي روبية .. أما بنات الشيوخ فمهورهن مختلفة ولكنها لا تزيد عن الألف روبية كقاعدة .

ومن تقاليد الزواج في العراق ان يقوم العريس بنصب خيمة خاصة لعروسه التي لم يسبق لها الزواج تسمى (حوفة) وتكون محاذية للبيت أو الخيمة . وتقوم قريبات العروس بأخذها الى هذه (الحوفة) بعد الزواج مباشرة ثم يأتي العريس مكتسيا أحسن ملابسه مصحوبا برفاقه ويدخل على العروس . وتظل العروس حبيسة في الحوفة لمدة سبعة ايام بينما يخرج العريس لاستقبال زواره في خيمة الضيوف المجاورة . وفي اليوم الثامن تخرج المرأة الى بيتها الجديد وتتسلم مسئولية واجباتها المنزلية . أما اذا كانت العروس قد سبق لها الزواج فإنها تذهب رأسا الى خيمة زوجها .

اثناء فترة شهر العسل ينغمس العروسان في العلاقة الجنسية بطريقة شهوانية شديدة . وقد علمت عن رجل كسر ضلعين من ضلوع زوجته في ليلة الدخلة . بعد الجماع يجب على الرجل والمرأة أن يغتسلا بالكامل من الرأس الى القدم حتى وان كان الماء قليلا وهو ما تنص عليه التعاليم الاسلامية ويلتزم به كل بدوي . ولا تمارس المرأة الجنس اثناء العادة الشهرية لمدة سبعة ايام كاملة . ولا تُعتبر المرأة طاهرة بعد انتهاء العادة الشهرية إلا إذا اغتسلت بالكامل (وهو ما يسمى «غسل الرأس») وعندما تصل الفتاة سن البلوغ يقال عنها (الآن تغسل رأسها) .. فإذا حل شهر رمضان يُحرم الجماع في النهار ويسمح به في الليل .

وتمتاز النساء في الصحراء عن قريباتهن من نساء المدن بأنهن أكثر حرية وسعادة اذا ما استثنينا صعوبة الحياة والحرمان الذي يكتنف حياتهن .. فلزوجة سيد الخيمة وضع متميز كأم العائلة ، ويُشار اليها حتى من قِبل زوجها بأم العيال أو باسم ابنها الاكبر مثل : أم سعود ، أم بدر .. الخ ويسأل الضيف عنها ان كان على علاقة كافية بالأسرة ..

راعية البيت : (أو الخيمة)

تحمل على عاتقها اسم وشرف زوجها وتقوم بعمل واجباتها تجاه ضيوفه فتطهو الطعام الجيد واللذيذ وتُخثّر اللبن وتعمل على ابراز سمعة زوجها بين أقرانه العرب . ولا تختلط بالضيوف الغرباء وان كانت على علم بكل ما يجري إذ ان جناح النساء مفصول عن جناح الضيوف بقاطع

(ستار) فقط .

ارتباط الزوجية ينتهي بإجراءات بسيطة جدا ، فلا يحتاج الزوج سوى ان يقول لزوجته أمام الشهود (طلقتك) ثلاث مرات . وكثير من حالات الطلاق تحدث لأسباب بسيطة كأن يفقد الزوج أعصابه أو تقصّر الزوجة في خدمة زوجها . وتحتفظ الزوجة بالجهاز إذا كان الزوج هو المطلّق ويكون الجهاز عونا لها الى أن تجد زوجا آخر فتستثمره في شراء جمل أو بضعة أغنام فتصبح صاحبة قطعان . وتطلب الزوجة الطلاق من زوجها احيانا إذا أغضبها فتعود الى بيت أبيها وترفض العودة اليه مهما حاول إرضاءها بحمل الهدايا أو منحها بعضا من الماشية ، ففي هذه الحالة عليه أن يطلقها وعليها أن تعيد اليه الجهاز . وهناك بعض الحالات القليلة التي تقع فيها الزوجة في غرام شخص آخر ، فإن لم يكن الزوج ابن عمها عليها أن تخبره بالحقيقة وتطلب الطلاق ، ويستجيب لها إن كان على خلق كريم ولكنه يسترد جهازه . ولا يحق للمطلقة أن تتزوج إلا بعد ثلاثة أشهر من تاريخ طلاقها وتسمى (أشهر العدة) للتأكد من انها ليست حاملا من زوجها .

وتجدر الاشارة الى انه لا عيب يلحق بالطلاق . ويتنافس الشباب على طلب يد المطلقة إن كانت على قسط من الجمال أو من عائلة محترمة أو كانت زوجة لشيخ كبير . ولعل أصدق مثل على ذلك (الجازي) شقيقة خالد الهذلان شيخ العجمان عام ١٩٣٥ . فقد تزوجت سبع مرات

ونظام الزواج والطلاق هذا يفسح المجال للفتاة أن تتزوج مثنى وثلاث ما أن تكون قد بلغت سن الثلاثين وبعضهن تصل عدد زيجاتهن الى سبع أو ثمان . وهكذا لا توجد عنوسة بين نساء البدو ، وكل امرأة تنال فرصتها في الاستمتاع بالحياة الزوجية . وتنعدم الأفعال المشينة أو اللا اخلاقيات بين بنات الصحراء أو القبائل المستقرة ويندر حدوثها في الصحراء بين المتزوجات . وعلى العكس من ذلك تنشأ سرا بعض العلاقات الغرامية عند العريب دار أو القبائل المستقرة في الكويت والعراق .

وتُعاقب المرأة بالموت إذا اكتُشف سرها . وفي الكويت لا يرتكب الزوج حماقة كبيرة تجاه غرام زوجته بشخص آخر ولكنه ينوه بذلك أمام أهلها الذين يقومون بقتلها لمسح العار الذي يلحق العائلة . وإذا ارتكبت فتاة ما فعلا مشينا يدنس اسم العائلة يقوم أبوها أو أخوها بقتلها . أما اذا كانت يتيمة الأب ولا أخ لها فيقوم بتلك المهمة أحد أبناء عمومتها . وفي العراق يكون قلق الاخوان وابناء العمومة على شرف اخواتهم أكثر من قلق الأب ، فإذا ارتكبت الفتاة فاحشة أو شائنة يقوم بقتلها أحد اخوانها أو ابناء عمومتها بحجة انهم لا يستطيعون رفع رؤوسهم في المجالس القبلية أو مجالس الرجال .

ومساء مقابل مبلغ من المال . وأشرت عليهم بأن قضية الصبي قضية حب عنيف صاف وبسيط ونصحتهم بتزويجه زواجا سليما وإلا جن بالفعل . فأجابوا (يمكن) ولكنهم رفضوا متابعة الموضوع .

وأخيرا عملوا بنصيحتي ولكن بطريقة غريبة ، فقد زوجوا الولد المتيم من شقيقة محبوبته . بعد مرور شهر حضر تركي وأخبرني بسعادة غير خافية ان العروس شديدة الشبه بأختها من حيث الشكل والمزاج ومن المؤكد ان الصبي سعيد جدا في زواجه خاصة كونه مجنونا فلن يعرف الفرق بين الاثنتين . أطاع الولد أبوه مرغما وأظهر بعض التحسن ولكنني علمت من المرأة انه مازال يندب حبه للأولى .

مرت فترة قصيرة سمعت بعدها ان الصبي انتابه تصميم غريب ، فقد قرر أن يذهب الى الزوج ويخبره بقصة غرامه . حاولوا منعه ولكن دون جدوى ولم يثنه عن عزمه سوى القدر الذي تدخل ليحميه من العاقبة . فقد مات الزوج فجأة في خريف عام ١٩٣٥ . طار صواب مطلق أن ينتظر حتى انتهاء فترة الحداد ، وهكذا تزوج العاشق الولهان من معشوقته وهو الآن أسعد الناس .

والقصة الثانية هي لمطلق السور وكان شابا فقيرا ولكن من أشهر قادة حركة الاخوان في مطير فقد شارك في الغارة الأخيرة التى قادها عبدالعزيز بن فيصل الدويش . كان مطلق عنفوانيا شديد الحماس مأخوذا كلية بدينه وبفضل شجاعته وإقدامه أصبح اليد اليمنى لفيصل الدويش عند بدء هذه القصة .

ما أكثر ما سمع مطلق عن جمال فتاة من قبيلة مطير ولكنه لم يعر هذا الامر أي التفاتة فقد كان محاربا شجاعا والغرام ليس لأمثاله . ولكن القدر أبى إلا ان يقابله بتلك الحسناء صاحبة العيون الضاحكة الجميلة ، التقاها وهي ترعى الجمال فأحبها من أول نظرة . لم يتوان أو يتأخر فقد تقدم الى أم الفتاة وطلب يدها فرفضت الأم وطالبته بخمس نوق وخمسمائة ريال مهرا لإبنتها وهو مهر لا يمكنه توفيره . بعد ذلك بعث بعدة نساء الى فتاته محاولا كسبها عن طريق الهدايا وخواتم الأنوف (الخزامات) والخلاخيل والعقود وهو ما تحبه البدوية وكذلك الأردية والعباءات الجميلة والأقنعة ولكن دون فائدة تذكر ، فقد أقنعت الأم ابنتها بالخمسة النوق والمبلغ المحدد .

بعد طول محاولات قال الشاب (الى الجحيم بالنساء وأعينهن الساحرة) وذهب الى القتال مع ابن الرشيد قرب حايل . (أموت مقاتلا بدلا من أن أصبح عبد حب فتاة سخيفة) . ولكنه لم يستطع نسيانها رغم احتدام القتال . وبعد عامين عاد الى موطنه . ولقى الفتاة ذات صباح ترعى جمالها فاقترب منها وصاح مُرحبا فخفضت الفتاة ناظريها وهمست (هل أتيت بالمال والخمسة نوق ؟ ان كان كذلك

فأنا لك) . أجاب (لا .. أيتها اللعوب القاسية .. سوف لن تحصلي على نياقك اللعينة) .. ورحل عن الديار مرة أخرى ولمدة اربع سنوات معتزما نسيانها ولكنه لم يقدر .. وبعد ان ضعف وهزل وخارت قواه من شدة غرامه ذهب الى من يشكو له أوجاع قلبه ورجاه قائلا : (أعطني المال لشراء تلك الغاوية .. فإنني أذوب ألما وبدأت أشيخ قبل الأوان .. اطلب مني ما شئت سأفعله لك ولكن ساعدني لبلوغ مرامي) . واستجاب له ذلك المستجير به والمتفهم فأعطى مطلقا ناقة من أغلى نياقه الأصيلة القادمة من عُمان والتي كانت تحمل خاتما فضيا في أنفها يدل على قيمتها .. كما اعطاه مائتي روبية ومجموعة كبيرة من الثياب الجميلة الزاهية وقال له : (اذهب الآن في رعاية الله يا ولدي ونل معشوقتك .. وأخبرها بأنني أرجوها الموافقة وأتمنى لها السعادة).

عاد مطلق الى ديار محبوبته في الصمان وما أن رأته الصبية من على بعد حتى هوى قلبها .. ألا يستحقها بعد كل هذه السنين من الضنى ؟

وأين النياق ؟ وما أن بدأ يقترب ويدنو حتى لحظت الصبية تلك الناقة الجميلة التي كان يركبها فقد كانت تحمل علامة خاصة والخاتم الفضي مشبوك في أنفها . وسرعان ما أصبح كلاهما بين ذراعي الآخر ونسي أمر الأم . وبعدها بوقت قصير تزوجا وحملت منه طفلا ولكن لسوء حظه وتعاسته الكبيرة فقد ماتت بعد عام ، وقال مطلق بحسرة ومرارة انه لن يعشق بعدها أبدا .

الأطفال

أهم وأكبر رغبات كل امرأة عربية أن يكون لها طفل وهذه الرغبة تنمو معها منذ طفولتها وترتبط بالعار الذي يلحق المرأة التي لا تلد طفلا يكون وريثا لزوجها . وما أن تحمل المرأة حتى تعلن الخبر لقريباتها وصديقاتها اللواتي يقمن بتشره بمزيد من البهجة والانشراح . ويستمر الرجل في معاشرة المرأة الى حين دنو ولادتها . والمرأة ان لم تحمل بعد الزواج بفترة قصيرة فإنها تلجأ الى المرأة الحكيمة في قبيلتها التي تعمل لها شرابا من الأعشاب ، وهؤلاء النساء الحكيمات يوجدن في كل قبيلة وهن خبيرات بخلط الأعشاب المتنوعة التي تزيد الخصوبة كما يعملن من هذه

الأعشاب ما يسمى بشراب المحبة لمن يحتاجون إليه .

يحتفل البدو بقدوم أطفالهم بالقدر الذي يحتفلون به عندما تلد نياقهم . ويغسلون الطفل المولود ببول الجمال ويفركون عينيه بالأنتيمون (القرمز) لتصبح قوية . ويحفظ طوال النهار ملفوفا بقماط . حيث يقمط الطفل الرضيع في قطعة مربعة الشكل من القماش الأسود المرشوش ببودرة روث الجمال المجفف وتثنى يداه فوق صدره وتمد رجلاه بمحاذاة بعضهما البعض . وتوضع قطعة صغيرة من القماش الأسود حول رأسه الى ان يبلغ من العمر شهرا وبعد ذلك يستبدل القماش بطاقية تغطي أذنيه .

قوة الأم عند ولادتها ظاهرة غير عادية ، أعرف عن فتاة مطيرية جاءت الى مستشفى الكويت لتضع مولودها وبعد ساعتين فقط من الولادة وفي غفلة من الطبيب لفّت طفلها وحملته فوق ظهرها وعادت الى ديرتها التي كانت تبعد حوالي عشرين ميلا . ونساء قبائل الرعيان في العراق يضعن أطفالهن بينما تكون القافلة في حالة ترحال ، فإذا حان موعد ولادة احداهن تخلفت عن السير بضع ساعات ريثما يخرج الطفل فتغسله برمل نظيف وتلفه بمساعدة امرأة واحدة فقط تتخلف معها ثم تحملان الوليد وتتابعان سيرهما للحاق بباقي الربع . وتعرف المرأة ان عليها ان تواكب السير مع جماعتها وإلا تركت وحيدة وماتت .

وعندما تكون حالات الولادة عسيرة عند البدو يُحضرون مهرة (أنثى الفرس) الى خيمة الحامل ويضعون شعيرا في حجرها فإذا أكلت المهرة منه تُطلق ثلاثة عيارات نارية متعاقبة وهذه الطلقات تساعد في دنو الولادة إذ انها تمد المرأة بالقوة والطاقة للانجاب . إلا انه يحدث أحيانا ان تفقد الأم القدرة على الكلام بعد الانجاب مباشرة مما يعتبره البدو ضربا من ضروب الجنون وقد يؤدي الى وفاتها ان لم تسترد القدرة على النطق . وفي مثل هذه الحالة يأتون بالمهرة مرة أخرى لتأكل الشعير من حجر المرأة ، فإن أكلت تنحل عقدة لسان المرأة وتتكلم وإلا فالموت حليفها لا محالة . وقد استعيرت مهرتي مرة لهذا الغرض وعاشت الأم فشكرني والدها شخصيا على ذلك . أما في المرة الثانية فلم تكن مهرتي متواجدة فاستعير فرسي ولكن المريضة ماتت هذه المرة .

وتضع البدوية خنجرا أو قطعة من الفولاذ أو حتى ابرة أو دبوسا في سرير الطفل أو يشبك في ثيابه ليبعد عنه الحسد . وهو تقليد شامل بين قبائل مطير والظفير وشمر والعجمان والعوازم وربما بين جميع قبائل الصحراء .

وتلعب الأحلام دورها في الخرافات التي ترتبط بميلاد الأطفال . وذلك ما حدث مع امرأة احدى القبائل . فقبل أن تتزوج حلمت بأنها قد أنجبت عصا



جمل من الحديد وما أن خرجت العصا منها حتى احمر لونها وأخذت تطلق شرارات كبيرة من النيران تتساقط فوق خيام قومها وتحرقها . نهضت البنت من نومها خائفة مرتعدة وأخبرت والديها بالحلم . ولما كان والدها يفهم في تفسير الأحلام فقد هدأ من روعها وأخبرها بأن أول مولود لها سيكون ذكرا وسيصبح شهيرا وسوف يكون شوكة في جانب قومها وصديقا لهم عند الحاجة .

بعد عام تزوجت البنت من

شخصية هامة ، وأنجبت منه ابنا أصبح فيما بعد أعظم واشهر قائد قبلي في الجزيرة العربية ، قضى حياته يُغير على قومها تارة ويعقد معاهدات سلم معهم تارة أخرى . وقد عظّمه وبجّله قومها من أجل أمه وكرهوه لأن أباه كان من قبيلة عدوهم . وقد ظل قومها يطلقون عليه اسم (عصا الجمل الحديديـة) التى ألحقت بقبيلتهم الكوارث وحققت نبوءة أمه .

يتم اطعام الطفل في أي وقت في الصباح أو المساء متى بكى . ولا عيب في أن ترضع الأم طفلها أمام اقربائها من الرجال وأحيانا أمام غرباء .. وكثيرا ما كنت أتحدث مع بدوية فإذا بكى طفلهـا فتحت صدر ثـوبها وأخرجت ثديها وألقمته لطفلهـا . والبدو عامة منفتحون الى حد ما في القضايا الجنسية ويمكن أن يناقشوا مثل هذه القضايا ببساطة وصراحة أمام أطفالهم . وترضع الأم طفلها الى عامه الرابع فإذا جف اللبن استأجرت مرضعة من الخيمة المجاورة لارضاع الطفل . وفي هذه الحالة يوضع الطفل في قطعة مستديرة من الجلد تسمى (نطع) . وفي الحسا تحمل الأم طفلها اثناء قيامها بواجباتها فوق ظهرها في حمالة من الجلد لها سيور تُعلق فوق جبهة الأم وغالبا فوق أحد كتفيها ويتدلى الطفل من تحت ذراعهـا مستدفئا . وفي أماكن أخرى يُحمل الطفل فوق الكتف أو الورك . وأثناء الترحال أو السير بوضـع الطفل وحمالته (الأرجوحة) مع الأم في المقصر . وعندما تبلغ سنه عدة شهور يوضع في كيس السرج ورأسه الى الخارج . ولا يغتسل الطفل بعد هذه المرحلة نهائيا ويتم اخراجه من القماط في الليل فقط ، وفيما عدا ذلك يُفك لفترات قصيرة .

ويجرى تطهير الذكور من أطفال البدو ما بين سن الثالثة والنصف والسبع السنوات على يد مطهر سبق له أن إكتسب خبرة في هذا المجال . ويعتبر الطهور مناسبة تحتفل بها العـائلة احتفـالا كبيرا فيـدعـون الضيوف والجيران لوجبة شهيـة ويرتدون أحلى ثيابهم وترقص النساء الى وقت متأخر من الليل فيما عدا الأم التي تبتعد حتى لا ترى طفلهـا يتعذب . ويستمر الاحتفال عند بعض البدو لأيام يساوي عدد سنى الطفل . فإن كان عمر الطفل ست سنوات استمر الاحتفال ستة أيام .

وتبدو مظاهر الاحتفال بالطهور اكثر بروزا بين سكان نجد ومدينة الكويت . ويجرى الاحتفال لمدة سبعة أيام متتالية . وتنظر النساء والبنات الى هذه المناسبة على أنها عيدهن الخاص ، ففي كل مساء تدعو أم الطفل وأهل بيته الجيران من النساء والأطفال الى بيتهم من الساعة الرابعة حتى حوالي الساعة الثامنة وتقدم المشروبات بينما الرقص على قدم وساق . ولا يحضر أي رجل هذا الاحتفال لذلك تتجلى كل إمرأة حسب

ما يحلو لها .

وفي الكويت تتقدم فرقة من خمس وعشرين إمرأة من السود وتقدم الأغاني طواعية وبدون أجر ، كذلك قد تحضر الاحتفال حوالي نصف دزينة من بائعات الهوى بدون أن يكن مدعوات فيرقصن ويغنين ويطربن الضيوف .

تستمر هذه الاحتفالات لمدة سبعة أيام وفي اليوم الثامن يحضر المطهر ويقوم بعملية الختان بموسى عادية يساعده في ذلك ابو الطفل ونفر أو نفران من عائلته . وقد تحضر الختان شقيقاته وخالاته وبعض الإماء ولكن الأم لا تستطيع أن ترى طفلها يتألم فتذهب بعيدا الى بيت الجيران .

موسم الختان هو شهر يونيو حيث تهب الرياح الشمالية الغربية المعروفة بجفافها . في هذا الفصل من المفترض أن يلتئم الجرح بسرعة . فإذا كان البحر في الجوار يتم تشجيع الطفل على الاستحمام بماء البحر المالح الذي يعمل كمطهر للجرح . ومع هذا قد تأتي فترة النقاهة التي تلي العملية بنتائج مؤلمة وحزينة . إذ قد لا يلتئم الجرح ويتعفن فيسبب إلتهابا وعذابا مريرا للطفل . ولهذا بدأ العرب مؤخرا في أخذ أطفالهم الى أطباء مؤهلين لإجراء الختان لهم وهذا يؤدي الى شفائهم بصورة أسرع .

وفي الكويت وبين بدو شمال شرق الجزيرة العربية ونجد لا تخضع البنات لعملية الختان . ومع هذا أخبرت بأن البنات الصغيرات يخضعن للختان في المناطق الجنوبية وفي البصرة . وقد أخبرتني سيدة من شمّر أن ختان البنات يتم بهدوء وبدون طبل أو زمر . كذلك يجرى ختان البنات عند قبائل الرعيان والقبائل المقيمة المستقرة من المنتفق والغجر في العراق . وتتم العملية بتمرير إبرة ملضومة بخيط عبر البظر وسحبه بالخيط الى الخارج قدر مداه ثم قطعه بمحاذاة مستوى الجسم .

نسبة الوفيات عالية بين الأطفال . قد ينجب البدوي خمسة عشر طفلا يعيش منهم ثلاثة أو أربعة فقط . ولا يعرف الأبوان من أمور الصحة والنظافة غير القليل ويؤمنون بالوسائل التقليدية لعلاج أطفالهم من الأمراض . فمثلا عند العجمان إذا مات الأطفال بدون سبب ظاهر تؤخذ قطعة صغيرة من أذن أخر وليد وتوضع داخل حبة تمر ثم تعطى للأم لتأكلها وفي اعتقادهم أن هذا العمل ينقذ الأطفال من الموت .

والأمراض التي تنتشر عادة بين الأطفال هي رمد العيون والديدان وجرب الرأس والسعال الديكي والحصبة والجدري وجدري الماء . والجدري من أفظع الأمراض التي تصيب البدو وحتى الكبار منهم ، ومع هذا فمن الصعب إقناعهم بضرورة التطعيم حتى ولو كانوا على مقربة من المدينة . ويعزل البدو المريض بالجدري في خيمة منفردة على بعد ربع

ميل من خيام الآخرين . ويعمدون أحيانا الى تلقيح المريض بدم من مريض آخر بالجدري ، وهذا الإجراء يساعد المريض في بعض الأحيان ولكنه يؤدي الى وفاتـه في أغلب الأوقات .

ويحاول البدو معالجة الجرب بدهن أماكنه بخليط من الزبد المصفي والفحم مع أنه لا يمكن شفاؤه إلا بالعلاج الطبي الصحيح . وعلى أية حال يبرأ المريض من الجرب تلقائيا عندما يبلغ سن الخامسة عشرة . وتقدم للطفل المصاب بالحصبة أطعمة معينة وتعتبر رائحة الأطعمة مؤذية له . أما السعال الديكي الذي عادة ما ينتشر في الربيع والخريف فيأخذ مجراه من الوقت . أما الديدان التي عادة ما تسبب الأنيميا والدوار فلا تثير قلق الأهل . ويعالج رمد العيون بقطرات من حليب الأم أو أي إمرأة أخرى تقطر يوميا في عيني الطفل وهو ما يساعد فعلا على الشفاء . ويعطى نفس العلاج للكبار ولكن باستعمال حليب من غير حليب الزوجة إذ أن حليب الزوجة من المحرمات على الزوج تحريما قاطعا .

حقوق الآباء على أبنائهم قضايا قاطعة عند البدو وليس للأم عمليا أي منها . فإذا طلق رجل زوجته يأخذ الأولاد في حضانته وتـأخذ الأم البنات . أما إذا كان الأطفال رضعا فيبقون في حضانة الأم الى سن الثامنة في حالة الذكور وعندها يأخذهم الأب فيعيشون معه ومـع زوجته التي تربيهم . وللأطفال الحق في زيارة أمهم على فترات محددة عادة ما تكون أسبوعية . ولا صعوبة في ذلك إذا كانت الأم من نفس القبيلة وتقيم بنفس الديرة ولكن الصعوبة عندما تكون الأم من قبيلة أخرى إذ تعود الى بيت أهلها بعد طـلاقها وأحيـانا ما تكون سكناهم على بعـد مئات الأميال مما يحول دون رؤية الأم لأطفـالها وهـو ما يسبب الحـزن والتعاسة للطرفين .

سبقت الاشارة الى زواج الشيوخ من بنات القبائل وتطليقهن بعد فترة قصيرة . فإذا نتج عن هذا الزواج ميلاد طفل يدفع الشيخ معاشا للأم التي تحتضن طفلها الى أن يبلغ السنة الرابعة أو الخامسة من عمره ثم يؤخذ من عند أمه كي يُربَّى في بيت الشيخ في الكويت أو الرياض إذ ليس من اللائق أن يربى وليد من العائلة الحاكمة ، خاصة إذا كان صبيا في محيط قبلي حتى ولو كانت أمه من أصل عريق . ومع هذا فقد كان نبلاء الجزيرة العربية يبعثون بأبنائهم الى الصحراء في سن المراهقة لكي يتعلموا مهارات البـدو ويكتسبوا خبـرة في حياة الصحراء .

ولما كنا قد ذكرنا حضور بائعات الهوى الى حفلات الختان نضيف هنا بعض التعليقات على هذا الموضوع . بالرغم من أنني أعلم علم اليقين أنه لا وجود لبائعات الهوي بين نساء الصحراء إلا أن هناك الكثيرات منهن

في المدن الكبيرة في الجزيرة العربية . ويُعتبرون شرا لابد منه ولكنهن لا يتمتعن بحرية التنقل والتحرك داخل المدينة . وعادة ما يسكّن في مناطق معزولة أو شوارع خلفية ويخضعن دائما للرقابة من المسئولين الذين يحافظون على أخلاقيات المدينة .

وتنظر النساء الى بائعات الهوى باحتقار ولكنهن يعترفن بوجودهن ويقدمن لهن المشروبات عندما يحضرن الاحتفالات ويغنين ويرقصن بدون أجر ، ووجودهن مع فرقة النساء السود يضيف لونا آخر للاحتفال ولا يمتعض أحد أو يتضايق من حضورهن .

العَبيدُ

العبد الذي يُشترى بالمال ويصبح ملكا لسيده نادر الوجود في مدينة الكويت . ولكن يوجد في بيوت الأثرياء من الكويتيين عبيد توالدوا عن آبائهم جيلا بعد جيل عند نفس العائلة . ويوجد الكثير من هؤلاء العبيد لدى أحسن البيوت في البصرة وبغداد وكثير من المدن الاسلامية الأخرى . وفي أوائل عام ١٩٢٤ أصدر شيخ الكويت مرسوما ينص على اعتبار استيراد وتصدير العبيد لأغراض تجارية جريمة يعاقب عليها القانون وبذلك كانت النهاية الفعلية لحركة نقل العبيد الذين كان يتم احضارهم الى الكويت ثم يبعثون من هناك بواسطة القوارب البخارية أو السفن .

يندر في الكويت بيع وشراء العبيد المتوالدين ، ولا يحدث ذلك إلا إذا طلب العبد نفسه أن يباع الى أسرة اخرى إذ له الحق في ذلك . ويحدث احيانا أن ينجح أحد الحجاج في تهريب عبد يشتريه من مكة ويعود به سرا الى الكويت ولكن إذا اكتشف أمره يخضع لغرامة كبيرة ويؤخذ العبد منه ويعتق .

يعامل الكويتيون عبيدهم الذين ولدوا في بيوتهم معاملة حسنة وطيبة ويرعونهم مثلما يرعون أطفالهم . وتكون عائلة الخدم موضع ثقة من سادتها . ويزوج السادة عبيدهم وإماءهم متى رغبوا في ذلك ويقيمون لهم الأعراس والاحتفالات مثلما يحتفلون بأولادهم ويلعب السيد والسيدة دور الأبوين لخدمهم أثناء

× يتحدث المؤلف عن ظاهرة قديمة والمعروف عمليا انه لا يوجد عبيد الآن فقد اختفت الظاهرة تماما وان وجد بعض الخدم فإن ذلك له ظروف أخرى مختلفة تماما وليس هناك ما يسمى بملكية الأشخاص . (الوثيقة) .

حفلة الزفاف ويظهران من العطف والمحبة لهم أكثر مما يظهران لأولادهم . ويختلط أطفال العبيد بأطفال سادتهم على قدم المساواة وتشمل السيدة أطفال خدمها برعايتها ومحبتها التي تبدو أحيانا أكثر من رعايتها لأطفالها .

وهناك ، بالطبع ، بعض الحالات التي يعامل فيها السادة عبيدهم بقسوة ولكن في مثل هذه الحالة يحق للعبد أن يشكو أمره الى الشيخ . ويعطى شيخ الكويت أذنا صاغية وصدرا رحبا لكل عبد يلجأ اليه شاكيا من معاملة مالكيه . فإذا حكم الشيخ بعدم عودة العبد الى أصحابه أمر له براتب شهري وشجعه على تدبير أموره كخادم عادي .

والأمَة المشتراة متاع خاص لسيدها فإن استهوته له الحق في معاشرتها . ولا يصح ذلك إلا مع المشتراة حديثا ، وتمارس هذه القضايا في المدن العربية ولكنها لا توجد عند البدو . وعندما تحمل الأمَة من سيدها تنص الشريعة على إعتاقها فورا حتى يأتي المولود الى الوجود حرا . وتعلو بذلك منزلة الأم التي لا يحق لسيدها بعد ذلك معاشرتها وعادة ما تجد لها زوجا من العبيد المعتقين . ويُربَى الطفل باسم ابيه ولكن لا يسمح له بالزواج من فتاة عربية حرة خالصة . وتلاقي البنات اللواتي يولدن لإماء نفس المعاملة . وإذا أرضعت إمراة عربية عبدا رضيعا يصبح حرا مثل أبنائها ولا يمكن بيعه مطلقا .

الواجبات التي تقع على عاتق العبد كثيرة ولكن كلها شريفة . فهو الحارس الذي يرعى المنزل ويوفر احتياجاته وهو موضع ثقة كبيرة يرافق السيدات أثناء خروجهن ويرعى شؤون الحريم ويجلب لهن ما يحتجن اليه ، ويعمل القهوة ويجلب الماء للبيوت . والأمَة التي توجد في أسرة طيبة تكون محظوظة ولها امتيازات . فهى التي ترعى سيدتها وتهتم بملابسها وتلبسها ثيابها . وهى الطاهية والحائكة . تذهب مع الشابات من نساء البيت الى الشاطىء فيغسلن ثياب العائلة ، وترافق سيدتها في تنقلاتها . ومثل قرينها تتمتع بثقة ومسئوليات كبيرة .

يتمتع العبيد بحماية شاملة من سيدهم الذي يرد عنهم الأذى ويعاقب كل من تسول له نفسه إيذاءهم ويدافع عنهم أكثر مما يدافع عن أولاده .

لكل شيخ ولكل ثرى من قبائل البدو عبيده سواء حصل عليهم عن طريق الشراء أو ولدوا في بيته ، ولنسائه أيضا العديد من الإماء . وعموما العبيد المشترون هم القاعدة . ويعامل البدو في الصحراء العبيد معاملة حسنة ولكن عليهم بالطبع القيام بواجبات عديدة والمشاركة في سحب الماء من الآبار للجمال والماشية وقطع الأخشاب اللازمة للخيمة . وبما أنه أكثر قدرة من العربي على إحتمال شدة الحرارة في الصيف فإنه يقوم بكثير من الأعمال المتعلقة برعاية

الجمال في الوقت الذي يخيم فيه سيده قرب الماء في فصل الصيف الحار .

والعبيد مثلهم مثل الجمال غنائم ثمينة في عالم الصحراء . وتعتبر سرقة الأطفال العبيد بين القبائل المتعادية عملا غير مخالف للأعراف ولكن هذه الأعراف تؤكد على أن يكون سن هؤلاء الأطفال قد تجاوز العشر السنوات وبالطبع يقوم صاحب العبد المسروق بمحاولة استرداده وقد يقتل السارق ولو حتى بعد عشر سنوات . وإذا حمل المغيرون عبدا أو أَمَة بطريق الخطأ فمن واجبهم إعادته الى أصحابه حال اكتشاف الخطأ .

وكما أشرنا سابقا لا يتزوج العربي القح من أَمَة معتوقة ، ولا يحط أي بدوي قح من قدر نفسه بمجامعة أَمَة مشتراة . ويعتبر البدو مثل هذه الأعمال مخزية ويرفضون منطق بعض العائلات النبيلة وعائلات الأمراء شبه البدوية الذي يقول بأن من حقك أن تفعل ما شئت مع عبدتك المملوكة لك بدون إعتبار فعلك خطيئة .

ويعتبر البدو هذا المنطق مغالطة كبيرة وهو من الأسباب التي جعلت البدوي يزدرى ابن المدينة .

الــــدّين

بدو الصحراء جميعهم مسلمون سنّيون يتبعون المذهب الحنبلي أو المالكي واسم الله يظل بين شفتي البدوي طوال حياته وتسمعه في كل جملة ينطق بها . والبدوي مثله مثل أي عربي أو مسلم حقيقي يؤمن بأن إرادة الله وراء كل ما يحدث من خير أو شر وهذا الإيمان الذي يكتنفه طوال حياته يفسر هدوءه وخضوعه أمام كل ما يصيبه من محن أو فقدان عزيز أو خسارة أو دمار . وهذا الخضوع التام لإرادة الله من أهم المميزات اللافتة للنظر التي تشكل شخصية رجل الصحراء وقد كان لذلك تأثير عميق عليّ في أكثر من مناسبة كما تبين القصة التالية .

كنت وزوجتي على علاقة صداقة قوية مع عائلة من قبيلة العجمان كان رب العائلة وسيما ذا ملامح صارمة عمره حوالي ستين عاما . كان له أربعة أولاد ذكور وبنت واحدة إسمها سارة . كانت سارة من أكثر بنات البدو ظرفا وجاذبية وقد تزوجت من الشيخ فهد الفعران أحد شيوخ العشيرة الحاكمة في عجمان . كان زوجها من المترددين على ابن سعود ، فرّ الى العراق عام ١٩٢٩ وظلت سارة في بيت أبيها . كنا نزورها دوما في

خيمتها ، فإذا خلا البيت من الأغراب تفرش لنا الفراش القرمزي في جناح النساء من الخيمة وتقدم لنا القهوة التي تعدها بنفسها ونتجاذب وزوجتي الحديث معها حول مختلف مشاكل الصحراء .

كان لسارة طفل جميل خفيف الظل إسمه عبدالله عمره سنتان . وذات يوم وبينما كانت زوجتي في انجلترا وقع عبدالله فريسة داء عضال . وكنت أزوره باستمرار وبذلت أقصى ما بوسعي لمساعدته ولكن صحة عبدالله كانت تزداد سوءا . وكانت امه وجدّه يغمرانه بالرعاية والمحبة والحنان الغامر فقد كان بالنسبة لهما كل شيء في هذا العالم . كانت سارة تبكي بصمت عندما أحاول إعطاء طفلها الدواء لتخفيف الحمي . وكلما تدهورت صحة الطفل إزدادت أحزان الأم بصمت يعتصر القلب . حاولت حثّها لأخذ الطفل الى طبيب في الكويت ولكن دون جدوى .

وذات صباح جئت كعادتي لزيارة الصبي وما أن دنوت من الخيمة حتى أقبلت سارة تحييني مرتدية أبهى ثيابها ، دعتني الى الدخول والبسمة على محياها وأجلستني في المكان المعتاد وقدمت لي القهوة وأخذت تحدثني لدرجة أنها كانت تطلق النكات فشككت في الأمر . وأخيرا سألتها : (أين عبدالله ؟ كيف حاله الآن ؟) ابتلعت سارة غصة في حلقها واشارت بجهد كبير الى كومة من التراب على بعد حوالي عشرين ياردة من الخيمة وقالت : (عبدالله يرقد هناك ، لقد خلد الى الراحة الأبدية .. دفنته قبل نصف ساعة .. الله أعطى والله أخذ والحمد والشكر لله) . في تلك الأثناء ظهر الجدّ ، فحييته وعبرت له عن حزني وأسفي ولكنه ضحك بصوت عال وقال : (الحمد لله .. سوف يرزقنا عوضا عنه .. وربما أكثر .. نحن أبناء العجمان شجعان .. والله رحيم يفعل ما يشاء .. علينا دائما أن نقابل الموت ببسمه سواء جاء عن طريق مرض أو رصاصة) . هذه الصورة تركت أثرا لا يمحى من مخيلتي ولسوف يمضي وقت طويل قبل ان أنسى عيون سارة الحزينة الخالية من الدموع .

للدين الاسلامي خمسة أركان على كل مسلم حقيقي أن يلتزم بها :

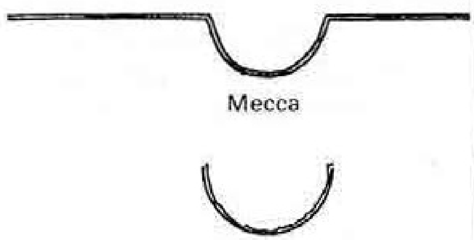
١ ـ الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .
٢ ـ إقام الصلاة خمس مرات في اليوم .
٣ ـ إيتاء الزكاة .
٤ ـ صوم شهر رمضان .
٥ ـ الحج الى بيت الله الحرام لمن استطاع اليه سبيلا .

والبدوي حريص على أداء فروض الصلاة في أوقاتها اينما كان سواء في المخيم أو على سفر ، يصلي خمس مرات في اليوم . ويصلي جماعة كلما امكن ذلك لأن الصلاة مع الجماعة لها اجر اعظم . أوقات الصلاة كالتالي صلاة الفجر ، ثم صلاة الظهر ، ثم صلاة العصر ، فالمغرب فالعشاء . قبل

الصلاة ينادي أحد المسلمين مؤذنا ويسرع الجميع للوضوء بالماء إن كان متوفرا وإلا فإنهم يتيممون بالرمال .

فإذا أقيمت الصلاة وضع المسلم كل شيء جانبا وخشع بين يدى الله يؤدي واجبه تجاه خالقه . ولا شيء يعوق المسلم عن صلاته إذا حان موعدها ، فيتوقف حتى لو كان اثناء مطاردته لغزال أو حباري .

وبالقرب من كل خيمة توجد علامة مرسومة على سطح الأرض تشير الى اتجاه الكعبة



ويقف إمام الصلاة أمام الحلقة التي تواجه مكة ويقف باقي المصلين من خلفه في خطوط متوازية . كذلك تجد أحيانا علامة دائرية في مناطق نائية من الصحراء تدل على مصلى رجل بمفرده .

وتصلى نساء البدو أيضا بانتظام ولكن في أجنحتهن الخاصة بمعزل عن الرجال . وحصّة الصغيرة وهى إبنة سالم المزين تعلمت الصلاة وهي في سن الثانية عشرة وعندما بلغت الثالثة عشرة ونصف السنة من عمرها كانت تصلي بانتظام خمس مرات يوميا . وكانت أمها عمشا حريصة كل الحرص أيضا على تأدية الصلاة في أوقاتها بل ذهبت أبعد من ذلك بأن زارتني ذات مرة عندما كنت بمفردي في المخيم وحاولت إقناعي بالتحول الى الاسلام . وعندما سافرت زوجتي الى انجلترا عاودت عمشا الحديث معي بهذا الخصوص ووعدتني بسذاجتها وبراءتها أن تجد لى عروسا أو اثنتين وحتى ثلاثا من بنات البدو الشابات أن انا اعتنقت الاسلام . وقالت عمشا : (أنت الآن واحد منا .. صر مسلما وكن سعيدا . بناتنا مليحات .. والحياة في الصحراء هنية وأولادك حواليك) . وعندما قلت لها : (وماذا عن مسز ديكسون ؟) أجابت بسرعة : (لن تبالي إن جعلتها الشيخة ووضعت العرائس الصغيرات تحت إمرتها .. كلنا نعمل ذلك ونفهم موضعنا .. واكثر سعادة للرجل أن يكون له نساء) !

الزكاة أو الصدقات للفقراء والمحتاجين يتم جمعها على شكل ضريبة ففي شهري يونيو ويوليو من كل عام عندما يستقر البدو حول الماء في الصيف يرسل حكام كل ولاية مبعوثيهم لجباية الضرائب . ويمتعض البدوي عندما يدفع الزكاة التي تبلغ ٢,٥٪ مما يمتلك الى الحاكم الذي له الحق في مطالبته بذلك وتجمع الزكاة في فصل الصيف نظرا لتجمع البدو حول الآبار ومواقع المياه في حين أنهم في فصول السنة الأخرى يتنقلون

باستمرار مما يساعدهم على التهرب من دفع الزكاة ..

وتبلغ نسبة الزكاة على الماشية رأس غنم أو ما قيمته (ثمانية ريالات أوسبع روبيات) عن أربعين منها حتى تبلغ تسعا وسبعين رأس غنم .

ولا يخضع البدوي للزكاة إذا كان يمتلك أقل من أربعين رأس غنم . وتطبق نفس النسبة على الماعز . أما الزكاة على الجمال فتحسب عن كل خمسة ، ويعفى صاحبها من الدفع عن الخمسة الأولى أما ما زاد عن ذلك فيدفع خمسة ريالات عن كل خمسة وتحسب من ستة الى تسعة ومن عشرة الى أربعة عشر وهكذا . ويدفع نصف ريال عن الجمال الصغيرة . ولا يخضع للزكاة جمال الركوب أو الجمال التي تحمل معدات المخيم من مكان لآخر .

والقبيلة التي تدفع الزكاة الى الحاكم تتمتع بدعمه وحمايته لها من أي عدو . أما التي تتخلف عن الدفع فإن لحاكمها الحق في مصادرة أملاكها ويرفض حمايتها من القبائل الأخرى كما لا يهب لمساعدتها إذا تعرضت لعدوان خارجي .

لا يحق لحاكم أن يتقاضى الزكاة من قبيلة غريبة تزور بلاده للمرعى لفترة قصيرة ولكن إذا طلبت القبيلة الزائرة السماح لها بالتخييم في الصيف حول الآبار ، هنا يحق له مطالبتها بدفع ضريبة كاملة وفي مثل هذه الحالة لا تدفع ضريبة ثانية لحاكمها عن نفس السنة .

على كل مسلم أو مسلمة أن يحج الى مكة ثم يزور المدينة مرة واحدة على الأقل خلال حياتهما متى استطاعا الى ذلك سبيلا ، ويأتي الحج في شهر ذي الحجة حسب التقويم الاسلامي .

وموسم الحج على جانب كبير من الأهمية وفي الكويت تخيم البهجة والفرحة لمدة شهر قبل بدء تحرك موكب الحجاج الذين يقضون هذا الشهر في تجهيز أنفسهم بشراء الجمال واعداد أدوات الإضاءة وتجهيز الخيام البيضاء التي يتم نصبها بسرعة وسهولة كل مساء أو كستر للنساء عند التوقف في منتصف النهار . وتجهيز هوادج خاصة للنساء واستئجار مرشدين ورفاق .

ومع اقتراب السفر يجرى تعيين (أمير الحج) الذي يقود القافلة . وفي اليوم المحدد تتحرك قافلة الحجاج من الكويت في جو من الفرحة والبهجة ويسود شعور بالحماس الديني لدى الجميع . ويتمنى كبار السن في قرارة أنفسهم الموت في الطريق أو في الحجاز مما يكسبهم ثوابا وأجرا أكبر عند الله ولذلك يحمل كل منهم كفنا أو ثوبا جديدا يدفن به .

يبلغ طول الرحلة ثمانمائة ميل وأقل من ألف بقليل إذا اعتبرنا المنعطفات والانحرافات . والرحلة ليست عملا بطوليا خارقا بالنسبة للبدو فقط ولكنها كذلك بالنسبة لأبناء المدن الذين لم يتعودوا ركوب الجمال وفي الحقيقة انه لأمر رائع أن يجاهد هؤلاء مشقة رحلة طويلة في الصحراء

ويتحملون رداءة ووحولة الماء في الطريق . والصعوبة أقل بكثير بالنسبة للبدوي وبالرغم من ان نساءه وخاصة من معها أطفال تعاني من قلة الراحة والطعام الجيد . وتنضم العائلات الثرية بسياراتها الى قافلة الحجاج في حفر الباطن التي تبعد عن الكويت مائة وخمسين ميلاً على حدود الجزيرة العربية . وفي رحلة العودة يستقبلهم أقرباؤهم ويعودون بهم بالسيارات الى بيوتهم . ويدفع الأثرياء من عرب الكويت والبصرة الذين يفضلون استئجار سيارة ويسافرون عبر الرياض ما يعادل ثلاثة جنيهات استرلينية عن كل سيارة أما الحجاج القادمون الى مكة بواسطة الجمال فلا يدفعون ضريبة الحج .

وبرنامج الرحلة يتأثر الى حد كبير بعوامل الطقس . فعندما لا يكون الجو شديد الحرارة تبدأ القافلة سيرها عند الفجر وتستمر طوال أربع ساعات تتخللها عدة وقفات للقهوة ، بعد ذلك تتوقف حوالي الساعة العاشرة صباحا لمدة ثلاث ساعات للراحة فإذا كانت الشمس شديدة الحرارة في هذا الوقت تنصب خيام خفيفة لتظليل النساء ، وهذه الخيام تنصب دوما في الليل . ثم تستمر الرحلة بعد الظهر لمدة ثلاث ساعات أخرى . وتطهو النساء طعام اليوم في الليلة السابقة والذي عادة ما يتكون من أرز مطبوخ ولحم لميسوري الحال أما الفقراء فيقتصر طعامهم على الأرز والتمر . أما إذا كان الجو شديد الحرارة فيسير الحجاج في الليل ويستريحون بالنهار . وتستغرق الرحلة عادة من أربعين الى خمسة وأربعين يوما .

وعندما يصل الحجاج الى تخوم المدينة المقدسة يتوضأون ويتطهرون ويلبسون ثياب الحج وهي بالنسبة للرجل عبارة عن مئزر بسيط أبيض ودثار أبيض فوق كتفه . وتلبس النساء ملابس داخلية خضراء اللون - سروال وثوب ودشداشة وعباءة سوداء وحجاب . ويستمر الحجاج في هذا اللباس حتى اليوم الأعظم العاشر من ذي الحجة . بعد ذلك يتحركون باتجاه مكة مكشوفي الرؤوس حفاة الأقدام ويخيمون عند وصولهم في الأماكن المخصصة لهم . وبعد الوصول مباشرة يرافق الحاج مرشد خاص يدله على المكان ويشرح له ما يجب عليه عمله من مناسك وصلوات . وبعد ذلك يدخل الجامع ويطوف حول الكعبة سبع مرات ويقبل الحجر الأسود . ثم يسعى بين الصفا والمروة ويشرب من بئر زمزم .

في اليوم الثامن من ذي الحجة يتابع الحاج سفره الى (منى) التي تبعد عن مكة حوالي خمسة أو ستة أميال ويخيم هناك . وفي صباح اليوم التالي ينهض مبكرا قاصدا جبل عرفات على بعد ثمانية أميال . وبعد تناوله غداء مبكرا يقف مشاهدا جبل عرفات وهو جالس على جمله بخشوع وخضوع يستمع الى خطبة دينية تنبعث من جانب الجبل . ويمكن أن

يلبس البدوي أثناء هذه الشعائر حزام الكتف فوق لباس الحج إلا أن ملابسه العادية وخوذته وبندقيته وأمتعته الخفيفة يجب أن تظل بعيدة في جيوب سرجه . ويعتبر الوقوف أمام جبل عرفات من أهم طقوس الحج فإن تخلف الحاج عن ذلك بسبب مرض أو حادث تعتبر حجته لاغية .

وعند الغروب يهرع الحجاج عائدين الى منى ويخيمون مرة أخرى لقضاء ليلتهم . وفي صباح اليوم العاشر يقصد كل حاج مكانا في منى توجد فيه ثلاثة أعمدة (نصب) تمثل إبليس ويَرجُم بحجارة صغيرة العامود الأكبر سبع مرات . ويَرجُم العامودين الآخرين في الأيام التالية .

تنتهي مراسم الحج بحلول عيد الأضحى المبارك أو العيد الكبير في اليوم العاشر من ذي الحجة . ويحتفل الحجاج بالعيد في سهل منى ويشاركهم هذا الاحتفال جميع المسلمين في شتى أنحاء العالم . وهذا العيد ، عيد التضحية والفداء ، تخليدا لإبراهيم الذي خضع لأمر الله وهمّ للتضحية بإبنه إسماعيل ، على جبل عرفات تنفيذا لمشيئة الله . وهو يوم الصدقات والبهجة والسرور ، وفيه تقام الصلوات الخاصة والخطب الدينية في الهواء الطلق وعلى مسمع من الجماهير الغفيرة التي جاءت من كافة أصقاع العالم والأهم من ذلك كله أن يذبح كل مسلم صباح العيد رأس غنم أو جملا إن كان مقتدرا . ويستمر العيد بصورة رسمية أربعة أيام ومظاهر الفرحة والبهجة تسود كل مكان ولمدة سبعة أيام كقاعدة وخاصة في الكويت والجزيرة العربية وغيرهما .

بعد أن ينتهي العيد يغتسل الحاج ويحلق رأسه ويقلّم أظافره ويعود الى لباسه العادي الذي يجب أن يكون جديدا ونظيفا . والبدوي عادة يلف أطراف ضفيرتيه حول إصبعه ثلاث لفات ويقص هذا القدر منها . وتقص المرأة أيضا أطراف ظفائرها بنفس القدر والطريقة التي يفعلها رجلها . ويقص الرجل خصلة صغيرة من شعر جبهته . وبعد أن يعود الحاج من منى عليه أن يطوف حول الكعبة دورته الأخيرة قبل أن يغادر مكة وقد يزور أيضا المدينة وإن كان غير مجبر . إلا أنه من فضائل الأعمال .

وعندما يعود الحجاج الى بلادهم يستقبلهم أقرباؤهم بالفرحة والزغاريد والبعض يذهب أميالا بعيدة لملاقاة الحجاج وتهنئتهم . وما أن يصل الحاج الى دياره حتى يهب الجيران من كل صوب يقدمون التهاني والتباريك ، ويستمر هذا الحال لمدة عشرة أيام أو أكثر .

هناك عيد آخر يحتفل به المسلمون ، وهو عيد الفطر ، الذي يسجل نهاية شهر الصيام وهو شهر رمضان . وهو الشهر التاسع في التقويم الاسلامي ولكن بما أن التقويم الاسلامي قمري وهو أقصر من الشمسي فإن شهر رمضان يحل في

فصول مختلفة . يستمر الصيام لمدة شهر قمري بدءا برؤية الهلال الجديد وانتهاء برؤية الهلال التالي . ويعنى الصيام الإمتناع عن الأكل والشرب طوال النهار من الفجر حتى غروب الشمس . كذلك يُمنع الإغتسال والتدخين وحتى تعاطي الأدوية ويُعفى من الصيام من كان مريضا أو مسافرا يسير من الفجر حتى المساء .

والاحتفال بالعيدين السنويين متماثل في الكويت وإن كانت هناك بعض الإختلافات الطفيفة بين أهالي المدينة والقبائل . وفيما يلي وصف للاحتفالات بالعيد التي تنطبق على كليهما .

يعلن شيخ الكويت في الليلة التي تسبق يوم العيد بأن العيد سيقع في الصباح التالي . وما أن يسمع الناس النبأ حتى تغمرهم الفرحة والسرور وخاصة إذا كان عيد رمضان الذي يأتي بعد شهر طويل من الصيام والتعب . تبدأ الترتيبات لهذه المناسبة قبل أسبوعين ويشتري الرجال وأرباب العائلات الملابس الجديدة لزوجاتهم وأولادهم وخدمهم وعبيدهم ، وتنشغل النساء بخياطة ملابسهن الملونة . وتعم مظاهر السعادة والبهجة كل مكان مثلها في ذلك مثل الأيام التي تسبق أعياد الميلاد المجيد بالنسبة لنا . وتغتسل النساء والأولاد ويغسلون شعورهم وترسم النسوة بالحناء أشكالا وزخارف متنوعة على أيديهن وأقدامهن .

صباح العيد تطلق ثلاثة مدافع أعيرتها مرة واحدة من قصر الحاكم القريب من المدينة . وهذه إشارة الى ان الشيخ وأفراد عائلته قد انتهوا من صلاة العيد في مسجد آل خليفة وفي طريقهم الى الفناء (الساحة) الكبيرة أمام قاعة استقبال المرحوم الشيخ مبارك . لم يمض بعد وقت طويل على شروق الشمس ، يجلس الشيخ وأفراد عائلته الكبار في فناء القصر يستقبلون كل من يرغب في تقديم التهنئة بالعيد ويدخل المواطنون الواحد تلو الآخر فيقبل يد الشيخ أو كتفه ويقول له (عيدك مبارك) ويجيبه الشيخ : (أيامك سعيدة) . وهكذا الى ان ينتهي الطابور الذي عادة ما يضم حوالي الفي شخص بمنتهى السلاسة والسرعة وبدون إحداث أي ضجيج أو عرقلة . وهذا المشهد البديع يبرهن على مدى محبة وإعزاز أهالي الكويت لشيخهم ولعائلة الصباح الحاكمة .

بعد هذا الاحتفال يقوم أهالي القسم الغربي من المدينة بزيارة أهالي القسم الشرقي ، وفي اليوم الثاني يزور أهالي القسم الشرقي القسم الغربي من المدينة ، ويُشكّل الخط الفاصل بين القسمين أجمل وأعظم أسواق المدينة . يدخل الزوار الديوان فيقدمون التهاني بالعيد ويشربون فنجانا من القهوة ويُرشون بماء الورد ويستنشقون البخور ثم يخرجون إلى البيت الثاني وهكذا حركة ونشاط بالغين طوال اليوم إذ ما أن يحل الضحى حتى يكون المواطن قد مرّ على

حوالي من ستين إلى سبعين بيتا وهو أمر مسّل ولكنه مُربك بالنسبة للغربي الذي تعود على التّعبير عن إحترامه وتهانيه للآخرين بأساليب أكثر هدوءا وبطئا .

وتنهض النساء والأطفال أيضا من الفجر فيغتسلون ويلبسون أحلى ثيابهم وأبهاها . وتنتقل النساء مثل الفراشات من بيت إلى آخر عبر مداخل النساء تبارك وتهنيء بالعيد بدءا بزوجة الحاكم التي تستقبل الزائرات منذ الفجر ، ثم باقي نساء آل الصباح وأخيرا سيدات المجتمع .

والعيد بالنسبة للأطفال أحلى الأوقات وأسعدها . تلبس البنات قفاطين ملونة وكل ما لديهن من حلِي ، ويلبس الأولاد الصغار أيضا ملابس جديدة والأولاد والبنات يتطلعون بشوق إلى أماكن محددة من المدينة حيث يركبون المراجيح وأم الحصن (الحصن الخشبية التي تدور حول نفسها) أو صناديق بسيطة توضع فوق دواليب يجرها الكبار والشبان الذين جاءوا ليجعلوا من هذا اليوم يوما سعيدا لصغارهم .

بعد الانتهاء من المعايدات وتناول طعام الغداء يعود الأطفال إلى مراجيحهم وإلى أم الحصن بينما يذهب الشباب والنساء وخاصة من يتمتعن بقدر من الحرية لمدة سبعة أيام العيد إلى ساحة السوق المركزي المكشوف في الصفاة لمشاهدة رقصة الفرسان . وهي رقصة العرضة وخاصة في داخل نجد والمدن الساحلية . وفي الكويت تقوم ثلاث أو أربع رقصات أثناء العيد في آن واحد يؤديها رجال قبائل الرشايدة ، ويهدونها إلى العائلة الحاكمة تقديرا لما تقدمه من خدمات ، وأبناء البحر وهم صنّاع الملاحة . يبدأ العرض بغرز راية في الأرض فيتجمع الناس حولها وتبدأ مجموعة رجال يحملون طبولا ودفوفا بالتطبيل على نغمة موحدة ، ويدخل الدائرة الكبيرة من الجماهير المجموعة الراقصة ونصفها من الفرسان والنصف الآخر من الرماة ويأخذون أماكنهم حول العلم .

يبدأ فريقان من رجال الكورس المصطفين على جانبي الدائرة بإلقاء الأشعار والترانيم ويبدأ الراقصون الذين يبلغ عددهم حوالي خمسين راقصا يدورون مع نغمات الطبول والترانيم حول الدائرة ويلوحون بسيوفهم وبنادقهم حول رؤوسهم في حركة بطيئة . والبارعون منهم يطوّحون بأسلحتهم من وقت لآخر في الهواء ثم يتلقفونها قبل أن تقع على الأرض . فجأة والرقص يتتالى ترفع مجموعة من الرجال بنادق قديمة يصوّبون أعقابها إلى أعلى وفوهاتها إلى الأرض ، وعند وقفة صغيرة يعطيها المغنون ، تطلق هذه البنادق أعيرتها في آن واحد . بعد خمس دقائق يحشو هؤلاء الرجال بنادقهم أثناء دورانهم البطيء ومن غير أن يتوقفوا ويطلقونها مرة أخرى . ويستمر هذا الرقص الحربي المتموج متوافقا مع الترانيم والأنغام التي تمدح الحاكم وتعدد

مفاخر الأعمال البطولية وتثني على النبلاء من الرجال لمدة ساعتين . وعلى مقربة من هذا الجمع الغفير من الرجال تقف النساء ملفعات بعباءاتهن وأحجبتهن التي تطل من تحتها ومضات من قفاطين (دراريع) العيد الزاهية الألوان .

وخلال السبعة الأيام من الهرج والمرج ترقص النساء أيضا في بيوتهن الخاصة بمعزل عن الرجال . ويصاحب الرقص غناء تقدمه مجموعتان من النساء وتشكل نساء المدن رقصاتهن وهن جالسات بينما تعتمد قريناتهن من نساء البدو على الخطوات المنتظمة . وتطلق كل راقصة شعرها وتميل بجسدها ورأسها من جهة إلى أخرى فينساب الشعر المتهدل في حركة دائرة . والمرأة الأطول والأغزر شعرا تنال أكثر الثناء وبالطبع تربح الجائزة .

إذا وقع العيد في فصل الربيع حيث البرودة والحشيش الأخضر يغطي كل مكان تذهب النساء والأطفال على بعد حوالي ميلين خارج أسوار المدينة إلى الواحات الخضراء والآبار المجاورة ويأخذن معهن طعام الغداء والشاي . ففي هذا الوقت يتمكنّ من الخروج من سجن مساكنهن ويتمتعن بجمال الربيع والهواء الطلق . وإذا شعرن بخلو المكان أطلقت إحداهن شعرها وبدأت ترقص أو تتمايل وهي جالسة بينما تغني رفيقاتها أغاني جميلة . فإذا ظهر رجل في الأفق يتوقف الرقص والغناء ويصمت الجميع صمت الارانب الى أن يمر ويبتعد .

والعيد في الصحراء كما في المدينة مناسبة للفرح والزيارات والتهاني ولكن نظرا لأن الناس في الصحراء أكثر فقرا وبساطة يحتفلون بأقل تكلفة . ومع هذا تقام مسابقات في الفروسية وركوب الجمال وإذا توفرت ذخيرة إضافية لدى الرجال فإنهم يعقدون مباريات في إطلاق الرصاص .

وتذهب بنات القبائل غير المتزوجات إلى الرقص أكثر من المدنيات . فقبل الظهر وفي المساء تدخل مجموعات منهن إلى داخل الخيمة ويسدلن ستائرها ثم يطلقن شعورهن ويبدأن في رقصهن التصويري البديع . ولا تشارك في الرقص معظم المتزوجات أو الكبيرات في السن ، أما الشابات فيتنافسن فيه . وفي هذا الوقت يُسمح ، في الغالب ، لأقرباء البنات من الشبان بالتفرج على الرقص من على بعد معقول مما يتيح لهم الفرصة لاستراق نظرات إلى وجوه عرائس المستقبل . هذا الرقص يستمر لمدة سبعة أيام فقط وبعدها يتوقف كل شيء من هذا القبيل .

لقد أتيحت لي عدة مرات فرصة مشاهدة رقص بنات مطير والعوازم والرشايدة عندما كنت وزوجتي نخيم مع أصدقائنا من البدو وقت العيد فقط . ولا يحضر هذا الرقص آباء البنات الشابات وإنما يمكن لأقربائهن الشبان التفرج عليهن من على بعد . وترقص ثلاث بنات مع بعضهن مرة واحدة وتغني النساء الكبيرات في

السن ترانيم جميلة ويصفقن بأيديهن في مواكبة الراقصات وتخلع الراقصات عباءاتهن وبراقعهن ويتمايلن بأثوابهن الزاهية الألوان ويحجلن بخفة ويلوحن في نفس الوقت برؤوسهن بدلال ورشاقة من جانب إلى آخر أو في حركة دائرية تتطاير معها شعورهن وترفع الراقصة عادة عصا خيزرانية صغيرة تمسك طرفيها بأطراف أصابعها وتحجب بيدها النصف الأدنى من وجهها كنوع من التحشم أو ترفع جزءا من كمّها قبالة فمها وتستمر في الرقص إلى أن تنهك قواها ، عندها تتوقف عن الرقص وتضع عباءتها عليها مرة أخرى وتجلس . ولا يرقص رجال القبائل نهائيا لان الرقص في نظرهم يخالف الدين وفيه انتقاص للرجولة . وقد اخترت وزوجتي بعض النماذج من بين الكثير مما سمعناه من أغاني الرقص عند نساء القبائل .

أغنية من مطير :

كلمات هذه الأغنية تشير إلى إستسلام فيصل الدويش إلى ابن سعود .

يا قلبي يالي غدا خريش[1]
حدر[2] السماء حسّ[3] طياره
طيارتين شالت الدويش
ما عاد يرجع إلى دياره
وحريمه في أطراف العشيش
وأخته إلى الجتن[4] صبّاره

أغنية من قبيلة العوازم :

ابا[5] اتمنى ليت من يركب الطيّار
الموتر السيد لـ صاح بوريّه[6] .
ابي انهب له يلي نهوده ما هي بكبار
وبانحاش بها يم[7] الديار الشمالية ،
مسير الشهر يطوي في طرفية[8] النهار
لـ جاد لي التيم[9] والخد باريه[10]
نطحني[11] ولاقاني إلى اياه اشقر النثار[12]
غدا[13] القلب يهف هفيف النار
إن ملكتها صرت من حسبة[14] التجار !

---

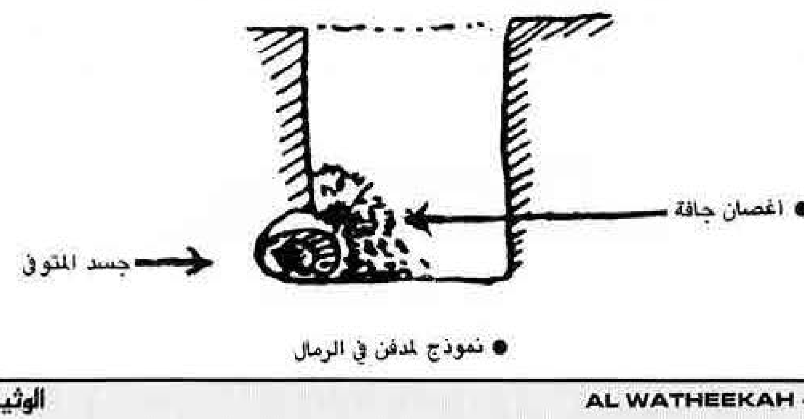
(١) خريش = (مجنون) .
(٢) حدر = (تحت) .
(٣) حس = (صوت) .
(٤) الجتن = (الموت) .
(٥) ابا = (اريد) .
(٦) بوريّه = (زموره) .
(٧) يم = (ناحية) .
(٨) طرفية = (اطراف) .
(٩) التيم = (الزمن) .
(١٠) الخد باريه = (محاذاة الوادي) .
(١١) نطحني = (قابلني) .
(١٢) النثار = (الشعر) .
(١٣) غدا = (صار) .
(١٤) حسبة = (محسوبا من) .

الموت والدفن

الأطفال العرب لا يخافون رؤية إنسان ميت فقد تعودوا على مشاهدة وجوه الموتى بصورة منتظمة مما أكسبهم صلابة في هذا الخصوص وجعلهم مهيئين لفكرة الموت كأمر حتمي . لذلك من النادر أن ترى عربيا رجلاً أو امرأة ، يُظهر خوفا إذا شعر بدنو أجله . ويمر موت شخص بين البدو بكل هدوء وكبرياء . فذات يوم حضرت موت أحد المسّنين في مطير عندما انهار فجأة وأعلن ان أجله قد حان . لم يكن في البيت غير النساء والأطفال ورعيان من الظفير . نادانا الرجل الكبير حوله وطلب من النساء مساعدته في الجلوس ثم أخذ يسلم علينا الواحد تلو الآخر سلام الوداع بأسلوب بسيط وهادىء . وطلب مني أن أبلغ تحياته إلى عدد من الأصدقاء والأقرباء ذكر لي أسماءهم ثم طلب فنجانا من القهوة . بعد أن شرب قهوته تمدد على فراشه وأقفل عينيه وتوقف عن التنفس . كان وداعه بسيطا وهادئا .

ويجب أن يُغسَّل الميت بالماء دائما إن كان الماء متوفرا ويجب أن يُغسِّله شخص من نوعه رجلا أو إمرأة ثم يُلبس كفنــا من القطن الأبيض ويُدفن . وإذا لم تتوفر هذه الأمور وهو

الحال عند البدو تُحفَر حفرة تُدفن فيها جثة الميت بأقصى سرعة وبدون كفن . ويُدعى المطوّع إن وُجد فيتلو القرآن على روح الميت . وبعد الحرب في الصحراء يدفن المنتصرون موتاهم ويتركون جثث أعدائهم طعاما للطيور الجارحة والضباع .

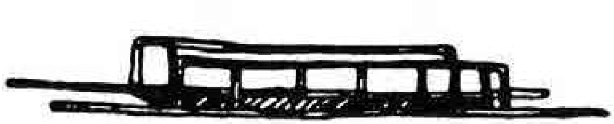


● نموذج لمدفن في الرمال

عندما يُشرف البدوي على حافة الموت تُنقط قطرات من الماء في فمه . ويُحفر القبر بعد الموت مباشرة . وعمق قبر الرجل حوالي أربعة أقدام أو إلى نصف قامته وقد يكون أقل عمقا إن كان الوقت ضيقا . أما قبر المرأة فيجب أن يكون في العمق الذي يغطي صدرها . ويحفر ركن في جانب القبر توضع فيه الجثة لئلا تسحق عند سد القبر بالرمال . والبدوي لا يحب أن يلمس أو يدفن أمواته ويحاول أن يجد من يقوم بهذا العمل من غير البدو . ويحضر الدفن أقل عدد ممكن ولا ترافق النساء موكب الجنازة إطلاقا . توضع الجثة في الركن الجانبي المحفور وتظل عيون الميت مفتوحة كما هو الحال عند الغرب ثم يدفن القبر بالرمال ولا يوضع على القبر أي شاهد أو حجر وإنما تعلو القبر كومة من التراب حوالي ثماني إنشات فوق مستوى الأرض . ولا يزور البدو في الصحراء في أي يوم من الأيام قبور موتاهم لأنهم يؤمنون بأن الميت لا قيمة له بعد الوفاة . لذلك عندما حيتني سارة بضحكة وإبتسامة بعد أن فقدت طفلها لم يكن هذا دليلا على عدم شعورهم بالحزن بل إنها حزينة في أعماقها ولكن ندب الموتى مخالف للعقيدة .

مساء الوفاة يقدم البدو عشاء لضيوفهم قدر إمكانياتهم ويستمر الحداد لمدة ثلاثة أو أربعة أيام تبكي خلالها النساء ويستقبل الرجال المعزين . وعندما يموت الزوج يجب أن تغلق أرملته الخيمة على نفسها وتلبس ثوبا أخضر اللون ولا تخرج من خيمتها إلا بعد أن يتوارى جميع الرجال الغرباء وعليها أن تلبس كفوفا بيديها وجوارب في رجليها أثناء تنقلها مع عائلتها .

فكرة البدو عن الجنة والنار بسيطة ولطيفة وطالما ناقشت معهم هذا الموضوع . وتعني الجنة لهم أرضا ذات ربيع دائم مغطاة بالمراعي دائمة الخضرة وتتفجر مياهها بوفرة من العيون والينابيع وجداول الأنهار ، وهي مكان يخلو من كل ما يغث النفس من جوع وعطش وأمراض وجفاف . وفي الجنة يعيش جميع أبناء القبيلة مع بعضهم البعض في أرض خصبة خضراء ولا يهرم أحد فيهم ، يتزوجون ويسعدون وكل منهم يملك خيمة إضافية كبيرة وقطيعا كبيرا من الإبل والماشية وأطفالا كثيرين . وإذا فقد



● حمالة يحمل عليها المتوفى

أي منهم أطفالا في الدنيا فسوف يقابلهم في الجنة قد كبروا ووصلوا إلى السن التي سيكونون فيها لو ظلوا أحياء وسوف يستقبل الأطفال آباءهم بترحاب كما لو كانوا عائدين من رحلة .

سألت عمشا زوجة سالم المزين ذات مرة إن كانت ستظل زوجة سالم في السماء . أجابت بأنها ستتعرف عليه وعلى أطفاله وسيعيشون بقربه وسوف تزور أولادها وتكون سعيدة جدا ولكنها لن تعاشر سالما لأنه سيكون مع زوجته الأولى التي ماتت قبل أن يتزوجها بوقت طويل ، ولم يبد على عمشا أي امتعاض من ذلك !.

وفكرة البدوي عن النار أيضا مُرضية . ففيها يجد كل ما كره في دنياه وكل ضائقة جعلت من حياته جحيما . الصيف والحرارة دائمة ولا مرعى لجماله وقطعانه ولن يرى الـربيـع أو الإخضرار أو المـاء وسينقصم ظهره من جراء سحب الآبار ، الأكثر عمقا مما رأى في حياته ، لعائلته وقطعانه العطاشى . وسوف يظل طيلة وجوده عبدا وخادما لدى قبيلة دنيا !.

في مـدينة الكـويت غسـالـون مختصون من الجنسين لتغسيـل الموتى . وهم أصحاب مهنة ويأتون عند الطلب حالما تقع حالة وفاة . ويُفضّل تغسيل الميت بعد حلول الظلام ولكنه غير إلزامي . ويُغسّل الإيرانيون موتاهم في غرفة محاذية للجامع . بينما تؤخذ النساء إلى مبان خاصة مجهزة لهذا الغرض . ويقوم المُغسِّل أو المُغسِّلة بوضع جثة الميت فوق طاولة خشبية ويصب فوقها المياه بكميات وافرة ثم يستعمل قطعة خشنة من الصوف ويفرك الجسد كله بالماء والصابون عدة مرات . بعد ذلك يجفف الجسد ويُلبسه الكفن الأبيض الجديد ويساعده في ذلك أهل الميت .

والكفن يكون على شكل ثوب النوم الطويل له فتحة من أعلى يدخل فيها الرأس . وإذا كان الميت إمرأة تُربط جبهتها بقطعة قماش بيضاء اللون (مثل ربطة الرأس عند المرضى) ثم يوضع غطاء رأس فوق رأسها يخاط من تحت الرقبة . وتوضع قطعة من القماش مشرّبة بالكافور تحت كل إبط . وينطبق نفس الحال بالنسبة للرجل الميت فيما عدا رأسه الذي يربط بكوفية تُعقد تحت ذقنه . وفي كلا الحالين ينظف المغسِّل أظافر الميت جيدا ويطوي يديه فوق صدره . ويترك الشعر كما هو بدون تمشيط ولا تجديل . ويجب على المغسِّل أن يرتل أثناء عمله الدعوات ويعدد محـاسن الميت وأعمالـه الحميدة وإلتزامه بالصوم والصلاة وأن يرجو من الله أن يسكنه فسيح جناته .

وأخيرا يُغطى الجسد بكفن أبيض ويُوضع في نعش يحمله الرجال إلى مكان الدفن . وفي الكويت وغيرها من المدن الإسلامية ينال كل من يساعد في حمل النعش ثوابا كبيرا ولذلك ترى الرجال يتبادلون مـواضعهم دوما وبمنتهى السرعة ، كل واحد منهم

يتلهف لحمل النعش لفترة قصيرة . وبعكس العرف في الصحراء ، فالرجال في المدينة يأتون جميعا لمشاهدة صديقهم قبل دفنه .

في تلك الأثناء يكون القبر جاهزا في المقبرة ويُنزل الرجال جثة الميت إلى قاع القبر . وإذا كان الميت إمرأة توضع ملاءة حول القبر حتى لا تراها عيون الرجال وتنزل إلى القبر إمرأة أو أحد الجيران إذا لم يكن للميتة أولاد أو إخوان ويُرقدونها في مثواها الأخير . وهناك نقطة هامة جديرة بالذكر وهي ان الزوج لا يرى وجه زوجته بعد وفاتها لأن في ذلك خطيئة كبيرة ، لذلك ترفع الغطاء عن وجهها إمرأة أخرى أو أخوها أو إبنها أو أحد الجيران .

بعد رفع الغطاء عن الجثة ، يرقد الميت في الكوة على جانبه الأيمن . وتنفعل نساء المدن ـ بخلاف قريناتهن في الصحراء ـ بشدة عند وفاة قريب لهن . فيقطعن شعورهن ويضربن على رؤوسهن وصدورهن ويمزقن ثيابهن . وقد شاهدت نساء يقعن على الأرض مغمى عليهن فاقدات الوعي من شدة الحزن على مصابهن . وعندما مات زوج أخت خادمتنا حمده في بئر تهاوت جوانبه إقتلعت الحلق الذهبي من أذنيها وكسرت أساورها الذهبية وقذفتها بعيدا بدون أن تدري ما هي فاعلة : ويعرف الجيران والناظرون مدى فداحة الفجيعة من خلال ما تظهره المرأة المفجوعة من حزن وبكاء وندب ونواح .

وفي الكويت والعراق يجِد الشيعة على موتاهم لمدة ثلاثة أيام حدادا كاملا . وتأتي جموع غفيرة من الناس يوميا إلى بيت عائلة المتوفي تقدم التعازي والمواساة ، وفي الليلة الثالثة يقيم رجل دين الصلوات وتلاوات من القرآن الكريم . ويقدم الأثرياء منهم غداء لجيرانه المفجوعين كل يوم وفي الليلة الثالثة يقيم عشاء كبيرا لأقاربه وللمعزّين .

يجب على أرملة المتوفي أن تعزل نفسها عن الجميع في غرفة وحيدة لمدة أربعة شهور وعشرة أيام كما في الصحراء . أما الأرملة في العائلات الثرية فتكون حبيسة البيت لمثل هذه المدة وفي الكويت تحبس نفسها في غرفة تخلو من كل أسباب الراحة ولا يدخل إليها سوى إمرأة تحمل لها الطعام والشراب . لا يجب أن ترى رجلا حتى ولو كان قريبا لها ولا أن تسمع صوت رجل . ويعتقد الناس من الطبقات الدنيا أن الرجل ما أن يموت ويذهب إلى العالم الآخر حتى يُطوّق عنقه بسلسلة من الحديد ولا تنزع هذه السلسلة إلا إذا عاشت أرملته فترة الحداد بإخلاص وصدق واستقامة . أما الطبقات الفقيرة جدا في الكويت فلا يسايرون هذه القاعدة ويكتفون بعزل الأرملة لمدة أربعين يوما فقط .

معتقدات الأحلام والطبابة

هناك معتقدات شائعة وطقوس طبية يزاولها البدو وهي عبارة عن

مجموعة من المعارف والتقاليد القبلية والمعتقدات الخرافية الشائعة لدى عرب الجزيرة شأنهم فيها شأن القبائل الأممية .. ومن أبرز المعتقدات لدى البدو ما تقوم به بعض العجائز الماهرات في تفسير الأحلام . بالاضافة إلى ما تقوم به حكيماتهن من مزاولة الطب بـواسطة الأعشـاب الطبية الصحراوية التي يستعينون بها في أمور الطبابة والعلاج ، ولهم معارفهم في مكافحة السحر واتقاء الحسد . وتتخصص بعض النساء في توليد الأمهات ووصف المأكولات الخاصة بتعويض فقدان الدم وتجديد نشاطات الضعف ، ومختلف حالات الاعياء والأمراض .

الأحـــلام وتفســيرها

يهتم البـدو اهتمامـا ملحوظـا بالاحلام بصورة جدية . وعندما يحلم البدوي حلما مفرحا أو مزعجا يتوجه إلى مفسرة الاحلام ليسألها عن تعبير رؤياه .. وقد برز في الصحراء عدد من العجائز الشهيرات بتفسير الأحلام وهناك رجال يتمتعون بملكة تفسير الأحـلام .. واشهرهم رجـل كان يستعين به بعض الحكام لتفسير أحلامهم ويعولون كثيرا على تفسير أحلامه للاستعانة بها في مسائل تحـركاتهم وحـروبهم ، والمسلمون عموما لا يرون في تفسير الأحلام ما يتعارض ومعتقداتهم الدينية .

ويعتقد العرب اعتقادا جازما بما توحيه لهم أحلامهم ، والبسطاء من المفسرين العرب يرون ان الحلم عادة ما يعكس معنى الرؤيا فإذا حلم شخص بشيء يحدث له فان الحلم فأل حسن وعندما يرى انه مات فيعني ذلك انه سيعمر طويلا .. ورؤية الحيوانات المفترسة والثعابين والعقارب تعني الأعداء .. ويتفاءلون برؤية الأرض الخضراء لانها تعني الجنة والملابس البيضـاء تعني الخير والسعـادة وهكذا ، والمفسرون المتفقهون بأمور الدين يتمتعون بالاحترام والتبجيل على الدوام .

وخلال اقامتي في الكويت حلمت - شخصيا - ثلاثـة أحلام بـارزة أتذكرها جيدا ، ونظرا لوضوح تلك الأحلام وغرابتها فقد دفعني الفضول للتوجه إلى امرأة بدوية ماهرة في تفسير الأحلام تدعى (أم مبارك) وهي امرأة حصيفة في تلك الأمور .

١ - الحلم الأول حلمت فيه ان الكويت تحترق ، وسكانها يهرعون إلى خارج المدينة في حالة فوضى وهياج ، وقد تبعتهم ، ثم توقفت على بعد أربعة أميال من المدينة فوق تل مرتفع ونظرت خلفي ورأيت ان البحر يعلو فجأة إلى ارتفاع خمسين قدما ثم فاض وغمر المدينة وأخمد تلك النـار بصورة سحرية .

قالت أم مبارك ان النار تعني ان كارثة ستحل بالمدينة وستدمر معظمها ثم يتدخل البحر لانقاذ الموقف ، وهذه الحالة تعني خيرا وبركة تعقبان تلك الكارثة وستعوض الناس عن الضرر

الذي لحق بهم .

وبدوري أخبرت الشيخ أحمد حاكم الكويت وبعض وجهاء البلاد عن ذلك الحلم وما قالته أم مبارك في تفسيره . ووقفوا حائرين أمام نوع تلك الكارثة وملحقاتها . وبعد سبعة أيام فقط هطلت على الكويت أمطار غزيرة أغرقت الشوارع وتسببت في انهيار أكثر من أربعمائة بيت ودمرتها ، فقد كانت مبنية من الطين .

وعلى إثر تلك الحادثة شاهدت أم مبارك وقالت لي بلهجة المنتصر ألم أقل لك ؟.. ان هذا الدمار هو تفسير تلك النار .

فأجبتها بتحفظ : وماذا عن بقية الحلم .. البحر الذي يغمر المدينة ؟. قالت : هذا هو الخير الذي جلبته الأمطار إلى أراضي البدو والمزارع عامة (فمصائب قوم عند قوم فوائد) .

وبالفعل ما كاد المطر يدمر المدينة حتى انتقل إلى الصحراء وأخصبها وكان ذلك العام عام رخاء وخير لم يسبق للكويت أن تمتعت به .. وهذا الكم القياسي من الرخاء هو العلو .. قالت أم مبارك (وهذا هو معنى علوّ البحر) .

٢ ـ الحلم الثاني .. كان تفسيره محاولة اغتيال شخصية هامة. وقد حدثت بعد تسعة أيام فقط .. وقبل أن يتحقق ذلك الحلم كنت قد أخبرت الشيخ أحمد بذلك وعندما تحقق كانت دهشته كبيرة وروى حلمي لكثير من أصدقائه وجلسائه وانتشرت القصة بينهم وارتفع مقامي عندهم .

٣ ـ الحلم الثالث .. حدث بعد أن التحقت بشركة نفط الكويت سنة ١٩٣٧ .. فقد حلمت انني وزوجتي نعيش في مخيم كبير للنفط في منزل صغير ضمن مجموعة من المباني ، وفي وسط ذلك المجمع في الجهة الجنوبية كانت تنتصب شجرة سدر .. وكان المنزل يطل على صحراء رملية .. وذات ليلة هبت عاصفة شديدة وكانت الرياح عنيفة بدرجة لم أشهدها من قبل . وطوال الليل كانت الرياح عاصفة والأبواب تصدر قعقعة وصفيرا مخيفا . بينما كانت ذرات الرمال التي تثيرها العاصفة تتغلغل داخل المنزل وتجعل التنفس صعبا وكانت ليلة لا تنسى .

وعند بزوغ الفجر تطلعت وزوجتي إلى الخارج ورأينا العاصفة قد خفت حدتها ، وأغرب ما في الأمر ان الرياح قد حفرت حفر عميقة في الأرض قرب شجرة السدر خلف المنزل محيطها حوالي ١٠٠×١٠٠ قدم وفي وسطها دكة مبنية يعلوها لوح حجري كبير حجمه ٦×٤ أقدام . وفوق هذا المبنى كان يرقد جسم منبطح ملفوف بقماش قطني قديم لونه أصفر .

وخرجنا أنا وزوجتي نتفحص الجسم ثم أزحنا اللفائف بعناية عن الوجه والرأس ، وقد أثر الزمن بقطعة القماش حتى تآكلت وكانت تتفتت ذرات من بين أصابعنا .. وكانت دهشتنا عظيمة حينما وجدنا ان الوجه

كان لفتاة جميلة ذات بشرة مشدودة ومحنطة بنية اللون . وكان من الواضح ان العاصفة قد كشفت عن قبر قديم وأزاحت الرمال المحيطة به لتكشف عن الجثة الراقدة على السرير الحجري الذي ارتفع على شكل طاولة وكان اكتشافا بشعا ، وأسرعت إلى الداخل لاستنجد ببعض الخدم لمساعدتي في حفر قبر جديد لمواراة الجثة . وعندما رجعت وجدت زوجتي في حالة اضطراب شديد وأشارت إلى وجه الفتاة الميتة الذي بدت عليه بعض التغيرات الواضحة ، إذ سرعان ما دبت فيه الحياة ، وكنا نراقب ذلك في رعب وقد ألجمت الدهشة السنتنا .. في أثناء ذلك عاد اللون إلى الوجنتين وبدأ الجسد في التنفس ، ثم انفتحت العينان وجلست المرأة وأخذت تخلص نفسها من أكفانها ببطء ، وعندما أدارت رأسها نحونا رأتنا ثم قالت فيما بدا لنا لهجة عربية قديمة «انني أشعر بالبرد بعد آلاف السنين من النوم .. ساعدوني ببعض الأغطية الدافئة ، اعطوني شيئا أكله» . ثم مدت يدها نحونا وبها عملة نحاسية قديمة ، وأخذناها بيدنا ثم اصطحبناها إلى منزلنا . حيث ساعدتها خادمتنا العربية على الاستحمام وألبستها الملابس بينما كنا نقوم بإعداد الطعام لها .

وبعد أن شاركتنا الطعام أعربت المرأة عن رغبتها في الذهاب إلى الحديقة والجلوس تحت شجرة السدر ، فلم نمانع .. وبعد قليل رفعت رأسها وقالت : «انني في خطر داهم ، ويجب أن اذهب إلى القنصل البريطاني أو إلى حاكم الكويت ، ان باستطاعتهما حمايتي» . وعندما سألناها أن توضح لنا ماذا تقصد ، قالت إذا عرف بعض الناس الأشرار انني عدت إلى الحياة فسيبحثون عني لقتلي ودفني مرة أخرى لانهم لا يريدون لي رؤية ضوء النهار .. انقذوني منهم يا أصدقائي .. أريد أن أعيش .. وبينما هي تتحدث سمعنا صيحات جماعة من الرجال ، ورأينا أشخاصا عديدين يهجمون علينا حاملين سلاسل حديدية وسيوفاً ، ومن الواضح انهم ينوون الحاق الأذى بنا . وكان يقودهم رجل عجوز له لحية بيضاء وبيده سكين طويلة وكان وجهه شرير الطلعة ، وعندما اقترب صاح بأتباعه أن يمسكوا المرأة التي انكمشت داخل نفسها وأمرهم أن يدفنوها حية .. وأثناء قيام بعضهم بتقييدها بدأ آخرون يحفرون بسرعة قبرا عميقا .. وقامت جماعة ثالثة بملء القبر بالمياه .

وبدا وكأنني وزوجتي قد أصبنا بشلل مفاجيء .. وفقدنا الحركة تماما ولم يعد بمقدورنا تحريك يد أو قدم لمساعدة الفتاة .

صرخ الرجل العجوز ذو اللحية البيضاء بعصبية «سندفنها حية في قبر من الطين» وبمساعدة الآخرين سحبوا الفتاة إلى حافة القبر حتى غاصت رجلاها في قبر الطين وهي متعلقة بحافته ، وبينما هي تناضل

شعرت أن خدر السحر يزول عني وقفزت إلى الأمام وأسرعت لمساعدة الفتاة ، وبعد أن قتلت الرجل العجوز بضربة فوق رأسه هاجمت الآخرين بطريقة جنونية ، وفي لحظات اختفى الناس ولم يعد أحد غير العجوز الميت وزوجتي والفتاة . وبعد أن مددت يدي للفتاة وضعت حولها العباءة وأخذناها داخل المنزل .. ثم استيقظت ـ أنا ـ من النوم .

ودهشت من تفاصيل ذلك الحلم الغريب لدرجة انني ذهبت في اليوم التالي إلى المعبرة (أم مبارك) وقصصت عليها الحلم كله وكانت تنصت إلي باهتمام كبير .. ثم أجابت اجابة بطيئة قلقة «اذهب يا بني إلى المدير الكبير (تقصد المفتش العام لشركة النفط) وقل له انه لن يجد بترولا حيث يحفر الآن .. قل له أن يردم تلك المنطقة التي يحفر فيها وينقل المخيم من منطقة (البحرة) من الجانب الشمالي من جنوب الكويت إلى منطقة (البرقان) جنوبي الكويت .. وعندما يصل إلى هناك دعه يبحث عن شجرة السدر المنتصبة هناك واطلب منه أن ينقب عن البترول في تلك المنطقة . وسوف يجد هناك من الذهب الأسود قدر ما يريد .. ان تفسير حلمك هذا هو ذاك المجال يا بني .. فالجثة التي انكشفت وعادة إلى الحياة هي البترول الذي تبحثون عنه .. وشجرة السدر التي وجدت بجانبها هي شجرة السدر الوحيدة هناك قرب تلال البرقان .. ولا يوجد غيرها في الصحراء كلها .. وتقع قرب آبار جعيدان .

وقد أثر في نفسي تفسير أم مبارك لدرجة انني لم أجد غضاضة في ابلاغ المفتش العام فورا .

وبعد مرور شهرين بدأت جماعة التنقيب عن النفط عملها حول تلال البرقان ، وفي الحال تم العثور على أجود أنواع البترول في المنطقة قرب شجرة السدر الوحيدة .. في مقابل ذلك قامت الشركة باغلاق بئر (بحره) وصرفت نظرها عن التنقيب هناك إلى الأبد . وكان اكتشاف بئر برقان تحقيقا رائعا لحلمي العجيب .

*****

روّاد الإصلاح في العصر الحديث

عبدُ الرّحمن الك

بقلم الدكتور: فهمي توفيق مقبل

لا يعرف أحد على وجه الدقة السنة التى ولد فيها عبدالرحمن الكواكبى ، ففي الوقت الذي تتفق فيه بعض المصادر على انه من مواليد ١٢٧١هـ (١٨٥٤م) ترجح اخرى انها سنة ١٢٦٦هـ (١٨٤٩م) وسبب هذا الاختلاف - عند جمهور المؤرخين المعاصرين - الاعتقاد بأن الكواكبي قد عدل تاريخ ولادته فى شهادة الميلاد الاصلية ، لاسباب تتعلق بحياته الخاصة . لعلها تكمن في الترشيح لانتخابات ، أو تقلد مناصب سياسية رفيعة ، تتطلب سنا قانونية اصغر ام أكبر من المسجل في شهادة الميلاد الاساسية ، وربما ترجع الى عدم رغبته في حياة الجندية ، فقام ، بهذا الاجراء ليكون بمناى عن الطلب للخدمة العسكرية ..؟ مهما يكن من امر فقد تم الاتفاق عرفا بين الاوساط المهتمة بسيرة الكواكبي وتاريخه ، على انه من مواليد مدينة حلب الشهباء سنة ١٢٧١هـ (١٨٥٤م) ، وسليل اسرة عريقة يقال ان نسبها يرقى الى الامام على بن ابي طالب (رضي الله عنه) ، ونشأ



٣

واكبي

في بيئة اسرية نظيفه ، شغل رجالها مناصب رفيعة لدى الدولة العثمانية ، وقد شغل والده الشيخ احمد مسعود الكواكبى منصب أمين الفتوى فى مدينة حلب ومدرسا في مسجدها ، مدخرا حياته للعلم والتبحر فيه ، اما امه عفيفه بنت مسعود النقيب ، فقد ولدت في بيت علم وادب ، حيث شغل والدها منصب مفتي انطاكية ، وكان من علماء زمانه المعدودين .

هذه البيئة النقية والمحتد الاصيل شكل عبدالرحمن الكواكبى المصلح ، والمفكر العربى الاسلامى الكبير ، وضمه الى كوكبة الشرف من المصلحين الفرسان المنافحين من اجل الوحدة الاسلامية ، وصانعي فجر النهضة العربية الاسلامية الحديثة ، وهم جمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده ، ومحمد رشيد رضا .

تلقى الكواكبى علومه الاولى في

مدينتى انطاكية وحلب ، واتقن الى جانب لغته الاصلية (العربيـة) التركية والفارسية ـ واظهر الى جانب اهتمامه بالعلوم اللسانية والدينية ـ اهتماما خـاصا بقـرض الشعر ، وبالكتب التاريخية ، والفلسفية .. وانخرط مبكرا فى معتـرك الحياة السياسية ، فكان بيته ملاذا للفقراء والمضطهدين .

كانت حياة الكواكبي وسيرتـه السياسية والعلمية حافلة بالجهد الـدؤوب المخلص ، والبحـث عن الحقيقـة دون وجـل او خـوف ، بالاضافة الى ما حباه الله به من بصيرة نافذة ملهمة ، وذكاء حاد وقاد .. وعرف كيف يوظف ذلك كله في خدمة امته ، حيث عمل فى مطلع حياته ـ ما بين ١٢٩٢ ـ ١٢٩٧هـ (١٨٧٥ ـ ١٨٧٩م) ـ محـررا ومترجما في جريدة « الفرات » ، التى كانت تصدر فى حلب باللغتين العربية والتركية ، ثم جمع بين الـوظيفة والأعمال الحرة، حيث انشأ في حلب سنة ١٨٧٨ جريـدة « الشهباء » لتكون اول جريدة مستقلة صدرت فى حلب ، لكنها ما أن رأت النور حتى اغلقتها السلطات بعد صدور (١٥) عددا منها ، كانت فيها منبرا حرا ، تعالج من خلاله قضايا المجتمع بكل صدق ووضوح ، وتنتصر لحقـوق الضعفاء منددة بالظلم والظالمين .. ولم يحل قرار توقف الشهباء عن الصدور دون محاولاتٌ اخرى من الكواكبى لاستئناف صوت الاصلاح عبر الصحافة ، حيث اصدر فى العام التالي ١٢٩٧هـ(١٨٧٩م) ، جريدة « الاعتدال » الا ان حظها لم يكن اوفر من حظ شقيقتها ، « الشهباء » حيث سرعان ما امرت السلطات بايقافها عن الصدور لنفس الاسباب . وفي خضم تغيرات فكريـة هامـة ، وتحولات اجتماعية خطيرة ، وتوقعات سياسية مرتقبة .. حاولت السلطات استرضـاء الكواكبى ، فقلبته في عدة مناصب ، ووظائف هامة في الفترة ما بين ١٢٩٧ ـ ١٣١٢هـ (١٨٧٩ ـ ١٨٩٤م) ، كان اهمها ترؤسه كتاب المحكمة الشرعية وغرفة التجارة والـزراعة والصناعة في حلب ، لكن هذه الوظائف والمناصب لم تأخذ من الكواكبي اهتماماته بالسياسات الرامية لاخراج الناس من قبضة الظلم والظالمين ، ووضع الخطط الاصلاحية فى رؤية اسلامية حقة ، وقد اوصلته اراؤه الصريحة المعلنة ، وانتقاداته البناءة الى السجن غير مرة ، مع محاولات لاقصائه الى مناطق نائية بعيدا عن مدينته الاثيرة حلب .. وقد انكب في هذه الاثناء على كتابة كتابه ـ واسع الانتشار ـ « ام القرى » وذيله بتوقيع

مستعار باسم « السيد الفراتى » والكتاب بمجمله يقدم وصفا صوريا لمؤتمر من نسج خيال الكواكبى اسماه « مؤتمر النهضة الاسلامية » وجعل من مكة مقرا للمؤتمر وقبلة الوفود القادمة من مختلف الاقطار الاسلامية والعربية للمشاركة فيه ، وقام بالنيابة عن هذه الوفود بعرض وجهات نظرها ، متكلما بلسان حالها عن اوضاع اقطارها الحياتية العامة ، طارحاً فى نهاية الأمر دعوته باقامة خلافة عربية بدلا من الخلافة العثمانية ..! وقد ذاع حديث الكتاب واحدث صدى واسعا في مختلف ارجاء الدولة العثمانية ، الامر الذى الب عليه السلطات ، ولم تعد حلب الكبيرة تتسع للكواكبي وتطلعاته المناهضة للسلطات العثمانية فى الولايات العربية فهاجر الى مصر سنة ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) وسط ترحيب من اخوانه ومريديه ورجالات مصر ورموز الفكر والثقافة فيها .. ومن مصر واصل الكواكبى رسالته فى نشر افكاره التحررية ودعوته الى النهضة والاصلاح ، ومن المعتقد ان الكواكبى قام بنفسه بجولات سياسية شملت اقطارا عربية واسلامية عديدة ، فى خدمة توجهاته العربية الجديدة ، وتتحدث المصادر عن هذه الجولات السياسة بالقول انها تمت بالاتفاق مع الخديوى عباس حلمي الثاني (١٣١٠ - ١٣٣٣هـ = ١٨٩٢ - ١٩١٤م) الذى يبدو انه كان طامعا في استثمار جهود الكواكبى ، لصالحه الشخصي !

من القاهرة انطلق الكواكبى بقوة ، مشاركا بزخم هائل فى الحركة الفكرية العربية الاسلامية ، المهمومة بقضايا ، امتها ، الباذلة اقصى مستطاعها لتجنيب العالم العربى والاسلامى أعراض الاثار السلبية ، المترتبة على تدهور حالة الدولة العثمانية ، وغياب شخصيتها وهيبتها فى الشرق ، وفى ضوء هذه التوقعات والمؤشرات الدالة على ذلك .. شرع الكواكبي مجردا قلمه فى اثراء الساحة الفكرية ، والسياسية في مصر ، معيدا نشر كتابيه المشهورين « ام القرى » وطبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، وفى هذا الاخير وضع الكواكبي خلاصة تجربته الفكرية الخصبة ، والتى تتمثل فى كيفية بناء اسس المجتمع الصالح الحر الذي يتمناه لشعوب امته ، وهي الافكار التى تؤيد تماما وجهات نظر استاذيه الافغاني وعبده الفكرية ، حيث اظهر كل الوفاء والتقدير ، الذى يظهره التلميذ لاساتذته الاجلاء المخلصين ، متأثرا الى ابعد حدود التأثير بمدرسة استاذيه الوفية للمبادىء ، والقيم ،

والفكر الاسلامى الاصيل .. سائرا على نهجيهما حتى وافاه الاجل المحتوم فى ١٤ حزيران (يونيو) ١٩٠٢ (١٣٢٠هـ) فى القاهرة .

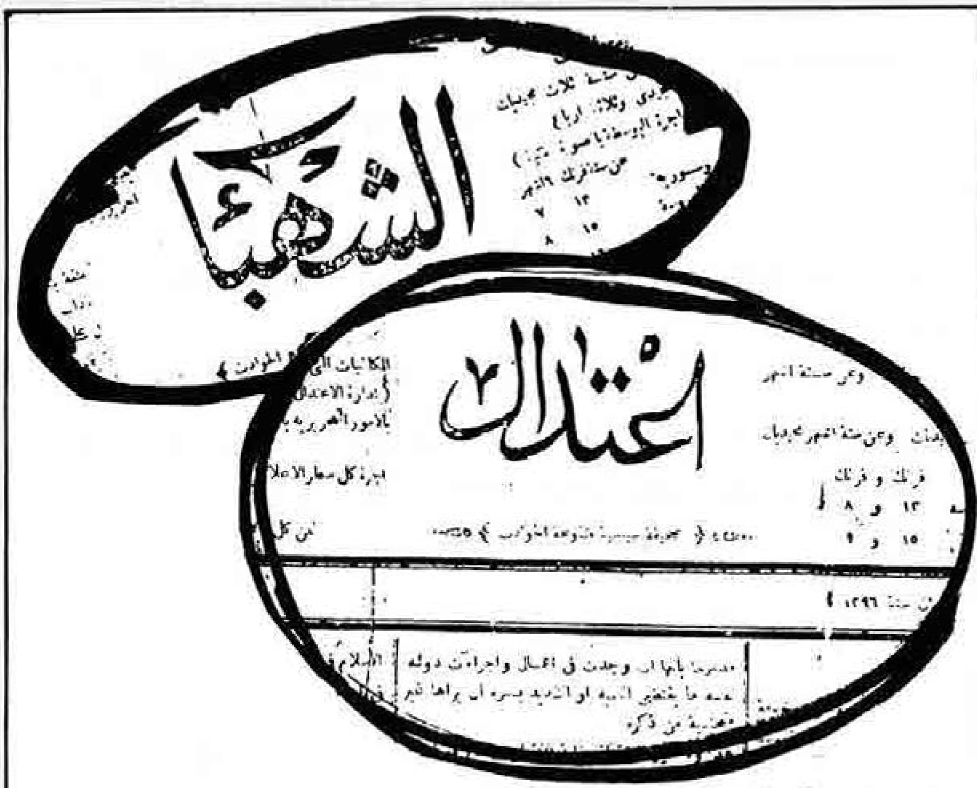
مات الكواكبي (رحمه الله) فى ظروف غامضة ومريبة ، يعتقد ان السلطات فى مصر غدرت به ، وتذهب معظم الروايات الى ان الكواكبى مات مسموما ! ومن الجدير بالذكر ، ان الكواكبى - وقبيل وفاته - كان يعد لنشر مذكراته التى دونها اثناء رحلته (التى تقدم ذكرها) ، وحالت وفاته دون ان ترى هذه المذكرات النور . وقد اقدمت السلطات - بمجرد اعلان الوفاة - على مداهمة منزله ، ومصادرة ما فيه من وثائق علمية ، واوراق هامة اخرى مازالت مجهولة المصير !!

رحم الله المصلح والمفكر العربى الاسلامى الكبير عبدالرحمن الكواكبى ، لقاء ما جاهد فى سبيل امته ، وما بذله من تضحيات من اجل عزتها ورقيها ورفعتها ، وان مضي الكواكبى ، فان ذكره لم يمض معه بل بقي حيا في وجدان امتنا الوفية لجهوده البناءة ..

أعمالهُ

(أ) الكتب :

- ام القرى (حلب ١٢٧٧هـ = ١٩٥٧م و ١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م) (راجع المادة التالية) .
- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد (حلب ١٣٧٧ و١٣٧٩هـ = ١٩٥٧ و ١٩٥٩م) اعادت طباعته مؤسسة ناصر للثقافة . (بيروت ١٤٠١هـ = ١٩٨٠م) تحت (سلسلة الاجتماع ٣٢ : خزانة الفكر العربى) ومن المعروف ان الكواكبي جمع بنفسه اعماله الكاملة فى مجلدين ، تحت عنوان « صحائف قريش » و « العظمة لله » ، وقد اشار العديد من المؤلفين المهتمين بسيرة الكواكبي بانه ترك وراءه ديوانا من الشعر لم يتم العثور عليه ومازال مفقودا حتى الآن . للمزيد حول الموضوع ، راجع عبدالرحمن الكواكبى (الحفيد) « جدي عبدالرحمن الكواكبى » فى العربى ، العدد ١٢ (١٣٨٠هـ = ١٩٦٠م) ص ٤٥ - ٤٩ ، انظر هنا ص ٤٩ انظر ايضا سامي الدهان : عبدالرحمن الكواكبي (القاهرة ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م) ص ٦٧ - ٦٨ .



(ب) المقـالات :

ـ اما فيما يتصل بالمقالات التي كتبها عبدالرحمن الكواكبى والتى جمعت فيما بعد على شكل كتاب كانت قد نشرت على حلقات في مجلة المنار (القاهرة) تحت عنوان « ام القرى » وفى جريدة المؤيد (القاهرة) تحت عنوان « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » فى الفترة ما بين (١٣١٨ ـ ١٣٢٠هـ = ١٨٩٠ ـ ١٩٠٢)م اى بعد سنة واحدة من وصول الكواكبى الى مصر قادما من سوريا (١٨٩٩م) ومنذ هذا التاريخ جمعت هذه المقالات وظهرت فى عدة طبعات تحت نفس العنوانين المشار اليهما فيما تقدم (وفي مجلدين) ، راجع مقتطفات من موضوع الاستبداد والتربية للكواكبي ، نشر حديثا في مجلة العربي الكويتية ، العدد ٢٢٨ ص ٨٨ ـ ٨٩ ، وفي سبيل مراجعة شاملة لاعمال الكواكبى ، انظر الدراسة التامة والوافية للاستاذ الدكتور محمد عماره ، عبدالرحمن الكواكبى ـ الاعمال الكاملة (بيروت ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م) .

Translations **(ج) أعماله المترجمة :**

Incomplete German translation by Gerhard Roth, Kawakibi, Ein Arabischer Nationalist, Ph.D. thesis, (Berlin, 1942)

Extract from S. Haim, Arab Nationalism: An Anthology, esp. pp. 78-80.

Extract from A. Abdel-Malik ed., Anthologie de la Lite´rature Arabe Contemporaine, (Paris, 1965), pp. 66 ff.



دراسات عن عبد الرحمن الكواكبي بالعربية

(أ) الكتب :

- أحمد أمين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، ط ٤ ، (القاهرة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٧٩ م) راجع هنا الصفحات ١٦٧ ـ ٣٠١ .
- أحمد أمين : فيض الخاطر ، انظر هنا المجلد السادس ، ص ١٧٩ ـ ٢٠٢ .
- أ . الخوري المقدسي : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ، في مجلدين (بيروت ١٣٧٢هـ = ١٩٥٢م) . ط ٧ حديثه ، عن دار العلم للملايين (بيروت ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م) .
- بطرس غالي الكواكبي والجامعة الاسلامية : القاهرة . د . ت سلسلة كتب قيمة العدد ٣٤ .
- سامي الدهان : عبدالرحمن الكواكبي ، ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢ ، (القاهرة ١٣٨١هـ = ١٩٦٤م .
- عباس محمود العقاد : الرحالة « كاف » عبدالرحمن الكواكبي ، القاهرة ١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م .
- عبدالله كنون : التعاشيب ، (تطوان ـ المغرب د.ت) انظر خصوصا الصفحات ١٣٦ ـ ١٤٧ .
- فيليب طرزي : تاريخ الصحافة العربية ، في ٤ مجلدات (بيروت ١٣٣٢ ـ

١٣٥٢هـ = ١٩١٣ ـ ١٩٣٣م) ، انظر المجلد ٢ ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ و ٢٢١ ـ ٢٢٣ .
- كستاكي الحمصى : ادباء حلب ذوو الاثر في القرن التاسع عشر ، حلب ١٣٤٤هـ =١٩٢٥م) .
- مارون عبود : رواد النهضة الحديثة ، (بيروت ١٣٧٢هـ = ١٩٥٢م) انظر هنا ص ٢٠١ ـ ٢٠٦ .
- المجلس الأعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية : مهرجان عبدالرحمن الكواكبى ، (القاهرة ١٣٨٠هـ = ١٩٦٠م) .
- محمد احمد خلف الله : الكواكبي ، حياته وآراؤه ، (القاهرة ١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م) .
- محمد راغب الطباخ : شيخ اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، (حلب ١٣٤٥هـ = ١٩٢٦م : انظر هنا المجلد ٧ ، ص ٥٠٧ ـ ٥٢٤ .
- محمد شاهين حمزه : عبدالرحمن الكواكبى : (القاهرة ١٣٧٨هـ = ١٩٥٨م) .
- محمد عماره : عبدالرحمن الكواكبى ، الاعمال الكاملة ، (بيروت ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م) .
- نوربير تابييرو : الكواكبي المفكر الثائر ، اسهام فى دراسة الاسلام الحديث ، ترجمة على سلامه ، منشورات دار الاداب ، (بيروت ١٤٠٢هـ = ١٩٨١م) .
- يوسف اسعد داغر : مصادر الدراسة الادبية ، في ٤ مجلدات ، (بيروت ١٣٧٦ ـ ١٣٩٢هـ = ١٩٥٦ ـ ١٩٧٢م) ، انظر هنا المجلد ٢ ، ص ٦٧٤ ـ ٦٧٥ .

(ب) المقــالات :

- ابراهيم سليم النجار : « عبدالرحمن الكواكبى » في الحديث ، المجلد ١٤ (حلب ١٣٥٩هـ = ١٩٤٠م) ص ٣ ـ ٧ .
- ابراهيم سليم النجار : « عبدالرحمن الكواكبى » في الحديث ، المجلد ٢٥ ، (حلب ١٣١١هـ = ١٩٥١م) ص ١١٦ ـ ١٢١ .
- اسعد عبدالرحمن الكواكبى (الابن) : « عبدالرحمن الكواكبى » في الحديث ، المجلد ٢٦ ، عدد خاص عن الكواكبي أيلول وتشرين أول (سبتمبر وأكتوبر ، حلب ١٣١٢هـ = ١٩٥٢م) ص ٥٤٢ ـ ٥٥٤ .
- اسعد عبدالرحمن الكواكبى (الابن) : « صفحات لم تنشر في كتاب طبائع الاستبداد » في الحديث ، المجلد ٢٦ ، (حلب ١٣١٢هـ = ١٩٥٢م) ،

ص ٥٥٥ ـ ٥٥٩ .

ـ برهان الدين الداغستاني : « عبدالرحمن الكواكبي » في الثقافة ، المجلد ٥ ، (دمشق) ص ٣١٠ وما بعدها .

ـ جورجي زيدان : « السيد عبدالرحمن الكواكبى » فى الهلال ، العدد ١٠ ، يوليو (تموز) (١٩٥٢م = ١٣١٢هـ) ، ص ٥٩٤ ـ ٥٩٦ ، اعاد جورجي زيدان طبعها في كتابيه تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ، في مجلدين (القاهرة ١٣٦٢هـ = ١٩٤٤م) ، انظر هنا المجلد الاول ص ٢٥ ، وتاريخ اداب اللغة العربية فى ٤ ملجدات (القاهرة وبيروت ، ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م : انظر هنا المجلد الرابع ص ٢٧٠ .

ـ سامي الكيالى : « ذكرى الكواكبى ، بمناسبة خمسين سنة على وفاته » ، في الحديث ، المجلد ٢٦ ، (حلب ١٣١٢هـ = ١٩٥٢م) ص ٥٢٧ ـ ٥٤١ .

ـ سامي الكيالى : « عبدالرحمن الكواكبى » في مجلة الكتاب ، المجلد ٣ (القاهرة عدد يناير (كانون ٢) ١٣٦٧هـ = ١٩٤٧م) ص ٤٣٧ وما بعدها .

ـ عبدالرحمن الكواكبى : الحفيد « المبادىء الخالدة فى كتاب طبائع الاستبداد وام القرى » في الحديث ، المجلد ٢٦ ، عدد خاص ، (حلب ١٣١٢هـ = ١٩٥٢م) ص ٥٦٤ ـ ٥٧٨ .

ـ عبدالرحمن الكواكبى : الحفيد « جدى عبدالرحمن الكواكبى » في العربى ، العدد ١٢ ، الكويت (١٣٨٠هـ ١٩٦٠م) ص ٤٥ ـ ٤٩ .

ـ عبدالهادى بو طالب : « ذكريات وشهادات ووجوه » كتاب تنشره على حلقات جريدة الشرق الاوسط ، الحلقة ١٥ ، العدد ٣٥٢٩ (لندن ٢٧ تموز (يوليو) ١٩٨٨م = ١٤٠٨هـ) .

ـ كامل الغزالى : « تاريخ ما اهمله التاريخ من سيرة عبدالرحمن الكواكبى » في الحديث ، المجلد ٣ (حلب ١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م) ص ٤٠٥ ـ ٤٢٠ و ٤٤٥ ـ ٤٥٠ .

ـ لويس شيخو : « عبدالرحمن الكواكبى » في المشرق ، العدد ٢٣ ، (بيروت ١٣٤٤هـ = ١٩٢٥م) ص ٣٨٢ وما بعدها .

ـ محمد جميل بيهم : « عهد الكواكبي في العالم العربى » فى الحديث ، العدد ٢٦ ، (عدد خاص) (حلب ١٣٧٢هـ = ١٩٥٢م) ، ص ٥٥٩ ـ ٥٦٣ .

ـ محمد رشيد رضا : « طبائع الاستبداد » في المنار ، المجلد ٤ ، (القاهرة ١٣٢٠هـ = ١٩٠٢م) ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

ـ محمد رشيد رضا : « ام القرى » فى المنار ، المجلد ٤ ، (القاهرة ١٣٢٠هـ = ١٩٠٢م) ص ٩٥٩ ـ ٩٦٠ .

ـ محمد رشيد رضا : « مصاب عظيم بوفاة عالم حكيم »، فى المنار ، المجلد ٥

(القاهرة ١٣٢٠هـ = ١٩٠٢م) ص ٢٣٧ ـ ٢٤٠ و ٢٧٦ ـ ٢٨٠ .
ـ محمد كرد علي : « السيد عبدالرحمن الكواكبي » في المقتطف العدد ٢٧ ، (القاهرة ، يوليو (تموز) ١٣٢٠هـ = ١٩٠٢م) ص ٦٢٢ ـ ٦٢٤ .
ـ محمد لطفي جمعه : « ثلاثة رجال : الافغاني ، الكواكبي ، الثعالبي » في الحديث ، المجلد ١١ ، (حلب) ص ٦٥٠ .
ـ محمود السمره : « نقد لكتاب العقاد » الرحالة كاف « عبدالرحمن الكواكبي » في العربي ، العدد ٢٧٧ (الكويت ١٣٩٨هـ = ١٩٧٧م) ص ١٣٨ ـ ١٤٢ .
ـ في المقتطف (مجلة) : « الكواكبي » المجلد ٢٥ (القاهرة ١٣١٩هـ ـ ١٩٠١م) ص ٦٧٥ وما بعدها .
ـ م . يحيي الهاشمي : « الكواكبي باعث النهضة العلمية » ، في الحديث ، المجلد ٢٦ ، (عدد خاص) (حلب ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٢م) ص ٥٧٩ وما بعدها .



دراسات عن الكواكبي بلغات أجنبيّة

(أ) الكتب :

a. Books

Haim, Sylvia. The Ideas of Precursor: ʿAbd al-Rahmān al-Kawakibi (1849-1902) in Relation to the Trend of Muslim Arab Political Thought, Ph.D. thesis, (Edinburgh, 1953).

Al-Husry, Khaldun. Three Reformers: A Study in Modern Arab Political Thought, (Beirut, 1966), esp. 54-112.

Kessler, Christel. ʿAbd al-Rahmān al-Kawākibī's Reform des Islam. Ph.D. thesis (FU Berlin, 1956).

Tapiéro, Norbert. Les Idées Réformistes D'al-Kawakibi, 1265-1320H. . 1849-1902AD: Contribution A L'étude de L'Islam

Moderne, (Paris, 1956); Arabic trans. al-Kawākibi al-Mufakkir al-Tha'ir, by Ali Salama, 2" edn., (Beirut, 1981).

b. Articles **(ب) المقالات :**

Haim, Sylvia. 'Alfieri and al-Kawākibī', in Oriento Moderno, xxxiv, No. 7, (1954), pp. 321-334.

Haim, Sylvia. 'Blunt and al-Kawākibī', in Oriento Moderno, xxxv, No. 3, (1955), pp. 132-143.

Kedourie, Eli. 'The Political Literature: Kawākībī, Axouri and Jung', in Middle Eastern Studies, Vol. 8, No. 1, Jan., (1972), pp. 227-240.

Rossi, Ettore. 'Una Traduziona Turca dell' opera 'Della Tirannide' di V. Alfieri probabilemente conosciuta da al-Kawakebi', in Oriento Moderno, xxxiv, No. 7, (1954), pp. 335-337.



السّيرة الذاتيّة للكواكبي باختصار وفق التسلسل الزمني

١٢٧١ هـ - ١٨٥٤ م	ولادته بمدينة حلب(*) .
١٢٧٧ هـ - ١٨٦١ م	تلقى دروسه الاولى في انطاكيه وفي حلب ، متقنا اللغة العربية ، الى جانب اتقانه للغتين التركية والفارسية .
١٢٩٢ هـ - ١٨٧٥ م	ظهر ميله للاشتغال بالسياسة ، ودخل معترك الحياة العامة ، محررا ومترجما في جـريدة «الفرات» ، التي كانت تصدر في حلب باللغتين العربية والتركية . ثم جمع بين الوظيفة والاعمال الحرة .
١٢٩٦ هـ - ١٨٧٨ م	أنشأ في حلب جريدة «الشهباء» لتكون أول جريدة مستقلة صدرت في حلب .

(*) يرجح العديد من المصادر أن الكواكبي من مواليد ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) ، ويسود الاعتقاد عند جمهور المؤرخين المعاصرين ، بان الكواكبي قد عدل تاريخ ولادته في شهادة الميلاد الأصلية لاسباب تتعلق بحياته الخاصة . لعلها تكمن في الترشيح لانتخابات أو تقلد مناصب سياسية رفيعه ، تتطلب سنا قانونية أصغر أو أكبر من المسجل في شهادة الميلاد الاساسية ، وربما ترجع الى عدم رغبته في حياة الجندية ، فقام بهذا الاجراء ليكون بمنأى عن الطلب للخدمة العسكرية ..؟

١٢٩٧ هـ ـ ١٨٧٩ م	بعد توقف «الشهباء» عن الصدور بأمر من السلطات أصدر جريدته الثانية «الاعتدال» لكن سرعان ما واجهت نفس مصير «الشهباء» .
ما بين ١٢٩٧ ـ ١٣١٢ هـ ١٨٧٩ ـ ١٨٩٤ م	تقلب الكواكبي في هذه الفترة ، في عدة مناصب هامة في مدينة (حلب) ، كان أبرزها ترؤسة كتاب المحكمة الشرعية وغرفة التجارة والزراعة والصناعة ، ولجنة المنافع العمومية ، ومدير اجراء حلب ، وفي محاولة لاقصائه عن مدينته الاثقرة حتب عين نائبا شرعيا لقضاء راشيا (من اعمال منطقة الجزيرة بشمال سوريا) . لكنه رفض تسلم هذه الوظيفة .
١٣١٦ هـ ـ ١٨٩٨ م	هاجر الى مصر فرارا من مضايقات السلطة له .. ومن القاهرة ـ التي سبقه اليها الشيخ محمد رشيد رضا ـ انطلق الكواكبي مشاركا بزحم في الحركة الفكرية العربية الاسلامية .
١٣١٨ هـ ـ ١٩٠٠ م	نشر لأول مرة كتابه «أم القرى» الذي كان قد ألفه على نحو سابق وأثناء وجوده في حلب ، وذيله بتوقيع مستعار باسم «السيد الفراتي» وقد نشر الكتاب على حلقات في مجلة المنار ، كذلك نشر في جريدة المؤيد على حلقات كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» وقد أيدت افكار الكواكبي افكار استاذيه جمال الدين الافغاني ومحمد عبده :
١٣٢٠ هـ ـ ١٩٠٢ م	وفاته (رحمه الله) في القاهرة ، وتذهب معظم الروايات الى أنه مات مسموما !

★★★★★